المزعنف

رسول الماء

علي بداي

رواية

المُزَعْنَفُ رَسُولُ الماء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
2021

المزعنف رسول الماء

الموضوع: رواية

تأليف: علي بداي

تدقيق لغوي:حسين أبو سعد

تحرير: لينه عامر

إخراج: ظمأ

عدد الصفحات: 200

عدد النسخ : 1000

تصميم الغلاف: لينه عامر

لوحة الغلاف، منحوتة حجرية آشورية محفوظة في متحف بغداد.

NBSI: 879-3399-706-74-0

يمنع نسخ أو استعمال أيٍّ جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلةنشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تُعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

دار ظمأ للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ السويداء ـ الشارع المحوري

هاتف: ٠٠٩٦٣ ـ ١٦ ـ ٢٠٣٢٥٢

هاتف: ٠٠٩٦٣ ـ ١٦ ـ ٢٠٣٢٥٢

هاتف: ٠٠٩٦٣ ـ ١٦ ـ ٢٠٣٢٥٢

fatenbookshop@yahoo.com

المُزَعْنَفُ رَسُولُ الماء

رواية

علي بداي

لتكن القراءة عادة

من خلال تجربتنا مع القرّاء، والتي جاءت نتيجة عملنا في متجرٍ لبيع الكتب، كان وما يزال شعارنا (لتكن القراءة عادة)، ومن خلال دار النشر «ظمأ». فقد لمسنا على الرغم من التنوّع والثقافات الكثيرة في مجتمعاتنا العربية أن القارئ العربي يتخوّف من الكتاب إجمالاً، وعلى الأخص ممّا يصادفه من كتب قد توحي بأنها مختلفة عمّا تبنّاه من أفكار ومعتقدات وأيديولوجيات، فتراه غارقاً فيما يُنمّي ذلك الانتماء دون سواه، وكأنّه في اطّلاعه على ثقافات الآخرين ومعتقداتهم سيكون مُجبَراً على مجاراتهم، وهذا لا يطابق الواقع أبداً.

لذلك نقول:

عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة:

الاختلاف ليس بالضرورة خلافاً، وانطلاقاً من هذا المبدأ، يسعدنا في «ظمأ» أن ندعوكم إلى القراءة بشكل عامّ، لأننا ندرك كما يدرك غالبيتكم أن المعرفة والوعي هما اللذان سينهضان بمجتمعاتنا، كما أننا نُلحّ عليكم جميعاً بالدعوة إلى القراءة، مع الحرص على أخذ مسافة أمانٍ كافية من أيّ كتاب، بحيث تكون واعياً تماماً أن الكتاب صديق جيد إن أحسنت محاورته، فقد تجد فيه ما يزيل الغبش عن عينيك، وقد يصادف أن تجد فيه ما يؤكّد قناعاتكَ.

وأخيراً.. نتمنّاها قراءة ممتعة، مفيدة، تغنيكم عن السفر، تقرّبكم من الآخرين، وتقرّب الآخرين منكم... علّها بذلك تزهر محبةً وألفة.

المؤلف في سطور

علي بَداي، مواليد بغداد عام 1958م، عاش في بغداد على ضفاف دجلة والبصرة وتنقَّل ما بين دمشق، وبيروت، وبراغ، وامستردام.

ماجستير هندسة مدنيّة جامعة براغ CVUT، دكتوراه في هندسة المدن الذكية في جامعة VUT

صدر له حتّى الآن:

1. أسرار عائليّةٌ (رواية) دار ميزر 2019

2. حروبُ مالك الحزين (رواية) دار كوتلاند 2016

3. ابنُ الطنطل (رواية)

4. انفجار ذاكرة (رواية)

5. المزعْنَفُ رسولُ الماء (رواية)

6. البحثُ عن العقل الهارب (جولة بين خرائب العالم العربإسلاميّ)

7. عقاب الطّين (عن فكرة التَّعذيب السّياسي في العراق)

8. ليل البلاد الطّويل (سيرة ذاتية) دار كوتلاند 2016

9. دقَّ جرسُ الدّرس بجزئين (عن مدرسة السّتّينيات والسّبعينيّات العراقيّة) تعهّدت وزارة الثّقافة العراقيّة بنشره.

همسَ «المزعنَفُ» بأذني:

ما هي الأسطورة؟.

هي حلٌّ مؤقتٌ لما ليس له حلٌّ، وتفسير آني لما لا تفسير له، و هي ما يدفعنا للتَّفكير بحلِّ ما لا حلَّ له، وبتفسير ما لا تفسير له. المعضلة الكبرى أنْ تتحوَّل الأسطورة من حلٍّ مؤقَّت إلى آخر دائم، فتكتسب صفة القدسيَّة، وعندها سيمسك ماضي الزَّمان بالحاضر من أذنيه ويربطه إلى أوتاد خيمة التَّاريخ..

أونيس

ـ قف، قف!

أتـت الصَّيحـة مـن بعيـد هـازةً سـكونَ اللّيـل بعنـف، ثـمَّ رأيـتُ كتلةً لـشيء ضخـم، حسـبته أوَّلَ الأمـر خنزيـراً وحشـياً، تسـلَّل بطريقـة ما إلى الموقـع، ووجـد نفسـه مُحـاصراً، لكنَّـه عندمـا سـقط وانقلب، زحـف مثل فقمـة، أو سـحليّة كبـيرة بعد أنْ ارتطم بالسِّـياج الحديديِّ المشـبَّك الفاصل بـين موقـع الشركـة، وجـرف النَّهـر. تـوارى للحظـات في الظَّـلام خلـف تـلال الطمـي، ومـا لبـث أنْ تجاوزهـا منحـدراً صـوب الجـرف المضـاء، يحـاول الانـزلاق إلى المـاء. كان قبالـة نافـذتي. لحقـه الحـارس صائحـاً:

ـ لا تتحرك، سأطلقُ النارَ! ألقِ كلَّ أسلحتكَ إلى الأرض، انبطحْ.

ارتبـك الحـارس «شـلش»، واختلطـت عليه الأمـور من الخـوف، فقد تخيَّل الحيـوانَ لصّاً!

بقيـت أراقبهـما من شـبَّاك غرفتي، فرأيـتُ كتلةً ممددةً عـلى الأرض مثل سـمكةٍ كبـيرة، ثمَّ سـمعتُ صوتاً يصيح بصـوت مخنوق:

ـ لاسلاح لديَّ!

عقـدت الدَّهشـةُ لسـاني، بـشر لا حيـوان! كنـت عـلى وشـك تهدئـة الحـارس وطمأنته أنْ ما شـاهده هو حيوان قد تسـلَّل بطريقـة ما إلى الموقع.

لم يتمكَّن اللّص من الوقوف، فَجرَّهُ الحارسُ في الظَّلام كما لو أنَّه يجرُّ كومةَ حطب، حتَّى بلغَ مسافة خمسة أمتار، أو أقلَّ من شبَّاكِ غرفتي. حافظتُ على هدوئي، وحياديتي مُستغرباً الجرأة المفاجئة التي هبطت على الحارس «شلش»، بينما توقَّعتهُ أنْ يجري هارباً ما أنْ يسمع خشخشة وها هو الآن يقف أمّامي يمسك لِصّاً تسللَّ إلى الموقع!.

لقد فعلَتْ كلّماتي له حين التقيته منذ قليل فعلها، وربما شجَّعه هروب المطارد بعد سقوطه وهو يحاول اعتلاء السّياج، فركض خلفه حاسباً إياه لصّاً جباناً، سقط من السِّياج بصيحة واحدة.

انحنى «شلش»، وتمعن برأس المخلوق المنبطح أمّامه ثمَّ صاح:

ـ شيخ بعمرك، ويسرق؟ والله أخجل من نفسي عنك، حتّى لو متَّ جوعاً يا حاج ما كان عليك فعل ذلك! ما الذي أدخلك هذا المكان؟ ومالذي تنوي سرقته؟ سأسلِّمُكَ للشّرطة إنْ لم تقلْ لي الحقيقة..لماذا لا تقفُ على قدميك؟ هل أنت كسيح؟

حشرج المتسلّل بكلّامٍ غير مفهوم، لم أسمعهُ، فعاد صوت الحارس صائحاً:

ـ ما اسمك ياحاج؟! تكلّم بصوت عال: لا أكاد أسمع ما تقول.

ـ أونيس

ـ ونيّس؟

ـ كلّا، أوـ نيس

ـ هل أنت أرمني؟

ـ كلّا... بابلي.

ـ بابلي، يعني من الحلّة؟

ـ لا أعرف الحلّة، أنا من بابل.

ـ عمرك يا حاج.

ـ 3421 سنة

لا حـولَ ولا قـوَّة إلّا بـالله، شـنو إنت القعقـاع لو نبي الله نـوح؟ كيف تمكنـت من تسـلّقّ جـدار علـوّه أربعة أمتـار، ودخول المجمّع؟ وأنت بهذا العمر يـا حاج!

أنـا لم أتسـلّقْ سـوراً، ولسـتُ لصّـاً، ولا نيّـةَ لي بالسّرقة، بـل جئتُ من المـاء، فهناك أسـكن..

اقشعرَّ جلـدي عنـد سـماعي ماقـال، إنَّه ليـس لصّـاً ولم يـأت للسّرقة، وأتـى مـن الماء!.

ما هذا الهراء، وما الذي يريد فعله؟

عاد صوت الحارس:

ـ يـا حـاج «أونيـس»، لا تتحامـق وتهـدر وقتـي، السـاعة الآن الرابعـة فجـراً. أخـبرني بقصتـك، مـا غايتـك مـن الدخـول إلى المجمـع، لابـدَّ أنْ أسـجل ضبطـاً رسـمياً يوثـق حادثـة إلقـاء القبـض عليك.

ـ وقـد أجبتـك كيـف ولمـاذا، فأنا لم أدخـل إلى المجمـع، بـل المجمّع هو مـن دخـل بيتي..

ـ أيـن بيتـك؟ حكايـة قدومـك مـن أعـماق النَّهـر؟ لا أظنّك تريـدُ منيّ تصديـقَ ذلك.

ـ إنْ لم تصـدّقْ، اتركنـي أعـود للنّهـر، وسـترى بعينيك، لن تخسر شـيئاً إنْ فعلتْ.

صاح الحارس يائساً:

ـ استغفر الله، معتـوه أو مخـرّف، أو لـصٌّ محنـك، لا أدري..أتيـتَ مـن النَّهـر، هـل أنت سـمكة؟ سـلحفاة؟ يـا حاج! نحـن حجزْنـا قطعـة النَّهر هـذه من أربـع جهات، ليكـونَ موقع العمل هـذا مسـيّجاً ومؤمّناً. لا تخف مـن قـول الحقيقـة، ما فعلتـهُ أمر خطـير فأنت متَّهم بالسّـطو عـلى ممتلكات شركـة أجنبيـة، ومـا فعلتَـهُ يمـسُّ بسـمعة البلـد، أخـبرني أيـنَ تسـكن كـي أتَّصـلَ بمـن يعرفُـكَ، كـي نتفاهـم معـه، يبـدو أنَّ في الأمـر لغـز مـا.

حاج «أونيس» سألتك أين تقيم؟ هل يعرفك أحد في بغداد؟

لم يُجبِ الشَّيخُ..اقتربَ صوتُ «شلش» من شبّاكي:

ـ لافائـدة مـن الحـوار مـع المجانـين، سـأرى إنْ كان الأسـتاذ «صفـاء» مـا يـزالُ سـاهراً ولـن أتحمَّـل خطيئـةَ هـذا الأبلـه، قـد يؤذونَـهُ في مركـز «مكافحـة الإجـرام».

جرَّ «شـلش» صيدَه كما يجرُّ سـمكةً هائلة باتّجاه غرفتي، وكنت مسـتلقياً على سريري، أسـتمتع بمشاهدة وسـماع مجريات هذا الحدث الليّليّ الغريب. وقـف الحـارس أمّـام شـبّاكي فيما بقـي الشـيخ منبطحـاً على بطنه، ورأسـه متّجهـاً ناحيتـي. كان رأسـه فضيّـاً، لمـعَ تحتَ ضوء قمر نيسـان كاشـفاً عن وجـه غريب لشـيخ بلحيـة طويلة، تخترق أديمَـه خطوطُ تجاعيد متشـابكة.

وبعد لحظات طُرق بابي:

ـ أستاذ «صفاء»، أمّا زلت مستيقظاً؟

ساعدْني، الله يخلّيك، قبضتُ على هذا الحجّي الكسيح خفيف العقل، شاهدْتهُ عندما كنت أعاين جرف النَّهر. دوّخني، ضبطتُهُ يحاول الهروبَ مُتسلقاً السّياج الخارجيّ لكنَّه لايريدُ الإجابة عن أيِّ سؤال. لا أعرف من أين دخل حدود المجمّع، وكيف تسلَّق السّور، وارتفاعُه أربعة أمتار، ثمَّ ما الذي يبحثُ عنه، إنْ لم يكنْ يهمُّ بالسّرقة؟ ولكنْ ما عساه يسرق؟ وهو لايتمكّن حتّى من الوقوف على قدميه، أمرُهُ محيّر أستاذ، وكأنّما هبطَ من السّماء على موقع الشّركة. لا، هو مخّرف، ولا هو صاح، أشفقْتُ عليه فلم أتصلْ بشرطةِ مكافحةِ الإجرام، يُردّدُ وكأنّه مجنونٌ، ويقولُ أنّه يسكنُ في النهر.

توجَّهْتُ لشلش بهدوء، لكنّي كنتُ أكثر إضطراباً منه:

ـ دع الأمرَ لي، وانصرفْ لعملك، أو اذهب للنّوم، سأحرس المكان عوضاً عنك، قُمتَ بواجبك على أكمل وجه، سأكتب للوزارة طلباً لمكافأتك.

ابتسمَ « شلش » مُردّداً عباراتِ الشُّكر، ثمَّ مضى.

بعد أنْ تأكَّدتُ من انصرافه فتحت الضّوء، ثمَّ دنوتُ من الشّيخ الذي بقيَ هامداً مثل جثّة، وسلَّطتُ مصباحي اليدويَّ على جسده فلم أرَ قماشاً يسترهُ، بل جلداً غريباً خالياً من الشَّعر يلمعُ كحراشف السّمكة. فجأةً رفع بصره، وصوَّب نحوي نظرةً عميقة مخيفة، لم تكن نظرتهُ لي نظرة عابرة، كانت كمصباحِ أشعّة كاشف وجهَه لعيني فأحسست بالخدر، وتذكرت بخوف حكاية الأشباح التي رأيتُها وما مرَّ بي في الأيّام الأخيرة. كنتُ كأنَّما وصلتُ لحلقةٍ مثيرة في مسلسل متقن، فقط إخراجهُ مُختلفٌ.

أحسستُ بإرهاقٍ، وتبلُّدٍ، ضيّع عليّ سبيل التَّفكير المنطقيِّ وبقيتُ لحظاتٍ جامداً مكاني. كان لباس الشيخِ الحرشفيَّ ضيّقاً يشبه ملابس الغواصين، اندسَّ به جسدُه النحيفُ، وزعنفتان كبيرتان، تتوسطان خصرَهُ يميناً، ويساراً تلتهما اثنتان أقلُّ حجماً إلى أسفل، وخامسةٌ كبيرة مثل الذَّيل، انطوت تحتَ جسده.

ـ تفضَّلْ بالجلوس! انهض، يمكنك الجلوس على هذا الكرسيِّ.

بدا كأنَّه غوّاصٌ بملابسَ تشبهُ شكلَ السَّمكة لاشكَّ في ذلك، لكنّ لماذا حشرَ نفسَه بهذه البدلة التي تعيق وقوفه؟ كأنَّما كان عليه العيشُ مع الأسماكِ، والتَّخفّي كي لا يثيرَ شكلُّهُ انتباهَ أحد.

لم يُجبْ، فتابعت:

ماقصتك؟ ما الذي قلتَهُ قبل قليل؟ سمعتُك تقول أنّك لم تتسلّق السّور.

ـ نعم. قلتُ ذلك وطلبت من السّيّد الحارس تَركي أعودُ للماء.

ـ ستعود، ولكنَّك لم تأتِ إلى هنا عبثاً، أنت لستَ لصّاً أعرفُ ذلك، صارحني، سأكون في صفكَ.

تجاهل المزعنفُ سؤالي ليسأل بدوره:

ـ هل أنت مدير الموقع؟

ـ لكَ أنْ تعتبرني كذلك، تكلَّمْ! أنا اختصاصي تأريخ الرّافدين، اسمُكَ أثار اهتمامي. «أونيس» يُذكّرني بالمائي الذي علَّم أهلَ الأرض الحكمة، من أينَ أتيت بهذا الإسم ياشيخ؟!

تمعَّن الشَّيخُ المقعَدُ بوجهي بذات النّظرة الطّويلة الكاشفة، مثل نظرته الأولى كأنّه يريد قراءة ملامحي، ثمَّ سأل:

ـ هل لي أنْ أسأل عن إسمك؟

ـ أنا «صفاء البغدادي» موظف في المتحف العراقيّ وممثل الدولة في شركة الحفر التي ستُنظف مجرى «دجلة». الشّركة التي تسلّلتَ أنت لموقعها.

ـ لحظة من فضلك، انظر إلي!

نظرتُ إليه دون أنْ أفهمَ قصده، فانطلق من عينيه ضوءٌ مسح وجهي ببطء من أعلى إلى أسفل مرة أخرى وأحسستُ بوجهي، وقد تخدّر، فلم أفلحْ بتحريك شفتيّ، لأسألهُ، أو أعترض، إلا أنّه طمأنني بأن ابتسمَ بحبور. لحظات، وتهلَّلت ملامحه حتّى بدا أنَّ الأخاديدَ التي تقاطعت على صفحة وجهه قد رُدمتْ. التفتَ يميناً ويساراً كأنّما ليطمئنَّ لخلوِّ المكان، ثمَّ همس:

ـ نعم، هو أنتْ، كم تعذبتُ لأصلَ إليك!

لبرهة أحسستُ بقوّة خفيفة لاصقة، تحاول إغلاقَ عينيَّ وشفتيَّ، ثمَّ تلاشتْ تدريجياً، لكنَّ رعدةَ خوف اجتاحتني، فقلتُ بارتباك:

ـ ماذا؟

هل أتيت من أجلي؟

ـ نعم. أحمل إليك رسالة خاصّة من مكان خاصٍّ، إنّها سبب زيارتي. لأنّك ستذهب معي إلى عالم قاع النّهر في رحلة. ستطّلع على عالم جديد لكي تعرفَ الحقيقة كما هي.

بحياتي كلّها لم أشعرْ بالارتباك كما في تلك اللّحظات. قَلَّ الهواءُ فجأة فأحسستُ بالاختناق، وتكدَّستْ في فمي الكلّماتُ، ما بين الحيرة والدَّهشة، ولكنْ قبل كلِّ شيء مشاعر الخوف، فسألت ببلاهة، وبصعوبة:

ـ إلى.. أي.. أينَ سأذهب؟

ـ إلى النَّهر. كما سمعتَ!

مرّتْ لحظاتٌ، وربّما دقائقُ، وأنا أُجاهد لتحرير جملة استفهاميّة طويلة تكدّستْ في حلقي:

ـ هل يعقل ذلك؟ من أنت سيّد «أونيس»؟ هل أنت غوّاص مكلّف بمهمّة؟ هل هذا هو خروجك الأوّل للبرّ؟

ـ هذا حديث طويل ستسمعه فيما بعد. نريد أنْ نُطلِعَكَ على سرٍّ! فأنتم مشغولون الآن بالنّهر، والإشاعات، وأنا سأقصُّ عليك كلَّ شيء وبالتفصيل. لكنّ ذلك يتطلب منك تركيزاً عالياً.

عليكَ أنْ تعرف الحقيقة! الغرين والطمي ليس هُما ما سدّ مجرى النَّهرين، بل هناك سبب آخر، لا يتحدّث عنه أحد..

وصمت الشّيخ كأنّه أدرك أنّه تسرّعَ في قول جملته، ثمَّ استأنف:

ـ لقد تمَّ الاتصالُ بِك بنجاح عبر رسالتنا الليّلية، ولكنّ يبدو أنّك لم تنتبهْ لذلك،... أنت صالح لأنَّ فيكَ شيء مِنّا نحن سكّان النَّهر، لذلك نجح الاتّصال بك حين وجّهنا رسالتنا الليّلية إليك على هيئة حلم اسمه «مردوخ».

صعقني ما سمعت! أنا فعلاً حلمتُ، بمردوخ يكلّمني! ورغم ذهولي من سماع هذه المعلومة وجدت نفسي أسأل محاولاً التّماسك:

ـ وكيف عرفتم أنَّ الاتّصال قد نجح؟

ـ عرفنا بعد أنْ حلمْتَ بمردوخ، فهذه هي شيفرتنا، أُبسِّطُها لكَ كالتّالي: تَضرِبُ كرةً مطّاطية باتّجاه ما تتصوّرُهُ جِداراً، لو عادت الكرةُ إليك، فهو جدار، ولو أنّها لم تعدْ، دلَّ ذلك أنَّ جدارك كان وهماً! وهكذا عادت الإشارة إلينا، بأنَّك استقبلتَ الحلم، ستعرفُ الكثير فيما بعد، فلاتتعجل.

شعرتُ بقلبي وكأنّه غاص إلى قدميّ! هناك من يضخُّ حلماً إلى رأسي وأنا نائم، الحلم أكثر الأوقات خصوصيّة للإنسان، لم يعدْ حدثاً خاصاً بالنسبة إليَّ.

تلك كانت بداية القصّة، وكي تكون هذه القصّةُ الفريدةُ مفهومةً لا بدَّ من العودة إلى الأيّام التي سبقتها.

المتحف

سأعود إلى تلك الأمسية الفاصلة التي حدثت منذ زمن بعيد، كنتُ مدعواً عند صديقي حين صعقنا المشهد التلفزيونيّ المروّع الذي طاف الآفاق فيما بعد، لصوص ملثَّمون يقتحمون المتحف العراقيّ وإحدى الموظَّفات المُباغَتات تحاول منعهم بالصّراخ، السّلاح الأنثويّ التقليديّ:

ـ يا! يوم .. يوم.. يوم..ولك اطلع، يالله!

تردَّدَ صوتُها مُخيفاً في أروقة المتحف المُعتادة على الصّمتِ والهدوء، خرجتُ حينها من بيت مضيّفي مصاباً بصداع حادّ، وعلى امتداد الطريق إلى غرفتي انتابني ألم على شكلّ وخزاتٍ متناغمة مع حركة قدميّ، كلّ خطوة بوخزة ألم حادّة، وصورة لصوص المتحف تملأ رأسي العليل. جلستُ على دكّة دكّان مُغلق، وفجأة رأيت السّماء المُكفهرّة المُعتمة مليئةً بقصاصاتُ أوراق متطايرة، ربّما كانت مناشيرَ تحذيريّةً، أو تبشيريه، ألقتها الطّائراتُ، فبقيت تتراقص مع الغُبار المُتناثر في الفضاء. حطّت قصاصةٌ برتقاليةُ اللّون على قرابة خمسة أمتار منيّ، ركضت والتقطتُها كما كنت أفعل في طفولتي، حين كانت المنشورات تسحب قدميّ إلى أحياء مجاورة دون أنْ أشعر:

المواطن الكريم: التّجوال ممنوع في هذه المنطقة من السّاعة السّادسة مساءً حتّى العاشرة صباحاً، ننبّه المواطنين إلى ضرورة الانتباه لبيوتهم

وممتلكاتهم، لأن الآلاف من عتاة المجرمين المحكومين قد أُطلق سراحهم من السجون. حلو وممتع مع التجوال كان الأفق يصغر، ويتقلّص حتّى صارت العاصمة مثلَ قبر معتم فكيف، والتّجوال قد مُنع، لم يعد بمقدوري البقاء جالساً بعد أنْ أحسست بحمّى تشتعل بجسدي فواصلت طريقي ماشياً ببطء السّلحفاة المريضة، إلى أنْ وصلتُ، فأرتميتُ على فراشي منهكاً، أنتظرُ رفع حضر التّجول، كي أعرف بالضّبط ماحدث للمتحف. أحسستُ بالتعب وقد ربض على جفنيّ وبصعوبة أقوى على فتحهما، ولكنْ رغم ذلك، رأيتُ من فتحة عيني اليمنى الضيقة مُلثّماً يعبرُ بخفّةٍ وحذر المسافة القصيرة الفاصلة بين رصيف الشّارع المقابل وشبّاك غرفتي. لِمَ يتلثَّمُ المرء فيُخفي معالم وجهه؟ كان يرتدي دشداشة غامقة اللّون وقد شكّلها بلباسه الدّاخليّ صانعاً منها كيساً، من عبّه برزت عصاً غليضة سرعان ما رأيتُها بيده بعد أنْ تسلَّق الجدار الفاصل بين الشّارع وحديقة جاري. نسيتُ تعبي وقفزت من مكاني راكضاً إلى حيث ظننته اختفى لكنّي لم أر أحداً. التفتُّ يائساً إلى الجانب الآخر فلمحته يركض بصحبة آخر فلحقتهما. بقي الملثم ذو العصا يلعب معي لعبة الغميضة، ما أنْ ألج مكاناً حتّى أرى شبحَهُ يتوارى بسرعة مُختفياً. كان يُجيد الرّكضَ والاختفاء، والمناورة كلّصٍّ محترفٍ متدّربٍ. هذا هو لصّ المتحف. لايوجد هنا ما يستحقُّ السَّرقة في هذا الجزء من بغداد سوى المتحف. قطعت «ساحة الملك فيصل» ولم أصادف كائناً حيّاً على طول «شارع ناصر»، الكلّ ملتزم بمنع التَّجول، وأنا أطاردُ اللّصوص. ربّما سيحسبونني لصّاً، لكنّ لاخوف، هويّة النّقابة في جيبي ستساعدني، قريباً من المتحف رأيت ثانياً شبيهاً للأوّل لكنَّه أطولُ منه قامةً. لم يكن صعباً عليّ بسبب خلوِّ المكان رؤية اللّصين، وهما يغيبان في الشّارع الفرعيّ المؤدّي إلى المتحف،

توقّفتُ قليلاً، لأستعدَّ لمعركة طويلة. هؤلاء اللصّوص جبناء، شجَّعَهُم تواري الشّرطة على الظهور. وصلتُ المتحف، خلف جدار القاعة المجاورة لاح لي القصير راكضاً باتّجاه القاعة السّومريَّة وقبل أنْ يهوي على واجهة إحدى خزّانات آثار سومرية صرخت به بصوتٍ تردّد في أرجاء المتحف كصراخ امرأة أثناء ولادة متعسرة، استدار ناحيتي مرعوباً وبقي لحظة متجمداً بلاحراك ثمَّ هرب. لا أعرف كيف، رغم أنّه ملثم ، راودني إحساس كما لو أنني كنتُ قد رأيته من قبل، سرعة استدارة رقبته عند الالتفات، تقوس كتفيه، طوله، حتّى طريقته في الهروب بعد صيحتي كانت علامات فارقة خاصة بشخص رأيته قبل الآن!

شجَّعني هروبه فركضتُ باتّجاه القاعة السّومريَّة، «أسد أريدو» مازال ينظر نظرته المنذرة بالويل لمن يتقدم. الإله السّومريَّ «آبو» قد طُرح أرضاً ونام على وجهه بلاحراك. القاعة البابلية فارغة! أين آثار «نرام سين» ؟ ما الذي حل باور نمو؟ عدت إلى «آبو» فسحبته برفق من كتفيه وانتزعت شرشف طاولة مجاورة فغطيته بها كما يُغطى الميت، ثمَّ هرولت باتّجاه القاعة الآشورية حيث «اددنيراري» فلم أجده هناك، ياربي! أين الملوك؟ أين سكّان المتحف؟ «سرجون» الملك، ياأيُّها المبجّل «سرجون»، أكادُ أُجنُّ، أين أنتم؟ أين الكهنة؟ أين رأس فتاة الوركاء؟ لم نحتملْ فقدانَ أنفها، وها هو رأسها كلّه يضيع.. «آيا» إله النَّهر، وكأسه الفوّارة، وتموجات دجلة، والفرات على ثيابه، كان هنا، قبل أسبوعين كان هنا.

ضربتُ بقدميَّ كتلةً حجريةً، كانت كفّاً لتمثالٍ دمّروه تَوّاً، فصدم الحجرُ قائمةَ الطّاولة المقابلة، ثمَّ سمعتُ همهمةً فخشيتُ أنَّ أحدَ اللصّوص قد اختبأ تحت الطّاولة، صحت به:

ـ ألـقِ سـلاحكَ، واخـرجْ رافعـاً يديـكَ، وإلا أطلقـتُ النّـار، الشّرطـة تسيطرُ عـلى المكان، لم يـرد عـليّ أحـد لكـنّ الخشخشـة عـادت ثانيـةً، فانحنيـتُ ببـطءٍ، لأرى مـا تحـتَ الطّاولة التي تتوسّـط القاعة الإسـلامية، هنـاك رأيـتُ الآلهـة والملوك والكهنـة وقد غـادرت الحياة سـحناتُهم، كانوا جالسـين بهيئـة مـن أُجـبر عـلى الجلوس:

ـ مـا الخطـبُ يـا معشر الكرام؟! سـعيدٌ بسـلامتكم، كـدْتُ أُجـنُّ وأنا أرى صاحـبَ الفأس..هـل أُصيـبَ أحـدٌ منكـم بسـوء؟ أنـا لا أعـرف ما الـذي حـدث. لم يجبنـي أحـدٌ، وكأنّهـم مازالوا تحـتَ تأثير صدمـة الحدث، فأعـدتُ ندائي:

ـ سـادتي! أنـا المختـص بسـيرتكم، الخبـير «صفـاء البغـدادي» جئـتُ لحمايتكـم مـن اللصّـوص، هـذه هـي هويّتـي، تفضّلـوا، ما الـذي حصل؟

أجابَ صوتٌ أتٍ من المنتصف:

ـ الذي حدث أنَّ مواطنيك يريدون بيَعنا، أقبلوا علينا بالفؤوس والمعاول ونحـن بأقفاصنـا الزّجاجيّـة، لاحـول لنـا، الحُـرّاس اختفـوا، الموظّفـون غـادروا واللّصـوص ملـؤوا ردهات المتحـف، يعبئون أكياسَـهم بـما طالتهُ أياديهـم، أخذوا الإنـاء النذري، والتّماثيـل، والأفاريز الجداريّـة، والأبواب المزخرفـة، والأخشـاب، وقطعـاً مـن الآجـر المختـوم، اللقـى والحـليّ..

ـ لكنَّ الأمريكان أقوى جيوش الأرض، على بعد خطوات منكم!!

ـ كيـفَ نـصرخُ بالأمريـكان، ونحـنُ تماثيـلَ مَيْتَـةٌ؟ هـل كُنّـا ملـوكَ أمريـكا أم ملوكَكُـم؟ الجميـع تركنـا، ومـضى، لمـاذا تركـوا كلَّ الأبـواب الدّاخليـة مفتوحـةً؟ كُنّـا نسـمع ضجيـج اللصّوص يقـتربُ ولاحيلـةَ لنا، أقبـل عـشرة مُلثمـين واقتادونـا إلى القاعـة الإسـلامية. أمّام ناظـري هوت

معاولُ مُلثمين بهمجية على رأس كان قد قطع عن جسده قبل قرن أثناء التنقيب. جالت قطعانهم في قاعات العرض بالمتحف ورأيتهم يتشاجرون على الحصص. حتّى القبر الذي في القاعة السّومريَّة تناهشته أياديهم، وما لم يتمكنوا من نقله من التماثيل الحضريّة هشّموه.. رأيتُ رأس فتاة الوركاء يُعبّأ بكيسٍ وهي تصرخُ:

«أنجدوني، سأختنق»! ولكنّ من يسمع؟

لقد خطفوا زميلنا الملك السّومريَّ ملك لجش، رغم أنْ عمره 4400 سنة، سرقوه وهو الذي شق لهم نهر الغرّاف فأنهى مئتي عاماً من الحروب بسبب الماء، أهانوه وهو الذي أوجد الحيّ والرفاعي والشطرة والاصلاح والفجر وقلعة سكر..

صمتَ المتحدّثُ، وكان ما يزالُ مُنفعلاً ورأيت الأسرى ينظرون إلى يساري فانتبهت إلى «آبو» مُقبلاً والسِّتارةُ التي غطّيتُهُ بها ملقاةٌ على كتفيه، فبدى بمشيته الثّقيلة مثلَ شيخٍ بدويّ عريق، يا ربي! لم يمتْ إذنْ، كان فاقد الوعي.

قلتُ لهُ بصوتٍ حمّلته كلّ ما استطعتُ من شحنة الود:

سعيدٌ أنكَ أستعدْتَ وعيَك، هل آذاك الأوغاد؟

ـ كفى، لقد مللْتُ. جئتُ للمتحف كي أرتاحَ،لا أنْ أعود بعد ألفي سنة مُحارباً كلّ بضع سنين.

ـ ما الذي تقوله يا سيدي! نحن لم ندْعُكَ لحربٍ، أنت معزّزٌ مكّرم، تزيّن أفخمَ قاعاتِ متحفنا..

ـ أيُّ معزّز هذا الذي يهتزُّ داخلَ قفصهِ الزّجاجيّ كلّ خمسِ سنين مرةً؟ ستجنّني هذه البلاد، حربٌ ثمّ انقلابٌ، ثمَّ حربٌ، ثم..نهبٌ ثم..

ـ كُنّـا نظـنّ أنّك سـتكونُ مسروراً بوجـودك هنا، يتكـرّمُ بطلعتك يوميّاً مئات الزائرين.

ـ يـا أخي! لاتُخرجنـي عـن طـوري أرجـوك، فقـط قـارنْ وجـودي البائـس هـذا بيوليـوس قيـصر، أو حتّـى بالذيـن أتَـوا بعـدي بألـف عـام، رغـم أنّهـم أقـلُّ أهميّة منـيّ. أُنظرْ كيـف يحج لرؤيتهـم يومياً آلاف السـياح مـن مختلـف أصقـاع الأرض. بينـما يأتيني أنا، بينَ أسـبوع وآخـر بضعة من صبيـان المـدارس للّعـب بلحيتي، وآخرون لو سـمحوا لهم لنقشـوا أسـماءَ صاحباتهـم عـلى ركبتـيّ، حتّـى «هتلـر» في متاحف الشـمع يحـظى بمكانة واحـترام أكثر مني، صدّقني كُنـتُ أتمنى لـو بقيـتُ مطموراً في تـراب تل أسـمر. خطيئتـي برقبـة «هنـري فرانكفـورت»، لقـد مضت آلاف السـنين عـلى نومـي السّـعيد تحـت تـراب «أشـنوناك»، أتـى الأفنـدي، وحملنـي مُطمئّنـاً إلى دخـول التأريـخ:

«مكانُكَ هو المتحف لا تحت التراب»

هو دخل التأريخ، وأنا تحنطت في متحف هذه البلاد العجيبة.

أحسستُ بالحرج من شكوى الإله، فقلتُ مُختنقاً بعبراتي:

ـ أُقـدّر ظُرفكَ، شِـدَّةٌ وسـتزول صدّقني، وجودُكـم ضروريٌّ، بصراحة نحـن بدونـكَ وباقي الأجـلّاء الكـرام، لا تأريخ لنا.

وضعَ الإلهُ كفَّهُ على كتفيَّ، وقال برفقٍ هذه المرّة:

ـ الوقـتُ غـيرُ مناسـب للمناظـرة، ولكـنْ مـا الـذي فهمتمـوه مـن التاريـخ؟ صِرْنـا مثـلَ الأغـلال بأقدامكـم، لايمكُنكـم التحـرّكُ خطـوةً واحـدةً إلى الأمّـام لأن التأريـخَ أثقـلُ مـن حاضركـم كلّـه.

عزيـزي! أُريـدُ التحـدّثَ للمختصّـين، هـل يمكنُـك اسـتدعاءُ «بهنـام أبـو الصّـوف»؟ ابحثـوا عـن رمـز آخـر غيري، أنـا بصراحـة لم أتوقـعْ هذا المصـير، تعبتْ.

أفقـتُ مـن كابـوسي وقـد ألصـقَ العـرقُ ملابـسي بجسـدي، فألقيـتُ بهـا أرضـاً، أردْتُ اسـتبدالها بسرعـة، بقـي لـديَّ قميـصٌ واحـدٌ نظيـفٌ، الـذي غسـلْتُه قبـل انقطـاع المـاء. كان مُعلّقـاً أمّـام الشّـبّاك يتلاعـبُ بـه الهـواء المتربُ الذي شـحبَ لونـهُ قليلاً، ممـا يعنـي أنَّ العاصفـة الترابية قد خفّـتْ..لم يُرفـع حظر التجـوال، لكنّي سـأحاول الوصـول للمتحف بكلِّ وسـيلة، سأسـتطلع أمـر المتحـف بنفسي. توقّعتُ الأسـوأ فحملـتُ معي مسدسـاً مُضحـكاً خـال مـن الطلقـات، فأنـا في خصـام عريـق طويـل مع السـلاح الـذي مـا زلتُ أُعده أسـوأ اختراع بـشري منذ زمـن آدم. ربّما كان سـلاحي الميـت مخصّصـاً للدّفـاع عن نفـسي ضدّ موتـى في متحـف، هو لا يخيـف سـوى شـخوص التأريـخ المسـنّة المنهكة التـي لاتُخيـف أحداً.

كان الدّخـان مـازالَ ينبعـثُ مـن بقايا أشـلاء الدّولـة المُحترقـة، بناياتها الممزقـة تقعـي عـلى جانبـي الشّـارع الـذي تناثـر عليـه هشـيم الزّجـاج مُختلطـاً بمحتويـاتِ أنابيـبَ تصريـف الميـاه التـي مـا انفكّـت تتدفّـق منـذ ليلـة القصـف الثقيل. رأيت سـياراتٍ، لم يتبـقَ منها إلا الهيـكلّ الفولاذيُّ، مـررتُ ببقرتـين فاجأتهـما الشّـظايا الملتهبة فقصَّت سـاقُ إحداهـنَّ، لتنزف حتّـى المـوت، بينما هشـمت رأس الثانيـة. ثلاثُ شـاحناتٍ، تحمـل البيضَ واثنتـان محمَّلتـان بالطّماطـم والخضر، نهشـتها الطّائـراتُ، فتناثـرت أطنانُ حمولتهـا عـلى طول الشّـارع مثـلَ وليمـةٍ باذخـة لشـيخ قبيلة. كان مشـهداً مثاليـاً لفيلـم عـن بـلاد مُسـتباحة لاتعـرف أيَّ شيء تفعل لحمايـة أيِّ شيء فيها..أسرعـتُ مهمومـاً وقـد عشَّشـت الكآبـةُ في باطـن روحـي قاصـداً المتحـف العراقـيَّ المنهـوب، وهنـاك وجـدتُ المـكان صامتـاً عـلى غـير ما ظننـتُ، والبوابـة مقفلة، ونثـار المسروقات الجبسـية، والفخاريّة المهشـمة،

أو الصغـيرة، والتـي لم يلحـقْ اللصّـوص أنْ يُحملوها في سيّاراتهم، ترسـمُ خطّـاً رثّـاً مثـلَ حمولـة تبـن تناثـرت من عـلى ظهر حمـار ضَجر. غريـب ألَّا يحـرسَ المـكان أحـدٌ، لقـد تركـوا التأريـخ يجابـه مصيره بنفسـه كـما قال لي الملـوك في كابـوسي المرعب، تركـوه مُحنّطاً داخلَ أقفـاص زجاجيّة يهتزّ لدى وقـع كلّ انفجـار. قنبلـة واحـدة، ولن يبقى لنـا إلا الخرائـب في الصحارى القاحلـة، قنبلـة واحـدة وتتناثـر لحيـةُ التأريـخ الشّـائبة في الفضـاء، لنبقـى مجرّديـن ممّـا حاولنـا أنْ نسـترَ عرينا الحـاضر به.

كان محيـطُ المتحـف موحشـاً مهجوراً، والسّـماء مكسـوةً بغلالـة دخان، والشّـوارع الإسـفلتية المتربـة تزفر بوجـوم نافثة تبرَمَهـا، وملَلَها لهاثـاً حارّاً يزيـد من لزوجـة العرق الممـزوج بالغبار، والذي سـاح على ظهـري. بقبقَ البلـل تحـت إبطـيّ مثل ضفدعـة مخنوقـة فهممتُ بالعـودة لكنّـي رأيت في أحـد المنعطفـات يسـار بـاب المتحـف ركامـاً مـن شـظايا زجـاج، وفخـار وورق، وقمامـة متراكمـة منذ أسـابيع. جثوت أنبش بحـذر في الحطام الذي هشّـمه اللصّـوصُ بحثـاً عمّا يسـتحقُّ الإنقـاذَ مـن أوانٍ أو رُقـم، أو وثائق، متوقّعـاً أنْ تصلنـي في أيّـة لحظـة صيحـةٌ لجنـديٍّ يُراقب حركتي مـن بعيد، أو طلقـةٌ مـن قنّـاص يـرومُ تجربةَ بندقيّتـه الجديدة. لم أجدْ شـيئاً، وشـعرتُ بحـرارة الإسـفلت تحـرق ركبتـيّ. وقفـتُ والتفـتُّ إلى بوابـة المتحـف في نظـرة اعتذار وشرعـتُ بمغـادرة المكان.

في طريـق عـودتي انتبهـتُ إلى حقيبـة نسـائيّة جلديّـة بنيّـة اللّـون عالقة بغصـون شـجيرة ياس، وقد كسـاها الغبـار، دفعنـي الفضـول إلى التقاطها ودسّـها بحقيبـة الظّهـر الكبـيرة التـي هيأتهـا لمثل هـذا الغـرض، وقتهـا داخلنـي خاطـرٌ أنَّ الحقيبـة تعـود لموظفّـة في المتحـف فاجأهـا الـسّراق أو القصـف، فسـقطت منهـا أثنـاء هروبهـا. ولكـنّ الدّافـع الدّاخـلي الـذي وجّهنـي لالتقاطهـا كان عـلى الأغلـب هاجـسَ لا وعـيٍ يقبـعُ في أعماقي،

إنَّـه عنـصر السِّرِّيّـة والغمـوض الـذي يثيره محتـوى حقائـب النسـاء لدى الرجـال. فالنسـاء لا تحملـن حقائبهـنَّ اليدوية لكـي تُخبّئـن فيها مصروف اليـوم، هكـذا جعلنـا «حمـزة» نظـنّ، حـين كنـا مراهقـين أوّل الأيّـام في الجامعـة، إنَّ أسرار النسّـاء تُخبّأُ في حقائبهـنَّ اليدويّةِ، هناك سـنجد الإجابة عـن شـكوكنا غـير المحسـومة ، اكتشـف أنَّ «وزيـرة» تحـب «عدنـان» لا «صائـب» وأن «ميّـاده» غـير مخطوبـة كـما تدَّعـي،كان يفتعـل الأحـداث مـن أجـل النّظـر في حقائـب الطّالبـات اليدويّـة، لم تكـن حقائـبُ الكتـب تُثيرهُ أو تحظـى باهتمامـه، بل حقائـب اليد الشّـخصيّة الصّغـيرة. مُضحك كيـف تؤثـر تكويناتُنـا الأولى على سـذاجتها، وركاكتها في شـخصيّاتنا، فأنا رغـم كم السّـنين التـي تفصلني عـن «حمزة» المهـووس بالحقائـب اليدوية، خُيّـلَ لي بعـد التقاطـي الحقيبـة، وكأنّنـي سـأجدُ بها رسـالة، لم ترسـل بعد مـن صاحبتهـا إلى صاحب لهـا، وأنّ هـذه الرسّـالة لم تكتمل بعد، سـأدّعي أمّـام نفسـي جهلي بكونها رسـالةً خاصّةً، وأبـدأ بإطلاق عينـي للبحث عن المثير مـن العبـارات بين سـطورها، ثـمّ أُفاجـأ بوجـه موظّفة ناعمـة تنتعل نعـلاً نسـائياً بنـيَّ اللّـون ينسـجمُ تمامـاً مع لـون حقيبتهـا، وهي تدنـو منّي بخـوفٍ وخجـلٍ لتشـكرَني بصـوت ناعم عـلى لُطفـي، وأمّانتـي فللحقيبة ومابهـا قيمـة معنويّـة وعاطفية، لاتقـدّر بثمـن. ضحكتُ بمـرارة من ذلك الـذي جـال بـرأسي المتعـب. ثلاثـة أربـاع مسـاحة عقـل الرّجـل الشّرقي تشـغله المـرأة، وثلاثـة أربـاع أفعاله تتجـه للحظِّ من قـدرِ هذه التي تشـغل ثلاثـةَ أربـاع مسـاحة دماغـه، لم أفكّـرْ حينهـا أنَّ هـذه الحقيبة، التـي كانت في طريقهـا للانتـماء لعالم المهمـلات والقمامة، سـتفتح أمّامي عالمـاً مجهولاً.

قصـدتُ أقـرب مقهًـى شـعبيٍّ في منطقـة «الصّالحية» وبخطـى مسرعة اتجهـت لركنـه القـصيّ الفـارغ، والـذي كان أكثـر عتمـةً مـن مدخلـه فضربـتْ قصبـة سـاقي قائمـة إحـدى الأرائـك، ألمٌ حـارق تصاعـدَ مـن مـكان الضّربـة ليخرجَ مـن أنفي عندمـا تبادل الجالسـون نظـراتٍ سريعةً،

كإشـعار متعـارف عليه يُعلمنـي بغربتي عن مـكانٍ تعوّدوا أنْ يروهُ عشَّـهم الخـاص. لم تطـلْ معاناتي فمـوت «الدوشـيش» في يد أحدهـم كان قد فَجّر بـركان سـخرية أدى إلى مشـادّة صغـيرة انشـغلوا بهـا عنـيّ. وبعـد نظـرة ماسـحة لفضاء المقهـى، ووجوهِ روّاده تحسسـتُ قصبةَ سـاقي المصاب، ثمَّ تشـاغلتُ عن الوخـزِ الموجع الذي سـبّبَتْهُ الضّربه بأن فتحـت حقيبة الظّهر بحـذرٍ ولامسـتْ أصابعي الحقيبة النسـائية ففتحتُ سـحّابها بهـدوءٍ مُراعياً ألّا ألفـتَ الأنظـارَ. لم أجـدْ سـوى ثمانيـة أوراق غريبة لاتحوي غـيرَ الرّموز والطّلاسـم مثـل شـفرات الكومبيوتـر&$#@. كانـت تتكـرّر بعشـوائيّة فحدسـتُ أنّهـا أوراقُ موظّفـة برمجـة لاقيمـة لها، وفجـأة ينقطع السّـياق في منتصـف الصّفحـة السّادسـة لأقـرأ عبـارة كاملـة the expected plan «الخطّـة المتوقعّـة»، ثـمَّ تواصلـت الرّموز حتّى نهايـة الصفحة. رغـم غرابة وجـود عبـارة كاملـة بـين حشـد مـن رمـوز كومبيوتريـة، لم أكـترث كثـيراً لـلأوراق وبحثـت في جيـب الحقيبـة فأتتنـي أصابعـي بقرص مدمـج وقد خُـطَّ عليـه بقلـم الماجـك الأحمـر ذات العبـارة: the expected plan هنـا زاد فضـولي أكثـر فأكملـتُ شربَ القهوة، التي أتـى بها النـادل متأخّراً كإشـارة تجاهـل وتنبيـه إلى أنَّ المقهـى لـروّاده لا للمسـتطرقين، وسـارعْتُ بالعـودة إلى غرفتـي، وتشـغيل القرص، فوجـدت ملفاً لحـوار بالأنكليزيّة، هـو عـلى الأرجـح نـصٌّ مسـجّل لمكالمـة هاتفيّة بين شـخصين:

ـ نعـم، سـتتحوّلُ البـلادُ، رغم أنّها مسـتقلّة حسـب الشّرع الـدوّلي، إلى بـلاد مُحتلّـة، ليس كضرورة عسـكريّة أو سياسـيّة بحتة، لكنّه إجـراء حتميٌّ للتَّغطية عـلى السّرّ.

ـ ما الذي قلته، سرٌّ؟

ـ نعـم، وإن شـئتَ مجموعـةُ أسرار، ولكنّنـا سـنتحدّثُ عـن أهمّها، فهم ينـوون تحويـل البـلاد إلى مقـرٍّ ثابـتٍ لهـم، وقّتـوا احتلالهـم لبغـداد بعـد

أنْ كشفوا شيفرة سريّة تُفيد بقرب وصول « الأنوناكي» من كوكب «نيبيريو» لأرض سومر.

ـ ماذا... أنوناكي؟

ـ نعم، كما سمعت.

ـ ولكنّ سبقَ لعلماء أمريكان وغيرهم إثبات بُطلان مزاعم «زكريا سيتشن» حول الأنوناكي وأصلهم الفضائي..

ـ نعم، دعني أوضح ذلك، لابدَّ ألّا نجعل من دحظنا لنظرية «زكريا سيتشن» ممراً يحرفنا عن الوصول لكشف الغموض. «أنوناكي» تعني باللغة السّومريَّة «الخمسون الذين هبطوا من السّماء إلى الأرض». هذه كانت قراءة «سيتشن» التي رفضها معظم العلماء لأنّ كاتبها حسب رأيهم لا يفهم اللغة السّومريَّة التي كُتب بها النّصُّ الأصليُّ، من ناحيةٍ أُخرى تَعلّمنا أنَّ أفضل طريقةٍ، ينتهجها الأمريكان للتقليل من أهميّة شيء يعرفون أنّه مهمٌّ، هي تسخيفُهُ ونكران وجوده. فهم ينكرونَ وجود الكائنات الطّائرة مجهولة المصدر (UFO) لكنّهم يبنون مطاراً خاصّاً لهبوطها على الأرض اسمه «المنطقة 51» ويجهّزونها بالمطاعم، وأمّاكن الرّاحة، ويحرّمون على الإعلام دخولها، هنا الجديرُ ذِكرُهُ طرحُ التساؤلِ: ألّا يمكن أنْ نقارنَ موقفَ الأمريكان من نظّرية «أنوناكي» الفضائيّين بموقفهم من موضوع «الأطباق الطّائرة»؟

ـ إذنْ برأيكم أنّهم الآن مقتنعون بما كانوا يعتبرونه حتّى وقت قريب إسطورةً تقولُ: إنَّ «الأنوناكي» هبطوا إلى الأرض منذ 445 ألف سنة قربَ شواطئ الخليج العربيّ في منطقة المثلّث بين نهري دجلة، والفرات ومكثوا بعد المرّة الأولى يهبطون على الأرض كلّ 3600 سنة؟

ـ حسب التّفسير السّابق المستند إلى المدوّنات السّومريَّة، ومن وجهة نظر « زكريا سيتشن» أن «آنو»، وهو جدُّ الأنوناكيّين ويعني رب السّماء وزوجته «آنتو» سيدة السّماء، أمرا مجموعة مؤلفة من خمسين أنوناكياً بقيادة نجلهما إنكي وهو لدى السّومريَّين إله الماء، للتوجه في رحلة استكشافية عبر النظام الشمسي جاءت على أثر تعرض كوكب نيبيرو إلى مشكلّة بيئية. وكان من الضروريّ اتخاذ التدابير اللازمة لحماية الغلاف الجوي لهذا الكوكب الذي أصبح رقيقاً جداً لا يحمي سكّان هذا الكوكب من الإشعاعات الفضائية، ولهذا كان أوَّل إجراء تم اتخاذه هو تصميم درع من جزئيات الذّهب، وتعرف أنَّ المختصيّن اتهموا « سيتشن» بالخوض بما لايعرفه، واستغلال جهل القرّاء بالموضوع..

ـ هذا مثيرٌ، هل غيّر الأمريكانُ رأيَهم؟ هل لذلك علاقةٌ بما يتعرّضُ له كوكبُ الأرض؟ مثلاً نحافة، وتآكّل طبقة الأوزون؟ قصدي هل يطمح الأمريكان لكشف تقنيّة لا أرضيّة متقدّمة لحماية الغلاف الجويّ الأرضيّ؟ لطالما فكّرتُ أنَّ عزوفَهم عن الاشتراك ببرامج حماية البيئة له مايبُرّره من أسباب لانعرفها.

ـ ربّما يكون الأمر أبعد من البيئة، ذلك أنَّ للسّومريّين فهمهم الخاصُّ عن النظام الشّمسيّ، يختلف عن الفهم الحديث الذي توصّلنا إليه بعد زمان «غاليلو»، واختراع التّلسكوبات العملاقة، فهم وضعوا كوكب بلوتو بالقرب من كوكب زحل، ووصفوه كقمر لهذا الكوكب، كما أوضحوا برسوماتهم أنَّ للقمر بلوتو مداراً إهليلجياً، ولربّما كان «نيبيريو» أهمَّ من كلّ شيء، إنَّه كوكب غير معروف بين المرّيخ والمشتري ويعني اسمه الكوكبَ المتقاطعَ وله مدارٌ بيضاويُّ الشّكل ممدودٌ جدّاً ويتحرّك بين المرّيخ، والمشتري مرّةً واحدة كلّ 3600 سنة.

ـ قصدُكـم أنَّ الاعـتراف لايقتـصر عـلى وجـود «أنوناكـي» بـل أنَّ أسـطورة الكوكـب المفقـود تحظـى الآن باعترافهـم؟

ـ نعم لأنَّ «ناسـا» لاتعرف شـيئاً عنه للآن، وقد ادّعـى بعضُ الفلكيّين الأمريـكان وجـود كوكـب «نيبيـرو» المندثر من خـلال بقايـاه التي تقترب مـن الأرض مـرة واحـدة كلّ 3600 عـام، أمّا البيئـة فلها أيضـاً غوامضها ففـي عام 1970 اكتشـف علـماء الآثار مناجـم للذّهب عـلى عمق عشرين مـتراً في سـوازيلاند. وفي عـام 1988 حـدّدت مجموعـة من علـماء الفيزياء عمـرَ هـذه المناجـم بـين 80ـ100 ألـف سـنة..الآن تزايـدت الدلائل على وجـود كائنـات ذكيـة في الفضـاء، نحـن نعلـم أنَّ الكواكـب تـدور حـول النّجـوم ولكـنْ مـا لا ندركـه في كثـير مـن الأحيان هـو أنَّ النجـوم تتحرك أيضـاً، فهـي تـدورُ حـول مركـز المجّـرة التي هي جـزءٌ منهـا. وهـذا يعني أنْ المسـافاتِ بـين النّجـوم، والكواكـب التي تـدور حولها عرضـةٌ للتّغيير. يعتقـد علـماء اليـوم بوجود كائنـات فضائيّة عاقلـة تنتظر الاقـتراب منا كي تسـتطيع قطع المسـافة باتجاه الأرض وهـو رأي يقترب من أسـطورة المدار الـذي يقـترب كلّ 3600 سـنة من الأرض.

ـ هـل يمكـن تعليـل عـزوفِ الأمريـكان عن دخـول البـلاد في أعقاب «عاصفـة الصّحـراء» عـام 1991 برسـالة، أو معلومـات عـن تأجيـل وصـول أنوناكـي مثـلاً؟

ـ ربّـما يكون ذلـك حقيقةً لكنّنـا بعيدين عـن تأكيدهـا الآن، الأمريكان هـذه المـرّة بالـذّات يسابقون الزّمن وأصرّوا عـلى تخطّي مجلس الأمن، ولم يهتمّـوا لمعارضـة الروّس والألمان والفرنسـيين، بقوا متشـبّثين بحجّة وجود أسـلحة إبـادة شـاملة، يعرفـون أنّها غـير موجودة أصـلاً. وهـذا يفـسّر لماذا خطّطوا بسرعة لبناء قاعدة اسـتقبال، سـتكون مكاناً لمحادثات سّريّة طويلة بـين الطّرفـين (السـفارة الأميركيـة العملاقـة) والتي لـن يدخلهـا غيرُهم.

ـ هل لديكم علمٌ بحجم وتجهيزات هذه السّفارة المستقبليّة؟

ـ تُفيد المعلومات المسّربة، أنّها ستكون أكبر سفارة لدولة على الأرض والحقُّ هي ليست سفارةً بل مجمّعٌ هائلٌ يُعادل عشرَ وزاراتٍ وستكون مستقلةً عن الخارج. أي أنَّها قادرةٌ على العيش بقواها الذّاتيّة قرابة عامٍ كاملٍ، لا تحتاجُ تموين ولا طاقة من خارجها.

ـ متى تتوقّعون حدوث لقاء الطّرفين؟

ـ العدّ التنازلي بدأ منذ يوم الغزو الأوّل..

ـ وأين بالضّبط؟ قصدي في أيّ المواقع سيهبطون؟

ـ الهبوط سيكون جنوبَ موقع رؤيا النبي حزقيال، أيِّ جنوب الخابور، لا أحد يعرف بالضبّط لكنَّه في أعالي دجلة أسفل الموصل، أعالي بغداد.

ـ وهل أنتم مستعدّون لذلك؟

ـ نعم، التّفاصيلُ الفنيّة في الملف المفصّل المسمّى 003 والموجود في مبنى الخارجيّة حسب الاتّفاق مع (ج)

ـ أها، كما توقّع الميجر.

ـ نعم، ولكنَّ الميجر لم يتوقّع كلّ شيء، لقد تحدّثَ عن سجلّات معلومات مهمّة لاغير، لكنه..

ـ الميجر تكلّم عن نسبة الخمس بالمائة التي صادرها «الرّئيس» من مبيعات النّفط طيلة ثلاثين سنة إضافة إلى عشرة صناديق تحوي معلومات حسّاسة بشكل ملفات وأقراص مدمجة أليس كذلك؟ هذا ما ورد في تقرير الميجر

ـ نعم.

ـ الخلاصة إذن: هناك ثلاثة أطراف وهم الأمريكان، الوزارة المسؤولة عن الماء، عارفو السّرَّ، وموضوعان هما السّجلّات، أنوناكي، ولا أحد يعرف أيِّ طرف يعرف أيِّ موضوع..أو أيِّ طرف يعرف أنْ هذا الطرف أو ذاك يعرف هذا الموضوع أو ذلك..

ـ نعم، نسبيّاً نعم، لكنّنا نَميل إلى أنَّ سرّ السّجلّات قد ذاع ليصلَ حلقاتٍ أوسع، أمّا وصول أنوناكي فهو سرٌّ مطلق لم يتسرّبْ لأي شخص أو وسيلة إعلام أو مؤسّسة..ويبدو أنّه أهمُّ ما يحرص الأمريكان على كتمانه.

ـ وكيف ستتابعون هذه الشّبكة المعقَّدة؟

ـ لديَّنا خيوطٌ مع الجميع، ونحاول ألّايفلت منّا أحدٌ. وهناك شيءٌ آخر، ثمة مَنْ يبحث عن كنز وصناديق عملة أوربية لا يُعرف عددها ...

بعد هذا الحوار، انقطع السّياق لتتلوه خطابات «توني بلير» و«ديك تشيني» و«جورج بوش» دونَ وجود أيِّ رابط بينها وبين المقدّمة الحوارية.

أخرستني الدّهشة، ما هذا؟ لاشكّ أنّه حوارٌ سريّ بين شخصين غاية في الأهميّة، ولكنّ من هما هذان المتحاوران؟ ومن هو الميجر؟ ومن هو(ج)؟ وما درجة مصداقيّة ما ورد فيه من معلومات خطيرة؟ ومن سجّله؟ هل هو محضر اجتماع؟ وكيف يترك مثل هكذا سرّ في حقيبة مرميّة في القمامة؟ ولمن تعود هذه الحقيبة؟ هل يا تُرى صاحبتها قُتلت؟

بعد عثوري على الحقيبة تناهبتني الأفكار المفترسة، القلقة، ذلك النّوع من الأفكار الذي يتلاعبُ بك مثل الكرة، مرة أتصور نفسي محظوظاً بلقيتي وثانية أجدها ورطة ستجبرني على ولوج دروب لا أريد

ولوجها إذ لامعنى للأمر كلّه إذا بقي حكراً عليّ أنا.

بقيتُ أحاور نفسي:

ـ لأفترض أنَّ واحداً من الاحتمالات التي تداولها المتحاوران سيقع ماهو دوري أنا؟

ـ غباءٌ، غباء مطلق، التّفكير على هذا النّحو، ألايمكن أنْ يكون مقطعاً من رواية أو قصة؟ كيف لم تفكّرْ بذلك؟

ـ ولكنّ من تراه يكتب روايات في هذا الوقت عن هبوط الأنوناكي؟ الروايات تُكتب بعد حين، بعد أنْ تضع الحرب أوزارها كما يقال.

ـ لكنّ الحرب بدأتْ منذ أكثر من عشر سنين والسّيناريوهات كُتبت وتحوّلتْ إلى ألعاب «بلاي ستيشن تو» و «أكس بوكس»

ـ مع ذلك فهذا نصٌّ باللّغة الانكليزيّة لاقيمة فنيّة له من النّاحية الرّوائية.

لم أَثبتْ على رأي لكنّي وجدت نفسي مدفوعاً بفضول قويّ إلى كشف ما يمكن لي كَشفهُ من هذا الغموض. مثلاً ما أسماه المتحدّث المفصّل 003، هذا التقّرير هو ما سيبدّد العتمة، رغبةٌ داخليّة ملحّة دفعتني لزيارة أنقاض المبنى الوزاريّ المقصوف، والبحث في بقايا الحطام، بين الكراسي المحترقة، والأوراق المبعثرة وتحتَ الطّاولات المقلوبة والرّفوف المتهاوية عن المفصّل، ولكنْ كيف يمكنني دخول بناية حكوميّة، كانت حتّى الأمس مزروعةً بالأشباح والألغام والممنوعات؟ كان عليّ، قبل كلِّ شيء التسّلح بتصريح رسميّ يُمكّنني من إثبات وجودي في المبنى بمهمّة توثيقيّة بحتة، فأنا أريدُ البحث عن ملفٍّ محدّدٍ وهي عمليّة قد تدوم ساعاتٍ، لفّقْتُ قصةً عن حاجة المتحف لبيانات عن اتفاقاتٍ سابقة قد تُفقَدُ وحصلت على التّفويض مُبكّراً، أعددْتُ نفسي لمهمّة

طويلـةٍ وصبـورة تبـدأ بالتسـلّل بهـدوءٍ من بـين الأنقـاض، ثـمَّ البحث في أرشـيف الـوزارة عـن التّقريـر، لكنّـي لم أتمكّـنْ مـن إقنـاع أحـد بالذّهاب بمفـردي، فقد أيقظـتْ هذه المهمّـة لدى بعضهم حاسّـة الشّـعور «بوجود قضيّـة سّريّـة»، فلـماذا يبحث « صفـاء البغـدادي» في مكان، مـازال أرض معركـة خطـرة عن ملفـات ربّما احترقـت في أيـام الحـرب الأولى؟ وعندما تحمّـس بعـض الباحثـين عن الفضائـح لخوض المغامـرة معي أدركـتُ أنّهم يرومـون البحـثَ عـن الصّناديـق النّقديّـة وثـروات الحـكّام المهزومـين، والوثائـق السّريّـة والأقـراص الماجنة لوزراء سـابقين هاربين ومسـاعديهم وأنّهـم سـيظنّونني مثلَهـم فـلا يتركوني بعيـداً عـن أعينهم الفاحصـة. كلّا، إذا مـا ذهبْـتُ فسـأذهبُ بمفـردي ومـادام كتـابُ السّـماح موجـوداً لـديَّ فسـأبلغهم بتأجيـل المهمّـة لخطورتها، ثـمَّ أتسـلّل إلى لمبنى وحيـداً في وقت مناسـب. هـذا الوقـت المناسـب لم يحـل أبـداً، فعندمـا نهضـت ذات فجـر متوجّهـاً نحـوَ مبنـى الـوزارة المقصـوف فوجئـتُ بالشّـاحنات الأمريكيـة أعـادت غلـقَ مدخلـه وأحاطتـه بالكتـل الكونكريتيّـة ولم يشـفعْ لي كتـابُ السّـماح بدخـول المبنـى أمّـام المجنـدة الأمريكيّـة السّـمراء التـي مطّـت شـفتيها لتخلـق ابتسـامة، أرادتهـا أنْ تكـون لطيفة:

Not allowed Sir!it is very dangerous

سر الحق 1

رغم شكوكي بوجود قيمة من نوع ما للمحادثة والحقيبة، لكنّ فشلي في إيجاد تفسير مُقنع للحوار لم يترك أمّامي خياراً إلّا تسريب الخبر بتأن وبطريقة ملتوية مموهة لأحد مسؤولي الوزارة. أوَّل الأمر تحدّثتُ بحذر، لكنّ الذي فاجأني أنّ المسؤول رشقني بحزمة أسئلة مُحمّلة بالفضول ثمَّ طلب الاطّلاع على النّصّ. وبعد ساعة يبدو أنّه أمضاها متّصلاً بجهة ما أوعز لي بصيغة تقترب من الأمر بجمع كلّ محتويات الحقيبة كي يرسلها إلى قسم التحليل المعلوماتي، ولم يمض أسبوع حتّى أبلغني بموعد «لقاء استفساري» كما أسماه في الوزارة. هناك أدخلوني على شخص مدني لفت انتباهي لون بشرته الزّهريّ وطريقة كلّامه الباترة السّرَّيعة. كان وجهه مسلوخاً كما لو أنّ ابريقَ ماء مغليّ انسكبَ عليه، قدّم نفسه باسم «الفريق أبو هاشم» لكنَّه بقي في ذهني معرفاً باسم «الزّهريّ»، ربتَّ على كتفيَّ بما يكفي لتنبيهي إلى أنني عثرتُ على سرٍّ غاية في الخطورة:

ـ هذه مراسلاتٌ سّريّة خطيرة بين لاعبين رئيسيّين، لاشكَّ أنّها فُقدتْ في ظروف استثنائيّة. من حسن حظِّ هذه البلاد أنّها وقعت في أيدٍ أمينة فكنتَ أنت من عثرَ عليها، أمن الدولة يقتضي بقاءها سرّيّة. سأرفع مذكّرة لضمّك إلى «خلية المتابعة». إذا ما تمّت الموافقة ستكون واحداً من الأعمدة المتينة التي ترفع هذه البلاد، وأنت بالذّات ستكون «الأمينَ الأخلاقيَّ» للخليّة.

لم أسـمعْ تكملـةَ الجمـل التي انسـابت مـن فـم « الزّهريّ» فقـد دخلتُ في حالـة ذهـول سـبّبَتْها مهمّتي الجديدة التـي لم أتوقّعْهـا. لم يكن بمقدوري توجيـهُ أيِّ سـؤالٍ طالمـا صرتُ فجـأةً عضـواً في أرفـع هيئـة تحقيـق سرّيّـة وصـار اسـم الحقيبـة مـن الآن مخيفاً بعـض الشّيء:

«سر الحق1»

شـعر «الزّهـريّ» بالرّعـب الـذي داخلني إثرَ سماعي الاسـمَ فطمأنني أنّـه اسـمٌ بسيط مختـصر، لاعلاقـه لـه بضيـاء الحـقّ أو باسـم قائـد حرب أفغـاني كـما يتبـادر للذهـن فهـو (سرُّ الحقيبـة الأولى)، مختـصر للحقيبـة حاويـة الأسرار التـي سيتحتَّم عـليَّ النّظـرُ لهـا على أنّهـا سرٌّ وجـودي، فأنا كـما قـال المسـؤول الرّفيـع، «الأمـين الأخلاقـيّ» لخليـة المتابعة وهـي رتبة سـمعتها للمـرة الأولى في حيـاتي ولم أفهمها إلا كإشـعار لي بـأنَّ أيّ تسريب للسّر سـيكون ثمنُـه رأسي:

ـ نحن مسـؤولو أمنٍ محترفـون، وأنت «مواطن شريف» سـاقته الصّدفةُ لأنْ يلعـبَ دورَ « العاثـر عـلى السّرّ». نعرف أنَّك لسـتَ مدّرباً على مهارات الصنعـة، لذلـك لابـدَّ مـن المِران..هـذا شرف سـيّد « صفـاء» كان يمكنُنـا منعَـك مـن التّمتّع به. مثـلاً أنْ ندّعي أمّامَـك أنّ حديـث المتحاورين خيالٌ صحفـيٌّ، وأنَّ الحقيبـة كلّهـا لا قيمة لها، ليسـت سـوى قطعة نفايـات، كلُّ ذلـك سـيكون مُقنعـاً، لكنَّه سـيكون مُجانبـاً للحقيقـة. لم نشـأ حرمانك من شرف تسـتحقّه. صلتُك سـتكون بي حصراً .

وفهمْتُ المعنى مرّةً أُخرى: إذا ما تسّربَ السّرُّ سأكون أنا من سرّبهُ!

ولكـنّ كيـف لي أنْ أتمـرّن عـلى صنعـة « صيانـة الـسّرّ»؟ أعـرف مهارة واحـدة لاغـير، هـي الاحتفـاظ بالفـم مغلقـاً، أحسـبُ أنَّ هـذا هـو مـا تطالبونـي بـه.

ـ كلّا، هـذا لا يكفـي. ألّا تفشيَ الـسّرَّ هو نصف العمـل والنّصف الثّاني أنْ تنتبـه لمـن يكـون قـد توصّـل لمعرفـة السّرَّ ويحـاول هتـك سرّيتـه ويريد إشـاعَتهُ، يمكنـك تحقيـق هـذا الهـدف بتشـغيل حواسـك بأقـصى طاقاتها. لا بـدَّ أنْ تسـتغل الحـواس. مثـلاً، تَعَـوُدْ الإنصـات المرهف يجعلك تسـمع أصواتـاً لا يسـمعها غـيرك. وإمعـان النظـر بالأفـق يمنحـك موهبـة رؤيـة شـخص يمـر أمّامـك بسرعـة خاطفـة فلا يراه سـواك. هـذه هي حيـاة من يكـرّس نفسـه لمهنـة الحفاظ عـلى أمن البـلاد، وإلا كيـف تُكشـف الجرائم الكـبرى التـي يرتكبها المحترفـون المهرة؟ خذ مثـلاً التحـف والتماثيل التي سرقهـا الأوغـاد من المتحـف العراقـيّ، وأنت ابـن المتحف، كيـف تلاحق اللصّـوص؟ نحتـاج إلى مزيـج نادر مـن الـذكاء والوطنية.

دغدغ «الزّهريّ» مسلوخ الوجه أكثر أوتار روحي حساسية!

بعـد أقـلّ مـن شـهر تلقّيـتُ اسـتدعاءً منـه حيـث رحّـب بي هـذه المرة كصديـق موثـوق قديـم، ثـمَّ قال:

ـ نريـدُ نقلَـك مؤقتـاً، لتكـونَ صلـةَ ارتباط بهـذه الشّركـة الأجنبيّة التي ستعمّقُ مجـرى النَّهـر فمَـنْ تـراه يصلـح للوسـاطة بـين النَّهريـن والخبراء غـيرك أنـت خبـير الحضـارات الرافدينيـة والعـارف بأحـوال ممالـك ميزوبوتيميا؟

كنـتُ سـمعتُ أنْ شركـة أجنبيـة عملاقـة كُلّفـتْ بمهمّة تحسـين مجرى النَّهـر وتخليصـه مـن الغريـن والطمي، فسـألت:

ـ ومـا هـو دوري بالضّبـط؟ أنـا كـما تعلمون خبـير حضـارات رافدينيّة أيِّ تأريـخ ولغـات ومجتمع ولسـت خبـير مياه..

ـ لسـنا بحاجـة إلى خبير ميـاه، فهم كُثر، نريـد مَنْ يراقب التـزام الشّركة بتنفيـذ مهـام التّعميـق مـن بغـداد حتّـى القرنـة، لا أعـلى، لا نريـد جهـة

تستغلُّ أعمال الحفر للنّبش عن أسرار البلاد، هذا أوّلاً ونريد ثانياً أنْ تنقل تراث الرّافدين للأجانب..في كلّتا الحالتين الثّقة العالية والأمانة التامة، والجدارة مطلوبة وأنت أهلٌ لكلّ ذلك، ثمَّ أننا نثق بقدرتك على حمل المُنفّذ على تنفيذ المشروع بإبداع، فنحن ندفع له ميزانيّة ضخمة كما تعلم، لك حرية التدخل في تعديل الخطّة.

الحقّ أنني لو خُيّرت، في ظروف ذلك الزمان بعد أنْ أغلق المتحف، وتلاشى السّوّاح، لاخترت التفرغ الكلّي لهذا العمل، فأنا أرى « دجلة» أكثر الأنهار تعرضاً للظلم والإهمال، لاماؤُهُ مُقدراً ولاضفتيه، رغم أنّه أعرق أنهار الأرض ورغم أنْ تأريخ البلاد يمر به.

عُينّتُ بكتابٍ رسميٍّ مبتسر بصفة مترجم ومنسق وفي أوَّل لقاء رسمي أحضره وقفتُ خطيباً أمّام الوزير وحاشيته وجمع هائل من المدعوين، لم أتمالك نفسي فجمحت بعيداً وكررتُ هذياني عن ربط التأريخ بالحاضر:

السّيدات والسَّادة! (لم تكنْ هناك أيّةُ سيّدة) تعاقدتم مع شركة متخصصة لكري دجلة والفرات وهذا عملٌ ممتاز لكنّي لا أراه كافياً، لابدَّ من أخرى متخصصة بالإعمار. الأولى تُعمق المجرى أمّا الثانية فمهمتها تجفيف الطّين المُستخرج من النَّهر تحت الشمس بعد أنْ تخلطه بالتّبن مثلما كان السّومريون والبابليون يفعلون، لتُعيد بذلك حضورَ الطّراز السّومريَّ والبابليّ مستلهمةً حضارات شمال نهر الفرات الحيثية، والميديّة، والآشوريّة، والفينيقيّة والرّومانيّة، وفي جنوبه السّومريَّة، والأكدية، والكلّدانية، والبابليّة. وعلى جانبيّ النَّهر بعد إتمام عمليات الكري، والتنظيف، سنُعيد تأريخ بغداد على امتداد النَّهر بشكل مضافات، وأمّاكن استراحة، وزوارق عائمة، سيرى النّاس في الشّوارع ليالي ألف ليلة وليلة، ومعالم الخلافة العباسية، ويتعرفون إلى «الشاطر

حسن»، و«شهرزاد» و«شهريار» و«علي بابا» وعشرات المغنيات وعازفات العود. وبينَ البصرة وبغداد على امتداد دجلة سيتحرّك «الحسن بن هانئ أبو نؤاس» و«الأصمعيّ» و«الحسن البصريّ» و«الجاحظ» وسيقصُّ الحكّاؤون على ضيوفهم ممّا «وضع في بطون الدّفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر» هكذا ستكون بغداد وهكذا ستكون البصرة! سيكون العراق قبلةَ الأُمم.

كنتُ كمن يكلّمُ نفسه، وسط الحضور الصامت، حسبتهم متضايقين من بطري وأفكاري التي غالباً ما وصفوها بالطّائرة على بساط الأحلام، وعندما وافقوا رسمياً على اقتراحي، أذهلتني المفاجأة. ربّما كان قبولهم مقترحاتي ليس لاقتناعهم بجدواها، بل لإشراكي في هذه العملية ودفعي أكثر للقيام بمهمتي الرقابية. نعم، لأن وجودي هو وجود غير قابل للتعويض. لكنّ الأمر كلّه ليس بالبراءة والبساطة التي حاولوا عرضها فكيف سيتم التعامل مع شخوص ألف ليلة وليلة؟ ومن هو ذاك العبقري الأجنبي الذي يُدرك علاقة بغداد بدجلة وجزرها، وخنازيرها، وبساتين نخيلها، بل بسورها الذي تظافر الغزاة على محوه من ذاكرة ساكنيها، وخندقها ونهرها الذي كان يسقي مليون ساكن بماء عذب عبر قنواتها المسقوفة النظيفة؟ لحد هذه اللحظة لم يطلعني أحد على ما رسموه في مخيلاتهم عن مستقبل النَّهر..

حان يوم بدء العمل في تعميق مجرى «دجلة»، أو يوم الإفتتاح الرّسميّ، استيقظت فجراً وخطوت خارجاً وجلست على الشاطيء كأنّي أنتظرُ منه عرض شكواه. بقيتُ أنظرُ لصفحة الماء الدّاكنة حتّى رفعتِ الشّمسُ رأسها محيّيةً معلنة قدومها. كان يوماً مميزاً جاء بعد انتظار وبعد أنْ اتفق المعنيون على مهرجان رسميّ واسع، وعيّنوا مكاناً له قريباً من غرفتي المطلّة على النَّهر. توجهّتُ مُتمهِّلاً إلى قاعة الاحتفال

وكان بوسعي رؤية الكثير من الوجوه الغريبة غير المألوفة من قبل، هل شعرَ النّاس أخيراً بآلام النَّهر؟

توزّع الضيوف كلُّ مجموعة حول طاولة، تحمل اسم الشّركة أو الجهة التي يمثّلونها، وبدأ الحفل بعد نصف ساعة من موعده المقرّر بعد أنْ تأخّر مدير الشّركة متعذراً بالزّحام ثمَّ تقدم مندوب الوزارة ليقرأ من كتاب:

«حفر الإله **إنكي** مجرى نهري دجلة والفرات بما يشبه أنهار الفردوس ليجعل أرض الرّافدين إحدى جنان السّماء على الأرض وأطلق المياه في النَّهرين ليجعلها أرضَ السّواد». أمّا الإله «إنكي» فهو في التراث العراقيّ القديم يشبه ثوراً هائجاً، ضاجع النَّهر الذي تخيّله مثلَ بقرة وحشيّة، وقذف في مجراه ماءً رائقاً، ليفيضَ في نهريّ دجلة والفرات، وتزدهر الحياة في ضفافهما.

وفتح الكتابَ المقدّسْ على «سفر التّكوين» ليقرأ:

«وكان نهر يخرج من عدن، فيسقي الجنّةَ، ومنه يتفرّعُ لأربعةِ فروع منهم نهرُ الفرات وتوأمه نهر دجلة الذي يجري فيهما مياه الحياة»

ثم التفتَ إلى يمينه حيث وقفت أنا، وواصل:

ـ هذا هو السّيّد «صفاء البغدادي» الذي أشار عليّ بقراءة ما قرأت، دعوني أقدّمه لكم، إنَّه مختصٌّ بالتّاريخ والحضارات العراقيّة القديمة ومترجمٌ مرموق لذلك كلّفته الوزارة أنْ يكون صلة الدولة بشركتكم، يترجم تأريخ الرّافدين بالتّفصيل عبر برنامج أسبوعيّ، السّيّد «البغدادي» سينظّم لكم أيضاً رحلتين للأهوار، وبابل..»

وكان عليّ ترجمةُ ما قال، فصفّق الحضور وهزني تصفيقهم فقمتُ خطيباً:

ـ **نعم، سعيدٌ بمهمّتي معكم، وأكثر بوجودكم في بغداد.** تعرفون أنّ في البدء كان الماء، لاشيء غير الماء، ومنه نشأت كلّ حياة، وحفر «مردوخ» نهرين عظيمين، هما دجلة، والفرات. تراث المسلمين يتحدّث عن خلق النَّهرين عن طريق الإيحاء فجاء عن لسان أبن عباس: «أوحى الله إلى دانيال الأكبر، أنْ فجر لعبادي نهرين، وأجعل مفيضهما البحر فقد أمرت الأرض أنْ تطيعك، فأخذ قصبة وجعل يخدها في الأرض ويتبعه الماء، فإذا مرَّ بأرض شيخ كبير، أم يتيم ناشده الله فيحيد عن أرضه.. ولكنّ هل ولد النَّهران في عهد **نبوخذنصر**؟ هذا أمر مجانب للصّواب.» **ارنولد توينبي**، يتحدّث عن عملية جبارة استغرقت أجيالاً قامت بها مجاميع سكّان الوادي لاستصلاح المستنقعات وتهذيب الغابات ليتكوَّن مجرى نهرين، أيّ أنَّ ما سجَّلته الأسطورةُ باسم «مردوخ» أعاده «توينبي» إلى العراقيّين الأوائل. الماء، الشّمس، القصب، البردي، النّخيل تلك هي أسرار حياة هذه البلاد.

كلُّ تراث العراقيّين يعود للماء، والماء يوحّد أساطير سكّان العراق. كلّ العراقيّين شربوا من الفراتين فالفرات ودجلة نهران سومريّان أكديان، ميديّيان، كلّدانيان، بابليان، آشوريّان عربيّان، وهما رمز وحدة البلاد. ربّما لا تعرفون أنْ اسم الملك الإله «حمورابي» يعني المُعتلي، وهي بالآكديّة «آمورابي» وبالعربية نقول للمعتلي «المرابي» أيِّ الذي صعد مكاناً مرتفعاً ونظر من علوه، والملحمة المعروفة «اينو ما ايليش» ترجمتها العربية «حينما في العلى» وهو كما ترون مطابق بعد تحوير حرفي العين والحاء، كذلك مفردة «يوم» العربيّة هي «اومو» في الأكدية وشمس العربية هي «شمش» السّومريَّة ، وأصل الكلّمة «بابل» تحوير عن «باب الاله» دون أنْ أنسى الإشارة إلى أنّ اللّهجة العراقيّة

والبغدادية خاصة، هي خليط من لهجات ولغات كلّ الحضارات التي تعاقبت على وادي الرافدين. سترون أنْ هناك تزاحماً على ادعاء ملكية النَّهرين والقدرة على السيطرة عليهما «إنكي» و«دانيال» و«مردوخ» و«سميراميس» والعراقيّون القدامى. كيف وصف «أرنولد توينبي» إنجاز السّومريِّين التأريخي؟ قال أنهم هذّبوا حوض دجلة والفرات! هذبوه بجهد هائل بعد أنْ كان مستنقعاً هائلاً موحشاً مُغطّى بالغابات، استحقوا من «توينبي» وسام الريادة عندما قال: «لم يسبق لمجموعة بشرية من قبل أنْ تعاونت لعمل مشروعٍ ضخم استغرق أجيالاً كما فعلت مجاميع السّومريِّين». اسمعوا، استغرق أجيالاً! ما الذي يعنيه هذا؟ تأملوا جيداً إنّنا نتحدّث عن زمن لا نكاد نتصوره إلّا رمادياً، آنذاك اجترح السّومريُّون مأثرة أخلاقية هائلة المعنى. لقد قدّموا مثالاً لبعد النظر. كان عمل قادة هذه المجاميع السّومريَّة عملاً استراتيجياً جباراً، فترويض المستنقع وتحويله إلى غابة كثيفة الشجر، استغرق أجيالاً طويلة مما يعني أنْ أولئك الأفذاذ لم يكونوا قد فكروا بحصد المكاسب لأنفسهم ولا لأبنائهم. أيّ أنّهم كانوا يعرفون أنْ نتائج عملهم الشاق لن تأتي ثمارها أثناء حياتهم، ولا حتّى أثناء حياة أبنائهم، والآن أخبروني أليس ذلك هو أصل فكرة «التنمية المستدامة» التي لم يعرفها عالمنا إلّا في منتصف سبعينيات القرن العشرين؟ أيّ ألّا تُفكر بمصلحتك وحاضرك بل بمصلحة الأجيال القادمة أيضاً.

سنتحدّث الكثير عن حضارات الرّافدين، لكنّ قبل ذلك، دعوني أنقل لكم آلام النهر الذي ستعالجونه. نّهر دجلة بالبابلية **(I di iq lat)** وفي اللغة الإنكلّيزية **(Tigris)** الكلّمة تعني بالأصل «السهم المارق» أو «الجاري» أو «السَّريع» وسواء من هذا المعنى أو من دراسة تاريخ النَّهر كلّه فإن الثابت هو سرعة جريانه ولكنه الآن يشعر بالتعب كما ترون. أرهقه جريان آلاف السنين، تُرى ما الذي أغلق مجراه؟ هل هو

الطمـي والغريـن؟ وكيـف حافـظ الأوائـل على عمـق مجراه آلاف السـنين رغـم أنّهـم لم يملكـوا الحفَّـارات الضخمـة، بينـما اضمحـل خـلال عقـود معـدودة حتّـى أنَّك تسـتطيع عبـوره دون أنْ يصـل ماءه لرأسـك؟ هذا هو السـؤال الـذي يُرهقنـي وكلّ البـلاد تنتظـر منكم الإجابـة عليه!

رد المدير مبتسماً:

ـ طبيعـي مايحدث سـيد «البغـدادي». لا غرابة في الأمـر. أقصى ارتفاع لدجلـة عـن مستوى البحـر في بغـداد لا يبلـغ سـوى سـبعة وثلاثـين متراً والمسـافة للبـصرة الواقعـة بمسـتوى البحر هي أكثـر من خمسـمئة كيلومتر مـتر، أيِّ أنْ زاويـة الانحدار صفـر تقريباً..

ـ ولكنّـي أتعامـل ياصديقـي مـع التأريخ، من المؤكد أنْ اسـم «السـهم المنطلـق» لم يُطلـق عبثـاً فدجلـة أيـام البابليـين كان سريعاً، الانحـدار كان ذاتـه كـما أظـنّ، لكـنّ النَّهـر كان صالحـاً للملاحة. عـلى أية حـال هذه هي مهمتكـم.. «دجلـة» يتعثـر مثـل حـظ البـلاد، يمـشي الهوينـا متلويـاً مثل أفعـى مصابـة بضربـة شـمس، ثقيـل مثـل دب ابتلـع ألـف بقرة فـلا يكاد يصـل القرنـة إلا وقـد أنهكه طـول الزحـف. هذه هـي مهمتكـم وهي جر قطيـع البقـر الـذي ازدرده النَّهر..»

ضحـك مَـنْ في القاعة وتقـدَّم المدير منـيّ وصافحني بحـرارة قائلاً: إنّه سيسـافرُ إلى لنـدن، ليكملَ إجـراءاتِ الانتقال مع شركتـه لبغداد .

ـ آووه مستر «دوغلاس».. أتمنى ألّا تشعر بالغربة في بغداد!

ـ لا أبـداً، لـن أحـس بغربـة ولكـنْ قبـل كلِّ شيء، أتمنـى أنْ تناديـني «هنـري» يـا «صفـاء»..

وأصبحنا بذلك صديقين!

أتذكّـرُ أنّ الأيّـام مضـت مُسرعـةً، وكان أوانُ عيـد الفصـح قـد حـلَّ، وقـد أُبلغْـتُ قبلهـا أنّ الشّركـة سـتوقفُ خلالـهُ أعمالها بسـبب سـفر عامليهـا لذلـك قصـدتُ في اليـوم التّـالي المديـر لتوديعـهِ. كانـت شـمس أوَّل الضحـى، التـي لم تتحـول بعـد إلى حالـة التوحـش فتُلهـب بمنصهـر ذهبهـا اللاهـب كلَّ مـا تطالـه، تبعـث بسـيل مـن حِزمهـا الدافئـة إلى الأرض، فتصـل متسـلّلة مـن خـلال الشـبّاك المُطل عـلى دجلـة لتسـقط عـلى وجـه «هنـري دوغـلاس» الجالس عـلى كرسـيّه الهـزّاز. كان سـعيداً بشـمس الـشرق تـتركُ آثارهـا عـلى أديمـه بسرعـةٍ فيتغـير الوجـه الأوربي إلى لـون النحـاس. كنـتُ أجلـس عـلى كـرسي هـزّاز آخـر مقابلـة وقـد أفزعنـي وجهـي الـذي رأيتـه فجـأة في المـرآة المقابلـة يـروح ويجـئ، يكـبر ويصغـر.. بـدوتُ مُتعبـاً وقـد تـرك السّـهر هالـة حـول عينـيّ ثـمَّ سـوّد شـعاع الشـمس محيطهـما أكثـر فبدتـا مثـل فـراغ العيـون في جمجمـة أثريـة.

أثـارت حركة كُرسـيّينا الهزازيـن روح السّـخرية بأعماقي، رغـم أنَّ ثمَّة مـا يقعـي عـلى روحي بعد حلـم البارحـة، فقلـتُ دون تفكير:

ـ تصـوّر «هنـري» أنْ يأتيـك «مـردوخ» في اللّيل ليكشـف لك سـبب انغـلاق مجـرى النَّهر.

غـرق بضحكـة مجلجلة، ثـمَّ مالبـث أنْ توقَّـف كمـن تذكَّر شـيئاً، وقال بضيـقٍ واضح:

ـ بعـد أيّام من العمل الشّـاقّ الصّبـور، أصبحَ لِزاماً علينـا الآن التوقّفُ قليـلاً لالتقـاط الأنفـاس، فالنتائـج لحـدِّ هـذه اللّحظـة لم تُطمئن الـوزارةَ. لأنّهـم يـودّون رؤية غـوارق محـدّدة أعاقت مجـرى النّهر.

فسألتُ متلهفّاً:

ـ مثل ماذا؟ ألم يُفصحوا عن طبيعتها؟

ـ لا أعـرف، ولكـن اِتَسـمَ حديثهـم بالسّرَّيّة والغموض، مـرة يتكلّمون عـن مخلّفـات حـروب، أو عربـات حربيّـة، أو دبّابـات، رغـم أنّ أفـلام الأقـمار الصّناعيـة لم تُظهـر أيـة معـارك سـابقة جـرت قـرب شـواطئ النَّهريـن. «المسـؤول» يرافـق عمليـات الكـري بتفاصيلهـا، وهـو بذاتـه يتدخـل في الأمـور الفنيـة بحجـة أنْ للموضوع بُعـداً أمنياً، وهو المسـؤول الأمنـي كـما أبلغـوني رغم أننـي لم أفهـم مـا يعنيه ذلـك، وماعلاقـة تعميق مجـرى نهـر بالأمـن الوطني!

ثم مسح جبينه المتعرق وقال بلهجة لينة:

ـ ربّما سـنتحدّث عـن ذلك بالتفصيل بعـد عودتنا، لكـنّ الآن «صفاء» أردت تنبيهك إلى أمر. كما تعرف، لن يبقى هنا سـواك والحارس. أعرف أنْ المـكان مُحصّنٌ ومحـروسٌ ولا يدخله غـير العاملين في المـشروع وبالبطاقات الإلكترونيـة، ولكـنّ ثمـة من أبلغ عـن رؤية أشـباح أو مشـاهد غريبة ليلاً قـرب الموقع. تَوقّفُ العمل لأسـبوعين سـيكون فرصةً مناسـبةً للّصوص، لذلـك أردتُ إبلاغَـك، لكـي تـوصي الحـارس بالانتبـاه خـلال غيابنـا.

ابتسـمتُ كـما لـو كنـتُ أريـد تهدئـةَ مخـاوف طفـل خائـف، فـأردف «هنـري» بـشيء مـن الخجـل:

ـ أعني أنّنا نحتاط كثيراً كما تعرف، ولا نتساهلُ مع هكذا أخبار، فلو أنّ سرقة أو جريمة وقعت لايمكنني التّهرب من مسؤوليّتي في الإهمال. ربّما كان ما شوهد خنازيرَ، أليس اسم الجزيرة القريبة «أم الخنازير»؟

ربَّتُ على كتفه بودٍّ:

ـ لا تقلـق، دع الأمـرَ لي، سـأبقى في المجمـع ليـلَ نهار، أتمنّى لـكَ عطلةً سـعيدة، مردوخ يحـرس النَّهر.

خَرجـتْ نهايـةُ جملتي على شـكلّ قهقهة، فشـاركني «هنـري» الضّحك رغـم انشـغاله بالنّظـر إلى عِراك طيور نشـب فجأة..

كريت ريفيرز

خِـلالَ أيّـام قليلـة امتـدّتْ مبـاني «كريـت ريفـيرز» ومخازنهـا، لِتَحـرِمَ المتنزهـين مـن متعـة السّـير بمحـاذاة النَّهـر. كنـتُ أنـا مـن بـين قِلّـة تحملُ تصريحاً بدخـول المجمـع، أمّـا غيري فلـم يكنْ بوسـعه تكوينُ نظـرة عامّة عـن سـعة الموقـع إلّا بالنّظـر من نافـذة الطّابق الأخـير في أعلى عـمارة مُطلّة عـلى دجلـة، لـيرى بنايـات الشّركـة تمتدُ عـلى الضفة عـلى هيئة ثـلاث كتل مثـل جثّـة عملاقـة لكائـن خرافي غريـق صغير الـرّأس قد انتُشـل تـوّاً من المـاء. رأس الجثّـة الصغـير هـو غرفتـي المصنوعـة مـن الـبردي المضغـوط والمنعزلـة عـن جسـد المبنـى بـما يشـبه الرقبة التـي تشـكّلُ سـقيفةَ الحارس «شـلش»، ثـمَّ يقعـي مسـقّف العاملـين حيـث حجراتهـم ومكاتبهـم التي لايدخلهـا غيرهـم، ثـمَّ آلات الحفـر الجديـدة التـي مازالـت نائمـة لم ترفع رقابهـا الهائلـة إلى السّـماء بعـد، تمتـدُّ مثـل سـاقين هائلـين منفرجـين بزاوية تُقـارب الثّمانين.

كانـت غرفتـي في مجمّـع الشّركـة محاذيةً تمامـاً لشـاطئ النّهر. منـذ أوَّل يـوم عمـل كلّ صباح قبـل أنْ تنهـض أوَّلُ حمامة مـن نومها، وحـينَ يكون المـاء أسـودَ والهـواء غـيرَ ملـوّث بلهـاث النّهـار أفتـح النّافـذةَ المطلّـة على دجلـة، أَعِـبُّ مـن هوائـه الطّـري، لكـنّ جعـيرَ الحفّـارات لايسـمحُ لأيّ صـوت آخـر بالمـرور لأذنيّ، فلـم أعـدْ أسـمعُ هديـلَ حمائـم الصّبـاح، ولا غنـاء عنـادل دجلـة، ولاحـشرات الضّفتـين تتبادل تحيّـة الصّبـاح، لاشيء

غيرُ هذه اللّقالقُ الحديدية الغاضبة، التي لم أكنْ أعلمُ سرَّ إلحاحها على الصّراخ ليلاً. كانت حجّتُهم أنْ الأوربيّين لايطيقون حرَّ نهارِ بغداد. في الأيام القادمة ولأسبوعين سأستمتع بهدوء النَّهر.

عند ضحى اليوم التّالي خرجتُ بلا هدف سوى الحدِّ من رتابة اليوم الذي لم يكن مبرمجاً لفعل شيء، وعندما عدتُ لغرفتي كانت السّماء تزيد من نثر شعاعها على بغداد بتواتر متزايد، فسبحتُ بعرقٍ لزج. قصدت الحمّام، فتحت النّافذة فرأيت سّيارةً ذات زجاج معتم أقبلت زاحفة ببطء ثمَّ توقفت مقابل نافذتي تماماً تحتمي بظلال نخلتين سامقتين. ترجل منها رجلان رأيت فيما بعد كيف رسم العرق خارطتين على ظهري قميصيهما. لا يُشعرني منظر القمصان المُتعرّقة بالراحة، كنت أحس اللزوجة تُلصق أُبطي بقفصي الصدري فأختنق. مالبث الرجلان أنْ توجها بخطوات عصبية واسعة إلى البوابة فيما بقي ثالث لم أرَ إلا يده اليمنى ينتظرهما جالساً في مقعد السّيارةالخلفيّ. تقدَّم الشَّخصان إلى بّوابة المجمّع، وأشارا إلى الحارس «شلش» ببطاقة ثمَّ تبادل طويلهما معه بضع كلّمات ففتح البّوابة لهما بسرعة، وارتباك، وهو مشدوه. سارا إلى الجانب الشّرقي من المبنى باتّجاه غرفتي، ولم تمرَّ لحظاتٌ حتّى سمعتُ بابي يُطرق. هما يقصداني إذن. ما هذه الزيارة؟ والجميع يعلم أنْ أعمال الشّركة مُعطلة. لقد توقّف نواحُ آلات الحفر، وآن أوانُ عطلة «عيد الفصح» وغادر العاملون إلى عوائلهم لفترة أسبوعين، فمن هما هذان القادمان؟

فتحتُ البابَ، فرأيتُ زائرين غريبين، لم أعرفْ كيف أبدأ الحديث، هل أدعوهما للّدخول، أم أستفسر منهما عن هويتيهما؟ قطع الأكبر سنّاً حبل الصّمت:

ـ حضرتك «صفاء البغدادي»؟

ـ نعم أنا هو، هل من خدمة أقدّمها؟

ردَّ بصوت جَهْوَرِيٍّ مبرزاً كتاباً موقّعاً من وزارة الدّاخلية:

ـ نحن من التّحقيق الخاص، أنا اللواء «سعد» وهذا هو مساعدي الرائد «جواد».

ـ التّحقيق الخاصّ؟ أهلاً وسهلاً، تفضّلا بالدخول، لكنْ هل حدث حادث؟

سألتُ بقلقٍ واضح، فأطرق الأكبرُ سنّاً، الذي قدَّم نفسه باسم اللّواء «سعد» وقال بلهجة تقترب من التحقيقيّة:

ـ حدث ولم يحدث..

قال ذلك، ثمَّ التفتَ حولَهُ، وفتح بابَ الغرفةِ، وأغلقه ليتأكَّدَ على ما يبدو من أنَّ لا أحد يُنصتُ للحديث، فعرفتُ أنَّ أمراً مهمّاً قد حدث.

ـ نحنُ هُنا سيّد «صفاء» لأمرٍ هامٍّ يخصُّ عملَ هذهِ الشّركة.

قلت بانفعالٍ مُدافعاً:

ـ لم أفهمْ، أنا منسّقٌ مندوبٌ من الدّولة ولستُ صاحب شركة «كريت ريفيرز»..

ردَّ اللواء:

ـ نعم، ولكنّكَ أكثرُ تواجداً هنا حتّى من حارس المعدّات، لذلك قصدناك.

فقلتُ بتمهّلٍ وبصوتٍ هادئ، أردتُه ألّا يشي بخوفي بعد أنِ اعتقدْتُ أنَّ سرقةً قد حدثَتْ:

ـ أنا مترجم شركة، وغيرُ معنيٍّ بموجودات الشّركة ومبانيها كما تعرفون.

فجـأةً اسـتدار مُحدّثي بحركـةٍ مسرحيّـة، ذكّرتني بأدوار محمـود المليجي البوليسيّة:

ـ لاعلاقـة لزيارتنـا بموجودات الشّركـة، ولا مبانيها، سـيد «صفاء» ما هـي معلوماتـك التّفصيليّـة عن مهـامّ هذه الشّركـة التي تعمـل مُترجماً لها؟

ـ شركـة «كريـت ريفيرز» شركة رسـميّة معروفـة، كما نُقل إليَّ سـتعمل عـلى تعميـق مجـرى دجلـة، وتنظيفِـهِ مـن الغـوارق بـدءً مـن بغـداد حتّـى القرنـة ثمَّ..

قاطعني مبتسماً:

ـ ولكـنْ قبـل كلّ شيء سـنتّفق أنَّ حديثنا هـذا، لابدَّ أنْ يبقـى بيننا نحن الثّلاثـة فقط، الموضـوع سريٌّ، وحسّـاس، ونحن الثّلاثة نتحمّل مسـؤولية الحفاظ عـلى سريّته.

أحسسـتُ بغـرزة مسـمار، اخترقـت صـدري ولم أعـرفْ اختيـارَ الـردِّ الصّحيـح، مـن همـا هـذان الشّـخصان؟

حاولتُ تحويلَ أنظارهما عن اضطرابي:

ـ سِرٌّ...؟! هـل لذلـك كلّـه علاقـة بالمشـكلّة التـي تشـغل بـال البـلاد الآن، ضعـف جريـان مـاء دجلـة والفـرات وقلّتـه؟

استأنفَ حديثه:

ـ في مـكان مـا مـن قـاع دجلةَ الأعـلى تنـامُ ماليّـةُ بـلادٍ بكاملهـا، وثمّة مـن يبحـث عن هـذا الكنـز، كنـز هائـل، المعروف عنـه فقـط عربـةٌ ذهبيةٌ وثلاثـون شـاحنة زيـل عسـكريّة مُحمّلـة حتّـى أذانهـا بالذّهـب والجواهـر والملفّـات الهامّـة، وصناديـق عملـة أوربيّـة، لا يُعـرف عددهـا، تعـود للرّئيـس. إنّهـا ثـروة العائلـة، وتبرّعات جمعتهـا الحكومة مـن الدّاخل ومن

الخـارج مـن الأفـراد والمؤسّسـات وحتّـى بعـض الـدّول، خـلال الحربين الأولى والثانيـة، لذلـك سيُصرُّ الباحثـون علـى العمـل ليـلاً، لكـي لا يرى لقيتهـم أحـد، لكنّهـم واهمون.

أخرسـتني المفاجـأة، لم أسـمعْ بهـذه التّفاصيـل حتّى من حـوار الحقيبة، كيـف تـسّربَ خـبر المـال المُخبـأ لهـا؟ قلـتُ محـاولاً التّخفيـف مـن جديّة الحديث:

ـ هـذا مثـير، لكـنْ مـا الـذي يدعـمُ صحّـةَ هـذه القصّـة؟ أقصـد قصّة الذهـب والعربـات، شـائعاتٌ لا حـصرَ لهـا انتـشرت عـن شـوارع تحـت الأرض تربـط المـدن ببعضهـا، وعـن مدينـة طـوارئ سرّيـة مجهّـزة بـكلّ شيء.. لكنّنـا لم نـرَ سـوى حُفَـراً مُعتمـة. كلُّ ذلـك كان وهمـاً.

ـ كيـفَ يُمكننـا بعجالـة الحديـث عـن هـذا الموضـوع الشـائك؟ ولكنّ المختـصر هـو أن أحـد كبـار ضبـاط الاسـتخبارات السـابقين المقربـين من عائلـة الحكم أفـاد: إنَّ أمراً قد صـدر بتغليف الحمولة بالبلاسـتك وإلقائها بنهـر دجلـة قبـل شـهر من دخـول الأمريـكان. كانـت الخطة أنْ تـأتي جهة موثوقـة تدعي إجـراء عمليات حفـر وكري فتنتشـل الحمولـة وتعيدها إلى العائلـة المالكـة دون إثـارة ضجـة، الحمولـة أُنزلـت إلى قاع في أعـالي النَّهر لكـنّ هـذا سرٌّ لا يعرفـه غيرُنـا. لا أحد سـوانا يعـرف في أيِّ مـكان تقريبيٍّ من دجلـة أُلقيـت الحمولة.

ـ وهل يعرفُ أحدٌ غيرُكم بقصة الكنز عموماً؟

ـ لـو علمـوا لمـا تركوه لك ولنـا، الجميع يعـرف أنّ المتبقي مـن الثّروات في العـراق كميّـات كبـيرة، خاصـة الذّهـب والعِملـة، ولكـنّ قصّـةَ دفـن الكنـز في القـاع لا يعرفهـا إلّا حلقـة ضيقـة مـن العائلـة الحاكمـة، ونحـن الثّلاثـة. وأشـار بيـده لزميله، ولنفسـه ولي!

فقلتُ:

ـ ماهـذا؟ «حاولـتُ البقـاء متماسـكاً، أسـمعُ أكثـر ممّـا أتكلّـم مُكتفيـاً بالأسـئلة التـي تُخفـي اضطـرابي»

استأنف الرّائد حديثَ زميله:

كـما تـرى، وثقنـا بـكَ وأطلعنـاك على خفايـا خطـيرة. المهمُّ هـو مراقبة حركـة الجرافـات، والحفّـارات كـي لاتتجـه إلى أعـالي النَّهـر، لـو أنْ الـسّرَّ تـسرب لأرسـلوا حفّـارة في عتمة اللّيـل وانتهـى كلّ شيء..

ـ غريب، وهل تعرف شركة «گريت ريفيرز» الحقيقة؟

ردّ اللواء:

ـ بالتَّدريـج أسـتاذ «صفـاء»! بالتّدريـج، هـذا موضـوعٌ للقـاء آخـر، نحـن لانريـد أنْ تشـعر بأنّنـا نمنعُ عنـك الحقائـق، لأنّهم اسـتدعوا الشّركة بموجـب عقـد كـري وتنظيـف رسـميّ وواضـح، مهمّتُنـا الآن مراقبتهـم كـي لا يتجّهـوا شـمالاً. نحـن هنـا لنتَّفـقَ عـلى أمر.

أثنـاء ذلـك، نظـرتُ خـلالَ النّافذة بـلا هـدف، فرأيت الثالث يتمشـى بمحـاذاة السّيارةبعصبية نافثـاً دخـان سـيجارته ناظـراً بين لحظـة وأخرى لسـاعته بنفـاد صـبر، ثـمَّ تقدّم وفتـح بـاب السّـيارةفرأيت وجهَـهُ واضحاً وخُيّـل إليّ أنّنـي رأيتـهُ قبـل الآن، أين؟ ومتـى؟ وخلالَ لحظـات عادت إلى رأسي مشـاهد حفلـة الافتتـاح في الفنـدق وتذكّـرتُ الرّجـلَ الـذي جلس إلى طاولـة تحمـل عنـوان «شركة التيسـير للنقـل»..كان هو، رأيتـه في حفل الافتتـاح وكان ممثّـلاً لشركـة نقل إقليميّـة، تذكّرته لأنّه سـأل المديـر حينها سـؤالاً مطـوّلاً عن مـدى صلاحيّة نهـر «دجلة» للنقـل بعد عمليـة الكري والتعّميق.

يبدو أنيّ في طريقي للانزلاق إلى دهليز معتم، هل يُريدان اختباري؟ هل هما مبعوثان من قِبَل «الزّهريّ»؟ أو قد يكونان ضابطين وطنيين وصلهما خبر الأموال المدفونة؟ ولكنّ كيف فاتهما خبر « أنوناكي »؟أليس ذلك أهمّ من إشاعة الكنز؟. كلّا، مَنْ يريد كشف صفقة فاسدة، فعليه أنْ يعلن فسادها. لماذا لا يُصارح هذان الزائران رئيس الشّركة بحقيقة العقد؟ لماذا لا يُسربان الخبر للإعلام؟ ولماذا قصداني بالذّات؟ لماذا يحوم الذّباب حولي رغمَ نظافتي؟ ستُجَنِّنُني هذه البلاد كما جنّنت «آبو».

سأطردُهما، وأُخبر «الزّهريّ». السّبيل الوحيدُ للانسحاب من هذه المعركة هو فتح ثغرة عن طريق الهجوم، وبعدَها سيتّضحُ كلُّ شيء.

وقفت ووجهّتُ كلّامي لضيفيّ مُنقِّلاً بصري بينهما مُتعمداً:

ـ لحد الآن يا سادتي، كان الكلّام لكما، أتيتما دون ميعادٍ لموقع شركة أجنبية تمارس عملاً رسمياً وفق القانون. عملاً حسّاساً جدّاً، وبدرجة ما، وجّهتما تهمة الاعتداء على سيادة الدولة، للعاملين بهذه الشركة، ومن هنا يحقُّ لي التحقق من هويتيكما فلربما كان لديَّ ما أودُّ قوله من معلومات، أو إنْ شئتم أسرار.

مدّ «اللواءُ» يدَه لجيبه، واستلَّ بطاقةً مكبوسةً، أخذتها بين أصابعي ثمَّ مددتُ يدي باتّجاه الأصغر طالباً بطاقته، فانهمك بالبحث عنها في جيوبه ولم يوفّقْ في العثور عليها فقال متلعثماً:

ـ ربّما بقيتْ في السّيّارة

دونَ أنْ أعي معنى كلّامي، أجبتهُ:

ـ سيعثرُ عليها رجالُنا إذن.

ربّما يكون هذا التّاجر صاحب شركة النّقل، سمع همساً عن وجود «كنز»، فنسج خطَّته، ليوقّتَ تنفيذها في فترة خلوِّ الشّركة من العاملين.

ما الذي يخسرُه؟ سيكسبُني ويُغريني بحصّة من الغنيمة، وكلُّ شيء سيبقى سرياً فإن وجِدَ الكنز، زاد الرّصيد وإن كان الكنز كذبةً، فسوف لن يقلّل ذلك من الرصيد.

قمتُ فجأة، وأمسكتُ بملفٍ فارغ، كانَ على الطّاولة ثمَّ رفعتُ صوتي بلهجة خطابيّة مُفتعلة:

ـ وهل تعتقدان يا سادتي أنّكما فقط من يعلم أسرار البلاد؟ وهل تظنّان أنّ الدّولة نائمةٌ إلى حدٍّ أنَّ عمليّةً كهذه تمرُّ دون أنْ تنتبه لها؟ . دولٌ كبرى، ومخابراتٌ، وأقمارٌ صناعيّة، ومفتّشون دوليّون، وصلوا غرفَ نوم المسؤولين، وأحصوا حتّى عددَ قدور الطّبخ، تقارير، ملفات، ودراسات، وحسابات بنكيّة كُشفت، صفقات مع مديري بنوك، ورؤساء استخبارات أُبرمت، وسطاء، ومتعاملون، وجواسيس، وخونة أُخذت إفاداتهم، خبراء، ووزراء، ورؤساء دول تداولوا كلّ ما يعرفونه، الدّنيا ليست تائهة.

كانت الضّربةُ صاعقةً، رأيتُ كيف اِصفَّر وجهُ الأصغر وكيف دفنَ الأكبرُ نظرَتَهُ بالأرض مأخوذاً بالمفاجأة. لقد فَجَّرتُ قُنبلتي بالوقت القاتل، لو تركْتُهما يستمران في الكلام، لوصلا حدَّ ابتزازي، أنا المترجم الذي لا حول له، ولطرحوا شروطَهم عليّ، لكنّ الآن، ما الذي سيدور برأسيهما؟ لاشكَّ أنّهما وقعا في المصيدة، تيقنا أنّهما ليسا سوى جزء صغير من كلٍّ، ليس بوسعهما الإحاطة به، أدركا أنّ المترجم يشتغل لجهة أعلى منهما بكثير، هذا هو نسيج الحياة في بلدنا، كلُّ مثلُ العنكبوت ينصب شبكته، وينتظر.

الآن إنهِ الموضوعَ، كفى «صفاء»، أشفقْ عليهما، افتحْ لهما بابَ الهروب، اِفتحْهُ من أجلكَ أيضاً حتّى لا تقعَ أنت بدورك في المأزق، مثَّلتَ فأَجَدْتَّ لكنّ لا تصدّقْ كذبتَك، حذارِ..

وجهّتُ نظرةً ضيّقةً إلى الأكبر:

ـ على كلِّ حال، أنا أُقدّرُ لك حرصَك، فدافعُك كانَ لاشكَّ تنبيهُ مترجم بسيط كما ظننتَه، لما يدور حوله، هدفنا في النّهاية واحد كما أودُّ اقناعَ نفسي، وهو منعُ وقوع الجريمة، والوطن لن ينسى المُخلصين وكذلك لن ينسى اللصّوصَ، سأُوصي الحارسَ بكما، فقد يخبر عنكما بما لايليق.

قلتُ هذا، ووقفتُ مؤذناً بانتهاء المقابلة، نظرا بوجهي بعضهما مُبتسمين بارتباك، وغادرا الغرفة بصمت تاركين كفيّ المودّعة، تسقطُ إلى أسفل.

ما أنْ غادرا غرفتي حتّى اعترتني حالةٌ من الرّعب، والارتباك دفعتني للاتصال بالزّهريّ، ففاجأني الصوت النّسائيّ:

ـ الأستاذ مُجاز في مهمّة خارجَ البلاد لمدّة شهر.

كنتُ مرتبكاً، فزعقتُ مفزوعاً:

ـ شهر؟ من الضّروريّ أنْ يعلمَ إذنْ، أنني اتصلتُ به، الرّجاء تسجيل تأريخ، ووقت اتصالي .

الذي أتذكّرهُ، إحساس عارمٌ ساورني، بأنّني أدخلتُ نفسي في وكر الذّئاب. مددتُ يدي لكورة الزنابير، وضعت قدمي العارية على بيت الأفعى. أيُّ شيطان سكنني لأفعلَ ما فعلتْ؟ ما الذي ألقى بي في هذه اللّجة؟ لعنةٌ كانت تلك الحقيبة؟ كنتُ خائفاً لأني مثّلتُ دورَ المسؤول أمامَ الزّائرين الغامضين مُستمداً قوّتي من علاقتي حديثة العهد بالزّهريّ، فكيف لي بحمايةِ نفسي من دونه؟ مَن يضمن ألّا يتتّبعَ الزّائران خُطاي ثمَّ وبطلقة من مسدس كاتم للصّوت ينتهي كلّ شيء.

في مساء اليوم التّالي لزيارة الضّابطين، بينما أنا أتهادى على شاطئ نهر دجلة سائراً بمحاذاته، قِبالةَ بساتين النّخيل الكثّة، وكأنّها تحرسُ النَّهر، وتحميه بوداعة من لهيب الشّمس، والسّفن الشّراعية تتمايل مع رياح الشمال العذبة، والصبّايا غاسلاتُ الثياب يخضْنَ بماء النَّهر حتّى الرُكَب، وهنَّ يُغنين:

البارحة عندما كنتُ أرقص، وأترنّم بأغنية تحتَ شعاع القمر الهابط من السّماء . .
التقى بي السّيّد، وعانقني.

صحتُ ما هذا يا سيّد؟ دعْني، عليَّ أنْ أعودَ، أيَّ عذرٍ سأختلقُ لأميّ؟

ردّ السّيّد: دعيني أُعلّمك «أنانا» . . يا أمكر النساء! دعيني أعلمك، قولي لها . .
أخذتني صديقتي معها إلى الحديقة العامّة . .

ألهتني الموسيقى، والغناء، غناؤُها العذبُ أمتعني، وفي غمرة البهجة، فاتني الوقت

بهذا العذر واجهي أمّكِ،

بينما نحن نستمتعُ بحبّنا، هنا تحتَ ضوء القمر،

على فراش نظيف، وثير، وناعم . .

كنتُ أعددته لكِ، لأقضي معك وقتاً جميلاً،

في هناء، مرح.

باغتتني صبيّةٌ مَرِحَةٌ فألقتْ على كتفيَّ حفنةً من رمل الشَّاطئ ابتسمتُ لها بلطفٍ بعد أنْ لمعَ بياضُ أسنانها بوجهي، فنسيت حنقي ومسحتُ بقايا الرّمل.

كـم هـي طافحة بالحيـاة أيّـامُ العراقيّين السّـالفة! لا صبايـا يرقصْنَ على الشّـاطئ الآن، كنـتُ أعيـش ما قرأتـه البارحة عـن الحبّ في بـلاد النَّهرين فأنـا مُختـصٌّ بتأريخ حضـارات الرّافديـن ومنصرفٌ لهـذا التّأريخ السّـاحر الموغـل بالعتـق، والمضمّـخ بعبـق الغمـوض، لم يشـغلْني عنـه شـاغل منذ ذلـك اليـوم البعيـد حـين اكتشـفت، ومـن حـدث عارض مـا مَنَـح حياتي التائهـة هدفـاً: أنـا سـليل مجتمـع وحضـارات عريقـة أرادت أنْ تبنـي عالماً مُسـالماً عـادلاً، وجدتُ لحيـاتي معنىً بعـد أنْ اكتشـفتُ التاريـخَ، فأضحى مُلهمـي. هـو التأريـخ الـذي أعـاد إلى عينـيَّ الحبـال الخفيّـة التـي تربـط وجـودي بوجـود الأسـلاف العِظـام، وخلـق لي من جديـد مُـبرراً لمواصلة الحيـاة برغبـة. أردتُ تطهـير نفـسي فوضعـتُ لها غايـة، هي الإتيـان بعمل عظيـم يجعلنـي بطـلاً تاريخيـاً أُسـوةً بالذيـن يملـؤون بطـون الكتـب منـذ آلاف السـنين. أريـد في أخـر لحظـاتي أنْ أنظـر للمودّعـين حـولي باعتـداد، وأحـشرج أخـر جُمَـلي مثلَ أبطـال الأفـلام الكلّاسـيكيّة:

«لابـأسَ، لاتحزنـوا، لقد عشـتُ حيـاةً، لم أنـدم على عيشـها، وحاولتُ أنْ أتـرك بعـدي أثراً، لم تكن حيـاتي زحفاً بطيئاً مُستسـلماً باتّجـاه الموت، بل كانـت استبسـالاً من أجل هـدف عظيم».

لكـنّ الأحـلامَ العظيمـة لاتـدوم إلّا لحظـاتٍ، فرغـم عـودة الوفـاق بينـي والحيـاة، واتّفاقنـا على مواصلـة المسـيرة دون احتجاجـات وهزّاتٍ، بَقيـت حيـاتي تـدور حـول نفسـها وسـطَ عتمـة مملّـة. لقـد وجـدتُ معنىً لحيـاتي ضمـنَ المجموع، ضمـنَ الماضي والحاضر والمسـتقبل الـذي يوحّدُنا كشـعبٍ لكنّنـي كنـتُ أُحـسُّ بالعجـز، فنحـنُ لا نتمكّـنُ لـلآن مـن تجاوز نهايتنـا العظمـى. ربّـما لأنّنـا لم نعـرفْ لـلآن كيـف تسـلَّقنا من القـاع حتّى وصلنـا إلى القمـة. ربّما لأنّنا لم نسـتطلع الـدّرب الذي أفضى بنـا لبلوغها.. أو لأنّنـا لم نتـوازنْ، ونحـن في الأعالي، كُنّا قلقـين، فخلخلـتْ وجودَنا أوّلُ

عاصفة مـرتْ بنـا فألقتنـا أرضـاً. لم ننتبـه ربّـما إلى المناطـق الرخـوة. كنتُ أنطلـق مـن فكـرة أنْ التاريـخ العظيـم لايُوهب إلا لشـعب عظيـم، الخطر الدّاهـم هـو حـين يتعثّرُ حـاضرُ هذا الشّـعب، فيقعـي تاريخُه عليـه، وبقدر مـا يكون هـذا التّاريـخ عظيماً، وكبـيراً، ومكلّـلاً بالمبهر، والفريد، سـيكون ثقلـه خانقاً..وهـا هـو تاريخُنـا يُثقـل خطواتِنـا، والمسـافة التـي تفصلنـا عنـه تـزداد حتّـى بتنـا نشـعُر بغربتنـا عنـه. كانـت الآلهـة عـلى حـقٍّ عندما حاصرتنـي في كابـوس المتحف.

كانـتِ المصابيحُ الشمسـية تسـكب ضـوءاً واهنـاً على تـلال الطّين التي خلفتهـا مكائن الحفـر فبدت مكاناً مثاليـاً لاختباء الأشـباح والجنيات، وفي الهزيـع ماقبـل الأخـير مـن اللّيل تبـدت خيـالات المكائـن والرافعـات كما لـو أنّهـا ديناصـورات هائلة خرجت مـن أعماق المـاء. فتحتُ باب السّـياج الكبـير ببطاقتـي الالكترونية وأكملتُ سـيري بمحاذاة الشـاطئ أملأ رئتيّ بضـوع زهور الربيـع البريّـة، والدغل النـدي يُبلل جـواربي. رفعتُ صوتي مترنـماً بأغنيـة بليـدة لم أجـد في رأسي غيرهـا طـرداً للوحشـة وأنـا أجتـاز تِـلالَ الطّـين الأسـود المركونة على ضفّـة النَّهـر. كلُّ ما حولي أسـود. نَقَلتُ خطـاي بتـأنٍّ، وفكّـرتُ بـما ينـامَ تحت المـاء. شيءٌ عـصيٌّ عـلى الوصف أنْ يُجمـعَ ذهـبُ البلاد، ويُخبّـأ في نهرٍ، لايمكنه البوح بما في أحشـائه. ما أشـقى الإنسـان! إذ لم يكتـفِ بدناءتـه فـأشركَ شـيخَ الأنهـار بها رغـماً عنـه! النّهر الـذي لايسـتطيع الاعـتراض، ولا الـصُّراخ بوجـه اللصّـوص! كـم هـو عيـب أنْ يجـوعَ الطّفـلُ! والذّهـب والمرجـانُ ينام تحت مـاء دجلة.

لـديّ أسـبوعان ربيعيّان على الشّـاطئ لن أسـمع خلالهما سـوى صفّارة الحـارس «شـلش» التـي يسـتخدمها للبرهنـة عـلى أنّـه لم ينـمْ، ولـو أردنـا الحقيقـة، فـلا حاجـةَ للشّركـة إلى حـارس، فلا أحد سـيفكر بسرقـة جرّافة تـزن أطنانـاً، أو حفّـارة بطـول عشرين مِـتراً، أو شـبكات تصفيـة الغرين،

أو مجموعة مُتراصّة من ألواح الطّاقة الشّمسية، ولذلك فإن وجود «شلش» زائد، لكنْ أفترضُ أنَّ أحداً ما تسللَّ ليس بقصد السَّرقة بل التخريب. هذا هو التعليل الوحيد لمخاوف «هنري» على آلياته.

كان الحارس «شلش» في تلك اللّحظة جالساً في زاوية المخزن ملتّفاً بمعطفه المطريّ، لكنَّه لم يلحظْ مروري. فاجأته من الخلف:

ـ «ها شلش نمت»؟

فزَّ مذعوراً:

ـ أستاذ «صفاء» كيفَ أنامُ وأنا الحارس؟ لكنّي كنتُ مُنتبهاً إلى الجهة الأخرى..أسمع صوتاً غريباً أشبه بنشيج قويٍّ، يتصاعد متقطّعاً، بدأ بعدَ منتصف اللّيل كأنّما كان ينبعث من بين أكوام الغرين المركونة على الشّاطئ!

ـ أنت المسؤول هنا عن أمن المعدات «شلش»..المدير طلب مني تنبيهك!

أعرفُ أنَّ «شلش» خوّافٌ، يتخيَّل سماعَ أصواتٍ غريبة، هذا الحارس رعديد، تردد قبل أنْ يقبلَ الوظيفة التي حصل عليها بوساطة من جهة عُليا كما قيل وحاول تغييرها إلى مأمور مخزن أو حارس نهاريّ مُدعياً أنّه مصاب بالعشو اللّيلي، وما الدليل على أنّه يحرس ليلاً؟ في العادة يكتفي ببضع صفرات يطلقها من صفّارته بعد إغلاق الباب الرّئيس في حوالي الساعة الواحدة، ثمَّ لاتسمع منه شيئاً.

شعرتُ بالتعب فاستلقيت على السَّرَير ونظرتُ من نافذة الغرفة الواطئة المقابلة للنّهر. كان القمر غريباً، بدا متجعداً مثل متديّن رشف رشفة فودكا بطريق الخطأ بدل الماء، فتقلصت ملامحه وسال الدمع من عينيه. لاح لي القمر ثانيةً على صفحة ماء «دجلة» أكبر من صورته في السّماء وفجأة كأنّما التقط أحدٌ ما صورته من الماء! ضاع منيّ للحظاتٍ

بعـد أنْ حجبـهُ عنـي شيء مـرق بسرعـة. نقلـتُ بـصري لأرى جسـماً مثل كـرة كبـيرة يخطف أمّام عينـي! ياربي! ما هـذا؟ شيء قفز بمحاذاة الشـاطئ متجهـاً لبوابـة المجمّـع! أيُعقـل أنْ تكـون هـذه أشـباح «هنـري»؟ بحثتْ عينـاي في الظَّـلام فرأيت لصق الجدار الحديدي المشـبك كائنـاً يتقافز بذعر باحثـاً عـن منفـذ، وبصعوبة مثـل وحش مُحـاصر، وبعد تـردّد نطَّ ليتسـلَّقَ السّـياج بخراقـة محـاولاً الفـرار، لكنَّـه عـاد سـاقطاً عـلى الأرض. فركـتُ عينـيّ للتأكـد أنـني رأيت شـيئاً فعلاً، هـل هو أحد عـمال المسـطر النائمين عـلى جـرف النَّهر أغـراه الفضـول وخلـو المـكان؟ أم أنّه لصٌّ دخـل مجمّع الشّركـة بطريقـة ما؟ عـاد الكائـن ثانيـة إلى القفز، يروم التشّـبّثَ بالمشـبك الحديـديّ، أردتُ أنْ أصيـح مُنبِّهـاً الحـارسَ « شـلش» غـيرَ أنّـني سـمعته نفسـه يصيح:

ـ قف، قف!

أتذكّـرُ كلّ التفّاصيـل التي سـبقت لحظـة التقائي بالمزعنـف، حتّى أقلّها أهميـة لكـنّ من المسـتحيل عليّ اسـتعادة لحظـات لقائـي به كما كانـت! كلّما حاولـتُ ذلـك، شـعرت بكتلـة ضبـاب، تمـلأ رأسي..أتذكّـر أنّـه باغتنـي بنظـراتٍ ماسـحة خلخلـتْ كيـاني، ومـرّات يُخيّـل إليَّ أنَّ أمـراً آخـر قـد حـدث، كان الطّنـينُ بـأذنيَّ وقتهـا هائـلاً، والخـدر قـد شـلَّ أوصـالي كلّها بعدهـا أحسسـتُ كـما لـو أنّ كائنـاً عملاقـاً قـد اصطـادني وأحكـم إغلاقَ القفـص عليّ. أنا الآن تحـتَ وصاية مخلوقات، هم «أونيـس» وجماعته! إنّهم يسـيطرون عـلى عقـلي الباطن، فكيف سـينجو عقـلي الظّاهر مـن نفوذهم؟ كنـتُ قـد قـرأتُ كثيراً عـن زيـاراتٍ لكائنـاتٍ مجهولـةٍ لـلأرض، حَفِظتُ اسـمها منـذ كنـت في مرحلـة الدراسـة الثانويـة **Unidentified Flying Objects (UFO)**، ولطالمـا تسـاءلتُ مـا الـذي سـأفعله لـو أنـني صادفـتُ فجـأةً أحـدَ هـذه المخلوقـات، يعـترض طريقـي، ويدعـوني للذّهـاب معه إلى الفضـاء الخارجـيّ؟ تذكّـرت الفيلـمَ الـذي رأيته في مراهقتـي عن كائن

الفضـاء (أي تي) الـذي عثر عليـه طفـل في منزلـه، وقتهـا أيضـاً فكّرت لو أننـي مـكان الطفـل كيف كُنـتُ سـأتصرف؟ عندما كـبرت، كبر التسـاؤل معـي، تُـرى لـو أنَّ كائنـاً فضائيـاً، هبـطَ عـلى الأرض نتيجـة خطـأ فني ما والتقـاني صدفـة بمفـردي على أطـراف غابـة، أو في مكان مهجـور وطلب منـيّ كتـمان سر وجـوده عـلى الأرض هـل سـأوافق أم لا؟ هـل سـأنحاز لأخـلاق الإنسـان فأسـاعده وأعده وأفي بوعـدي أم أنحاز لجنس الإنسـان وخـوفي مـن أنْ تكـون للكائـن الفضائـيّ نوايـا عدوانيّـة فأتصـل بأقـرب جهـةٍ أمنيّـة أو علميّـة لأسـجّلَ هـذا اللقـاءَ التأريخـيَّ الفريـد باسـمي؟ هـل للكائنـات غـيرِ الأرضيّـة الأكثـر تطـوّراً منّـا مقياسُ أخـلاق؟ صدق وكـذب؟ خيانـة وإخـلاص، جحـود ووفاء؟لـو طَلـبَ الكائـن الفضائـي مِنـكَ مثـلاً أنْ تُسـاعده، وصارحـك بأنّـه مبعـوث لتفكيـك الأسـلحة النوويـة وأسـلحة الدمـار الشـامل وتخليـص الأرض منهـا، وأراد منـك تسـهيل مهمّتـه،كأنّ تُقـدّم لـه مثـلاً مسـاعدةً أرضيّـةً ممكنـة، وهـو يتكفّلُ بالتّسـلّل إلى مواقـع الأجهـزة، وإبطالها نهائيّاً، هل سـتُنفّذ ذلك بشـعور من يسـاهم بانقـاذ البشريّة مـن خطر مريع، أم سـتتريَثُ لأنَّ مـا يعرضه الكائن الفضائـيُّ عليـك قـد يكـون خدعـة لاستسـلام الكـرة الأرضيّـة لكائنات فضائيّـة مجهولـة المقاصـد بعـد أنْ تفقـدَ القـدرةَ عـلى الدّفاع عن نفسـها؟

لم أتمكّـنْ مـن الاسـتمرار بطـرح الأسـئلة خوفـاً مـن أنْ أجـدَ نفسـي مُصـادراً تمامـاً مـن قبل هـذه السّـمكة ومثيلاتها..فمن يسـتطيعُ ضخّ الحلم لرأسـكَ ليـلاً يمكنـه أنْ يوجّـه كلّ تصرفاتـك نهـاراً... ما هـذه المعضلة؟!

كنـتُ أُفكّر بذلك وأنـا بمواجهة «المزعنـف» وكما لو أنّه قرأ تسـاؤلاتي وقلقي، فقـال مُطمئناً:

ـ لاتشـغلْ بالـك كثـيراً بهـذا الأمـر سـتعرف تفاصيلـه لاحقـاً. ربّـما يمكنـك الشّـعورُ براحـة مبعثُهـا التّميـز والتّفـرد التـي تتمتّـع بهـا والثّقـة

التي جعلتنا نتصّل بك. أنت خائفٌ وغيرُ مصدّق، ولكنْ صدّقني لاداعٍ لكلِّ ذلك. لقد بحثنا عنك طويلاً، فليستْ كلُّ الأدمغة قادرةً على التّجاوب مع الأجهزة التي ستنقل لك حياة المائيّين. الآن لابدَّ لي من العودة بعدَ أنْ اتصلتُ بِك، رغم كلِّ ماتَحَمَّلتهُ في هذه الرّحلة القاسية، أنا الآن سعيدٌ. سأراك مساءَ الغد هناك قبلَ الحاجز، خارجَ المجمّع تحتَ سعفِ تلك النّخلةِ المنحنيةِ، هل يناسبُك هذا الميقات؟

عاد لي بعضُ الهدوء رغمَ التباس الجُمَلْ التي تفوّه بها المزعنفُ.

لقد ضرب القدرُ ضربته واصطادني «أونيس»! ربّما يكون هذا المخلوق غوّاصاً يتحدّثُ عن كنز يستقرُّ في قاع «دجلة»، والذي سمعت بوجوده قبل أيام، أيمكنُ أنْ يكونَ على موعد مع الأمريكان الذين غزوا البلاد ولم يلتقِهم بسبب خلل في نظام الاتصالات؟ حكايته لايصدّقُها العقلُ..

عاد يتحدّثُ عن فكرة مرافقته للقاع، فارتجفتُ من هولها، وقد تبدّى لي قاعُ النَّهر مخيفاً، فصحتُ:

ـ لكنْ كيفَ سأغطُس، وأنا لم أجربْ معدّات الغطس من قبلُ؟ ما أُجيدهُ السّباحةَ لمسافاتٍ قصيرة، ولاخبرةَ لي بالغوص!

ـ لن تحتاجَ لشيء، كلُّ ما يلزمُك سيكونُ جاهزاً، وأكرّرُ لك: أنت حرٌّ في إتّخاذ القرار. عليكَ أنْ تعرفَ أنّنا اخترناك لأداء مهمّة فريدة من نوعها، لكنّنا لا نُجبرُك على قبولها.

أَأَرفضُ؟!... هذا المستحيلُ عينُهُ. إنّي مُسيّر، وغيرُ مخيّر، رفضي لدعوة «المزعنف» ستعني تصفيتي بسرعة وهدوء، لكنْ ما ضمانات سكوتي حتّى بعد أنْ تتمَّ المهمة؟ كيف يتأكّدُ «المزعنفون» أنّني سألتزم بعهدي معهم؟ الجواب: هو أنّني وقعتُ ضمن مجال المراقبة. كلُّ أفعالي مكشوفة ابتداءً

مـن هـذه السّـاعة. أجبتـهُ محاولاً شـحنَ مفـرداتي بقدرٍ مـن الثّقـة بالنّفس:

ـ عـلى كلِّ حـال، سـأُخفي الأمـرَ عـن الجميـع، وأحاولُ حملَ «شـلش» عـلى نسـيان الواقعـة كلّهـا. سـأقول لـه: عـذراً منـك إنَّـك مسـكينٌ مختلُّ العقـلِ، وقـد أطلقتُ سراحـك، وسـنلتقي، اتّفقنـا. سـأخرجُ الآن اتبعني أنـت وعـدْ بسرعـة إلى الماء، ولا تـردَّ على أحـدٍ إنْ رآك صدفـةً. الموقع خالٍ تمامـاً، لا تقلـقْ، الحـارسُ يقفُ قـربَ البوّابـة في الجهـة الأخرى..

مـرة أخـرى، وأنـا أرافقه إلى النّهر شـعرتُ بالـدّوار والإثارة الشّـديدة، مـا معنى ذلك؟ مـن أين أتى هذا المخلـوقُ الغريب؟ هل يعيـش الأنوناكي في المـاء؟ قصّـةٌ تحاكـي الخيـال، بـل أكثـر غرابـةً منـه. كلُّ أعصـابي بـدأت تئـنُّ، أنـا واثـقٌ أنّه ما مـن أحد سـيُصدّقُ قصّتـي عندمـا سـأقول: إنَّ كائنـاً برمائيّـاً عاقـلاً مـن أعـماق النّهـر قـد حمـل إليَّ رسـالةً، أم تُراني سـأصحبُ «أونيس» معـي، وأعرضُـه عليهـم بزعانفـه، وجلـده الحرشـفي؟! لا، سـيضحكون منّـي ومنه ويضربونَـه بالحجـارة كمجنون وربّـما يحجزونه في مستشـفى الأمـراض العقليّـة، أو سـيأخذونَهُ للمتحف، يسـترزقون به، أو يقتلونـه باعتبـاره مخلوقـاً مشـوّهاً وشـارة شـؤم بعثَهـا الله.. هـل يُعقـل أنْ يكـونَ «المزعنـفُ» كائنـاً غـيرَ مُكتشـفٍ بعـد؟ كائنـاً يمكنـه العيـشُ بالمـاء والـبرّ مثـلَ السـلحفاة؟ لماذا لا يمكـنُ؟ هـل أنَّ الضّفدعةَ أفضـلُ منه؟ غير أنْ الضّفدعـةَ لا تتكلّـمُ والسـلحفاة لا تفكّـر. لا يمكـنُ أنْ يصـدّقَ قصّتَـه بـشرٌ، لا يهـمُّ، فالبـشر لم يعرفـوا كلَّ شيء، مـن كان يتصـوّر قبلَ مئتي سـنة أنَّ سـفينةً تحمـلُ مئـاتِ البشر، وأمتعتَهـم وغذاءَهم، وتطير بهـم في الأعالي مثـلَ الطّـير وأعـلى بكثـير؟ أو أنّ علبـة صغـيرةً سـتخبرك خـلال لحظـات عـمّا يـدور في العـالم، وأينَ يسـقط المطر هـذه اللّيلـة بل وترى على شاشـتها خالتـك وهـي منشـغلة بالطبـخ على مسـافة عامـين بمقياس رحـلات ابن بطوطة؟!

سؤال مُلحٌّ، ما مدى ثقتي بهذا «المزعنف» كي أُرافقَه في رحلة خطرة تحت الماء، لا أعلم كيف سأعود منها؟ اِفترضْ مثلاً أنّهم احتجزوني هناك، ولم يسمحوا لي بالعودة، أو أنَّ لهم ثأراً قديماً مع أحد أهل الأرض، أو ربّما احتاجوا واحداً من البشر لإجراء تجارب علميّة عليه، هذا ممكن، لكنّني في قرارة نفسي، هناك في العمق حيث تتشكّلُ مشاعرُ الثّقة، والشّك، هناك وجدتُ الإجابة:

«المزعنفُ» هو الإجابة عن كلِّ تساؤلاتي الحياتيّة. ألم أشكَّ بأنَّ تحتَ عالمنا الذي نراه يختفي عالمٌ غيرُ مرئيّ؟ وأنَّ مُدناً كاملةً يطمرها تراب النّسيان؟ ألم أُجادلْ أساتذتي بذلك؟ إذنْ هذا «المزعنف» صدفةٌ نادرة حدثَتْ معي، قدرٌ حطَّ على رأسي، طيرُ سعد حامَ ووجد له عشّاً مؤقّتاً على الأرض، هل سأرفضه، وهو يريد أنْ يُطلعني على السّر؟.

في صباح اليوم التّالي وقبل أنْ يستيقظَ «شلش» وضعتُ له ورقةً على الباب، أُبلّغُه فيها بمَنحه إجازةً لأسبوعين، لاشكَّ أنّهُ سيُسرُّ بهذه المكرمة، وحتّى أزيدَ في تطمينه كتبتُ له أنَّ النّشيجَ الذي كان يسمعهُ آتياً من جرف النَّهر هو صوتُ جهاز ضخِّ مياهٍ، تُركَ مفتوحاً، لم أذكرْ له شيئاً عن «المزعنف» ومصيرِه، حتَّى ولا كلمة واحدة، لكنّني كتبت في المقدّمة أنّني «أجريتُ اللّازم»، الآن تخلّصتُ منه وصفا لي الجوُّ. قبلَ الغروب بأكثرَ من ساعةٍ قصدتُ مكانَ اللّقاء المتّفق عليه. نظرتُ برهبة إلى النّخلة المعقوفة التي بدتْ من بعيد كعجوزٍ متعبة، انحنتْ لنزع شوكة من إحدى أقدامها، وما أنْ سقطتِ الشَّمسُ وراءَ النَّهر حتّى بدأت أوصالي بالارتجاف رهبةً مما أنا مُقدمٌ عليه، كان قد تمكّنَ منيّ الانفعالُ، فهل كان ما رأيته وهماً، أم حقيقة؟ ثمَّ هل سيأتي «المزعنف» كما وعدني؟

لحظاتٌ، وشعرتُ بدوار يزحف تدريجيّاً باتّجاه رأسي، ثمَّ تصاعد من ماء النَّهر نشيجٌ حارٌّ بدا مُنخفضاً أوَّلَ الأمر ثمَّ ارتفعَ. زاد خوفي، ربّما

سيأتي مع قوّة مائية! كانَ « شلش » مُحقّاً إذنْ، لم يكنْ ما سمعهُ أوهامَ الخائف التـي تطـنُّ بأذنيه عندما يكون وحـدَهُ، كلّا هـذا كان «المزعنف»، الذي كان آنـذاك يسـتعدُّ لمغـادرة المـاء بحثـاً عني. كُشـفَ الـسّرُّ، تلك هـي الكائنات التـي تـمَّ رصدُهـا وهي تزحـفُ على امتداد شـاطئ النَّهـر، سـأراها اليوم!

حـشرتُ نفسـي أكثـرَ تحـتَ سـعفِ النّخلـة المنحنيـة، وعـاد صـوت النّشـيج المتصاعـد للطّنـين في أذنيَّ مثـلَ صـوتِ السّـيارة التـي كانت ترشُّ النّفـط الأسـودَ في درب حارتنـا، إلى حـدٍّ أصابني بالدّوار، فأعشـت عيناي برهـةً ثمَّ انفتح الضّـوء أمّامي. التفـتُّ، فواجهني «المزعنفُ» مبتسـماً، وهو بوضـع عجيـب. سـمكة هائلـة تقـفُ منحنيـةً على ذيلهـا. ذلك مـا رأيت! مـرّت لحظـاتُ صمتٍ، لم يجرؤْ أحد على كسرهـا، وفي الظّلام الـذي اِلتَهَمَ الآفـاقَ ببـطء، همس لي ضيفـي بصوت مُـشرّب بالرّطوبة، ورائحة أحشـاء النَّهـر تفرُّ من خياشـيمه:

ـ أُبلِّغُـك تحيّـات رعايـا «إنكـي»، وامتنانهم لحسـن اسـتقبالي، وتفهّمك لمهمتـي! بصفتـك المختـصّ بالتأريـخ الرّافدينـي القديـم، سـتجد صعوبةً بتقبّـل بعض ما ستسـمعه، وسـيكون الكثير الآخـرُ صادماً، فهـو يتعارض مـع مـا تعلَّمتَـهُ ولربّـما أمكنـكَ موافقتـي البعـض القليـل... هـل يمكننـا الـكلّام هنـا دونَ خشـيةٍ مِنْ تطفّـلِ أحد؟

تحسّسـتُ جسـمي، ومـددتُ كفّـي إلى وجهـي، كـي أتأكّدَ مـن أنّني لا أرى حلـماً، فانتبـه كائـنُ المـاء إلى حركتـي وقال:

ـ ستزولُ دهشتُكَ بعد أنْ ترى كلّ شيء بعينيك..

أجبتُ متلعثماً:

ـ نعـم، لاشـكَّ، أنـا مضطـربٌ قليـلاً، ولكـنْ لا تخـشَ أحـداً، الموقع خـالٍ تمامـاً، حتّـى الحـارسُ صرفتُـهُ إلى بيته، يُمكننـا الجلـوس في غرفتي..

ـ كلّا لـو سـمحت، لا أحـبُّ الغـرفَ، وجدرانَهـا، البـابُ الوحيـد في غرفـة يُشـعرني بأنّنـي داخـلَ سـجن. لا أعـرفُ كيـف تُطيقـون العيـش في الغـرف! دْعنـا نبقـى تحـتَ النّخلـة، قـربَ الماء.

مَسَّدْتُ وجهي بقوّة، وفركتُ عينيّ ثانيةً ثمَّ قلت:

ـ أتعلـمْ أنني لحـدِّ الآن لم أصدقْ وجـودك وكأنّني في حلـم؟ تُرى كيف أُنهي شـكوكي أنَّك لسـتَ وهماً؟

رَبَّـت «المزعـنـفُ» عـلى كتفي بحركـةٍ أفزعتْنـي، كانَ مثلَ سـمكة، تَلْبُط في الهواء:

ـ الشّـكوكُ يقطعُها ما سـتعرفه، عندما تعرفُ ما لايعرفه غيرُك سـتتأكّدُ أنّـكَ قابلـتَ مَـنْ لم يقابلْه غيرُك وأنّني لسـتُ وَهماً. أعرفُ أنَّك ستسـمعُ ما لم تتوقـعْ سـماعَهُ، لذلـك سـأتكلّمُ بتكثيف بما يكفـي لتعـرف العموميات. سـأُعرفك عـلى الإطـار العـام، لأنَّ ما يعيش داخـل هذا الإطـار لا يكفيك لمعرفتـه مائة مسـاء ولا حتّـى ألف. ربّما تمكـن فضولك من اسـتنطاقي وأنا مسـتعدٌّ حسـبما يسـمحُ به الوقت، لكنّ عليـك تذكُّر حقيقـة محدودية وقتنا معاً! هـل أنت مسـتعدٌّ للرّحيل؟.

أجبتُ وقلبي يدقُّ بعنف:

ـ نعم مستعدٌّ، ولكنْ لديَّ بعض الأسئلة لو سمحت..

حاولـتُ الزّحـفَ ببـطءٍ باتّجاه الـسّرَّ المخّبأ لـدى «المزعنف» عـن القاع فسـألتهُ بحذر:

ـ قُلـتَ أنْ الغريـن والطمـي ليسـا السّـبب في سـدِّ مجرى النَّهريـن، بل هنـاك سـبب آخـر، لا يتحـدّث عنـه أحـدٌ، ما هـو هذا السّـبب؟

رفعَ «المزعنف» رأسَهُ، وقهقه كمن سمعَ طرفة:

ـ إنّـكَ تسـتعجلُ الأمـورَ، نعم هذا هـو محتوى رسـالتي، أُريـدُ تبليغَك أنْ النَّهريـن ضاقـا بنـا، و أنْ الغريـن والطّمـي ليسـا السـبب في سـدِّ مجرى النَّهريـن بـل هناك سـببٌ آخـر لا يتحدّث عنه أحـد وهذا هو أحدُ أسـباب اسـتدعائك لعالم المـاء. إنّهم يدّعـون تنظيفَ النَّهـر، ربّما لـكلٍّ منهم غرضٌ في نفسـه، سـترى مـا حدّثتُـك عنـه بعينيـك. سـترافقني كـي أُطلِعَـك على أسرارٍ لايعرفهـا أحـدٌ ولكنّنـا قبلَهـا سـنتفقُ عـلى مـا لـك حـقُّ التّحـدث بـه، ونـشره ومـا يتوجّـبُ أنْ يبقـى سرّاً بيننـا. أنـت المخلـوقُ الوحيـد على الأرض الذي سـينقل لسـكّانها حيـاةَ القاع، أنـت الوحيدُ الذي سيكشـف مـا أخفـاه الماء مـن الأسرار التـي لم يُبَـحْ بها لأحـد، النَّهر الـذي عاش على مائـهِ الملايـين عـبر آلاف السّـنين دون أنْ يهتـمَّ بـه أحـدٌ أو يتوقّـف قليـلاً ليُلقـي عليـه التّحيـة ويسـألَه عـن حاله. سـتعرف الكثـيرَ، ولكـنَّ ذلك لن يتـمَّ دون تعهّـدٍ منـك...، اتفقنا؟

«المزعنـفُ» محقٌّ، الآن، انحـسرَ المـاء وكان انحسـارهُ وضيـقُ مجراه يُفزعنـي. كُنـتُ أبكـي، فأنـا لم أحـبَّ خلال حيـاتي كلّها شـيئاً كـما أحببت «دجلـة» و «الفرات». لم يعـش النَّهران في ذاكرتي ووجـداني كمصدر مائيٍّ محـض، بـل رأيتُ فيهـما أوّلَ الخلـق، ومكمـن الأسرار، ومهدَ الأسـطورة. كان دجلـةُ بالـذات ملهمـي، شريـكَ طفولتـي وكاتـمَ أسرارهـا، لم أشـأ تصديـقَ عيني عندمـا ظهـرت الجُـزرُ في منتصفـه بغتـةً مثـلَ جثّـة لكائـن إسـطوريٍّ غريـق شربَ مـاءَ النَّهـر، فانتفـخ. كنـت أنظـرُ لمائـه المنسـابِ بضعـف وبـطء يشـبهُ الرّكـود، وأرى النّـوارس تلعبُ بخـوفٍ واضطراب فـوقَ صفحتـه الحزينـة، كأنّهـا خائفـةٌ مـن أنْ تـأتي ذاتَ صبـاحٍ ولا تجـدَهُ، وأرى حشـائشَ جرفـه تجـفُّ وطينَـهُ يتـآكلُ ويتشـقّقُ ويتفتَّـتُ، ولا أحـد يكـترثُ... الحمقـى يرونه متقلّـبَ المزاج فهو مرّةً يشـحُّ وأخـرى يفيض.. هكـذا هـو دائـماً دجلـة كـما يدعّـون، لا يتذكـرون إلّا هيجانَهُ وهـو يفيض

ويدمّـرُ ولم يفكّـروا يومـاً أن الموجـوعَ لايملـك إنْ أمض به الوجـعُ إلّا أنْ يتلـوّى. أنـا لا أرى مايرونَه، فقط أشـعرُ بـه، فمرضه هذه المـرة مخيف. لقد كان حظـه سـيئاً فانحـدر في بـلاد تتسـلى بالموت..

أعادني صوت « المزعنف»:

ـ لاشكَّ أنَّك رأيت هذا الرسم القديم؟

وكشـف عن وشـم عـلى باطـنِ ذراعه يُصـور غواصاً يسـبحُ تحتَ الماء مع الأسـماك، ثـمَّ واصَل:

ـ في مرحلتـك هـذه تحتـاج للـوازم الغـوص كـما احتاج لها أسـلافي قبل أنْ تكيّفهـم الطبيعـة لحياة المـاء. كلّها موجـودة لديَّ، سـيحتاج الأمر منك إلى مِـرانٍ في التنفس وقليـل مـن التعـود عـلى تحمـل ضغـط الماء..سـنبدأ وننطلـق مـن تحت سـعف هـذه النّخلة..

أردتُ السّـؤالَ عـما يتوجّب عـليّ حملُه من طعـامٍ، أو احتياجاتٍ خاصة، لكنّني خجلتُ من طرح السّؤال فسـألت:

ـ كم من الوقت سنبقى هناك؟

ـ لديَّـك إجـازةٌ كما نعـرف، فأنت غيرُ مُلـزم بوقت عمل هنا. لا تشـغل نفسَـك ولا تفكّـر بـشيء آخـر غـير التّركيـز ومحاولـة تذكّـر التّفاصيـل.. سـتعود في أيِّ وقت شـئت. عندما تؤوبُ إلى اليابسـةُ فرّغْ مخـزونَ ذاكرتك عـلى الورق..الليلة سـوف تنشـغل بقـراءة لوحـة التّعليمات، وسـأراك هنا غداً.

وسـلّمني كيسـاً رقيقـاً قـال إنّـه يناسـب مقاسـاتي تمامـاً، ما عليّ سـوى نفخـه أوّلاً ثـمَّ ارتدائِـهِ بعـد تفريغـه مـن الهـواء، لكنّـه أوصـاني أنْ أجربه فقـط، ثـمَّ أجلبـه معـي ظُهـرَ الغـد لكـي يـشرف هـو عـلى العمليّة.

عـدتُ من اللّقـاء أكثرَ اضطرابـاً. المزعنف يعرفُ عنّـي كلَّ شيء! وقّت زيارتـه في بدايـة عطلتـي الرّبيعيـة كـي يستغلّها في مـشروع رحلـة القـاع العجيبـة. نمـتُ مـن ليلي سـاعتين لا أكثـر ونهضـت في الثالثة. مـا زلتُ في شـكٍّ مـن أمـري، وأمر المزعنـف، هل حـدث ماحـدث وسـلّمني ملابسَ الغـوص، أم أنّـه كان حلـماً؟ مـددتُ يدي تحت وسـادتي فوجـدت الكيس الرّقيـق الـذي أوصـاني بالتّدرب على ارتدائـه. «المزعنـف» حقيقةٌ لا حلم! اغتسـلتُ ثـمَّ قـرأتُ التّعاليمات وتدربتُ عـلى الكثير من المفـردات الصعبة حتّـى اقتربت السـاعة مـن الثامنـة فأقفلـتُ الغرفـةَ وخطوتُ بهـدوءٍ وثقة ناحيـةَ الشّـاطئ، حيث النخلـة المنحنية.

كان المـكانُ خاليـاً تمامـاً وموحشـاً بعـض الشّيء، ربـما لارتباطـة بغرابة ماسـأُقدم عليـه، ولكـي أتحايـل عـلى الوقـت وأُخلّد ذكـرى الواقعـة التي جمعتنـي بالمزعنـف وأذكّـر نفـسي فيما بعـد أنني كنـتُ ذاهباً برحلـة خاصة، نقشـت على كربـة النخلـة عبارة:

رحلة الربيع إلى الأعماق. .

سأعود لهذه الذكرى المحفورة كي أتيقَّنَ أنّني كتبتُها بنفسي.

بغتـةً، اهتـزَّتْ ميـاهُ الشّـاطئ مقابـلي، وتصاعـدت وشوشـةٌ وضجيج يصعـبُ عـليّ وصفَـه لكنَّه يقتربُ مـن صوت طائـرة حربية سريعـة ثمَّ...! لم أشـعر إلّا والمزعنـفُ ينقـرُ على كتفـي الأيسر.

اسـتغرقَ الأمـرُ منّـي قرابةَ نصـف دقيقة كـي أتبـيّنَ ملامحَه التـي بقيت تتراقـصُ أمّـامَ عينيَّ.

ـ صوتُ قدومك يشبهُ صوت طائرة حربيّة مُغيرة!

ـ طائـرة؟ قبـلَ كلِّ شيء، لابـدَّ أنْ تعـرف أنّنـا مسـالمون، ليـس لديَّنـا

أسـلحة، قنابـل وطائـرات وراجمـات لكـي نحـارب الآخريـن، ولكننـا نملـك منظومـة دفـاع تحمينـا.

ـ كيف تملكون منظومة دفاع دون أسلحة؟

ـ الآن، اسـمع ياصاحبـي! أعـرف صعوبـة مـا أُريـدكَ أنْ تفهمـه لكنّي أثـق بآهليتـك، أنـت الـذي كُنـتَ تجـادل أسـاتذتك فيـما يُعقـل، و«مـا لا يُعقـل» أمـس هـو حقيقةُ اليـوم والكثير ممـا تعتـبره غريباً و«مـا لايعقل»، سـترى أنّـه قـد تحقـق اليـوم. سـتتأكّدُ مـن جـدوى دفاعنـا، تعـالَ، انهضْ وانظـرْ هنـاك، هـل تـرى هـذا الـزَّورق الأزرق المضـاء في الماء؟

فالتفتُ مُباغتاً مُستفهماً:

ـ زورق؟ أين؟ لا أرى شيئاً هناك!

قلتُ ذلك وأنا أُديرُ وجهي له، لكنّي لم أجدْ أحداً معي!

ـ سيّد «أونيس»!

صحـتُ مذهـولاً عندما وجـدتُ نفسي وحيداً، اسـتدرتُ على محوري، أزحْـتُ سـعفات النّخلةِ، ووقفتُ عـلى طول قامتي:

ـ «سيّد أونيس»!

كـررتُ صيحتـي المخنوقة بفـزع، لا أحـدَ! ما الأمر؟ هـل جننتُ؟ هل كنـتُ أُكلّـم نفـسي؟ «المزعنـف» كانَ هنـا، قبل لحظـاتٍ كان هنـا يكلّمني، شـعرت بيبـاسٍ يجفّـفُ بلعومـي، لا بـدَّ أننـي فقـدْتُ عقـلي. أحسسْـتُ بخـوف مفاجـئ، مـن نفسي ومـن المكان، لطالمـا شـككتُ بـأني كنت في حلـم، لابـدَّ مـن مغادرة هـذا المـكان حـالاً، ركضتُ ويـداي ترتجفـان ولم أكـدْ أصـلُ بـابَ غرفتـي حتّـى أحسسـتُ بخدر قـويٍّ شـلَّ أعضائـي، ثـمَّ بنقـرة عـلى كتفـي الأيسر، كادت تُجمّـد الـدمَّ بعروقي:

ـ أرأيتَ كيفَ أنكَ لم ترني؟

كانَ «المزعنف» يقف خلفي، وابتسامةٌ واثقةٌ تمتدُّ على عرضِ وجههِ، والعجيب أنّني وجدتُ نفسي في مكاني الذي كُنّا به، وليس أمّامَ باب شقّتي!
صِحْتُ:

ـ كيف اختفيتَ، وأين؟ كِدْتُ أُجنُّ! كأنني كنتُ أتحدّثُ مع نفسي!

ـ لم أختفِ، أنت لم ترَني، ألمْ تقلْ لا دفاعَ دون أسلحة؟ هذا هو الدّفاع السّلمي، غير المسلّح الذي حدثتُك عنه، وهذا أحد أشكال الدّفاع، كما رأيتَ قبل قليل، أو كما (لم ترَ) قبل قليل!

قهقه «المزعنف» فضحكْتُ وتمتمْتُ:

قصّةٌ أغربُ من سابقتها، سمكةٌ تُجيد النّكته!

عادَ لحديثهِ:

ـ الشّيء الذي لاتراهُ لايعني أنّهُ غيرُ موجود. تصوّرْ أنّك جالسٌ في مكانٍ، وأنا مُقابلك يفصلكَ عنّي لوحُ زجاج نظيف، لا تعلمُ أنّه موجود. هناك ثلاثةُ موجوداتٍ أنت لاتراها: الهواء الذي بينك والزّجاج، الزّجاج نفسه، ثمَّ الهواء الذي بيني وبين الزّجاج. أنت لا تراها لأنّها شفّافة، ما معنى شفّافة؟ المسافةُ بينَ ذرّات الهواء أكبرُ من طول الموجة الضّوئية فتمرُّ الموجةُ من خلاله، بلّورات الزجّاج مبعثرةٌ بحيث تمرُّ منها الموجةُ أيضاً.

لوهلةٍ، ظننتُ أنّ «المزعنف» ساحرٌ وأنّه يمكنُ أنْ يُفشيَ لي بالسّرَّ. هذه السّمكة تتحدّثُ بالفيزياء! فتساءلتُ بسذاجةٍ، واندفاعٍ ندمتُ عليهما بعد لحظات:

ـ وكيف أفعلُ ذلك، أنْ أكون شفّافاً، هل لك أنْ تدلّني؟

ـ إذا أردتَ ألّا يراكَ أحدٌ عليك أنْ تُغيّرَ المسافةَ بينَ ذرّاتك! بَخِّرْ نفسَك، أو سخّنْها في قِدْرٍ حتّى الغليان واسكبْها على لوح لتتشكّلَ منك بلوراتٌ مِثلُ الزّجاج!

للمّرة الثّانية صِرتُ مثار سخرية ضيفي الغريب. «المزعنف»، يسخر منّي، يضحكُ من تخلّفي! لم أتمكن من إخفاء خجلي فأردتُ تصحيح جملتي لكنّ مُحاوري أدركَ حساسية الموقف، فعادَ يقول مُتودّداً وهو يبتسمُ:

ـ ستصنعون ذلك، ستتوصلون لما عجزتم عن التوصل إليه حتّى الآن، لكنّ الأهمَّ من كلّ ذلك أنْ تستمرَّ حياتكم على الأرض، فوجودكم كلُّه مهددٌ. استمرار الحياة يعني أنْ الاكتشاف والاختراع لن يتوقفا. الكرافين، Graphene الذي سيصنعُه «كايم» و«نوفوسيلوف» عندكم (هو بالمناسبة من ثمار أولى الثورات التكنولوجية عندنا أيِّ قبلَ ألفي سنة) هذا أيضاً أُسلوبٌ دفاعيٌّ لامرئيٌّ، تَرى الشخص أمّامك يستهزئ بك، تثأرُ لكرامتك فتوجّه له لكمةً على فكّهُ الأيمن فتحسُّ لهباً يسري في ذراعك كلّها، لقد كسرتّ يدَكَ دونَ أنْ تؤذي خصمك! ترتدي معطف «كرافين» فلا يمكن لأيّة رصاصة أنْ تمسَّكَ بسوء! «كرافين»، كما تعلم، هي قشرة «كرافيت»، مادة لامرئية ثنائية الأبعاد، لا سُمْكَ لها أبداً لكنّها أصلبُ مئةَ مرة من الفولاذ! حتّى تتخيّلَ سماكتَها عليكَ أن تُدرك أنَّ المليمترَ الواحدَ من «الكرافيت» يحوي ثلاثةَ ملايين طبقة «كرافين».

ها هو « المزعنف» يتحدّثُ عن مستقبلنا! يقول: إنَّ «كرافين» «سيُصنع»! أطرقتُ قليلاً ورغبةٌ تراودني في سؤال «أونيس» ثانيةً عن صلته بالسّفارة الأمريكيّة، لكنَّه حدسَ على ما يبدو جهلي بالموضوع فعادَ موضحاً:

ـ «كرافين» مادّةٌ ثُنائيّةُ الأبعاد مُستحدّثة من ذرّة كربون ترتبط مع ثلاث ذرات كربون أخرى مُشكّلةً ما يُشبهُ خليةَ النّحل، ويبقى ألكترون من كلّ ذرّة حُرّاً، النتيجةُ مادّةٌ ببعدين، لا تُرى، صلبة جداً وموصلة للكهرباء والحرارة بشكلٍ استثنائي.

رفعتُ بصري مُتسائلاً محاولاً الوصولَ إلى غايتي بسؤالٍ التفافيّ:

ـ أتعرفُ كم أنتَ ثمينٌ على الأرض؟ سيدفعون لك ملايينَ الدوّلارات لقاءَ خدمةٍ منكَ لاتتعدّى دقائقَ!

ـ وما الذي سأفعله؟ أسطو على بنك مانهاتن؟ لامعنى ولا قيمةَ للمال عندنا.

ـ كلّا، تدخلَ غُرفةَ الرّئيس الرّوسي فتنجز مهمّتَك دون أنْ يراكَ أحدٌ فتدفعُ لك أمريكا ثروةً، أو تدخل غرفة الرئيس الأميركيّ، فتدفعُ لك روسيا أكثرَ منها، أو تتسلّل إلى حيث ينام رئيس كوريا، فيدفع لك..

ـ ذلك ما لا يمكنُ لي فعلَهُ، الأخلاقُ هي الضّابط والرّكيزةُ للعلم عندنا، لا العكس!

ـ ولكنْ لكي تحمي الأخلاقَ عليكَ أحياناً أنْ تستغلَّ العِلمَّ حتّى ولو بالطّريقة التي ذكرتها، عموماً، أنا لا أحثُّكَ على فعل ذلك، أنا أُحذِّرُكَ من الوقوع بأيديهم..

قلتُ ذلكَ مُنتظراً أنْ يُبدي «المزعنف» ما يكشفُ حقيقة الإشاعات التي سمعتُها.

ـ لا منطقَ يجمعُ عالمينا، لنا قيمُنا الخاصة التي لا يفهمُها أهل اليابسة، وبالعكس، ثمَّ لا أحدَ غيرُك يعلمُ بوجودي هنا، بل بوجودي أصلاً.

فجأةً سألتُ نفسي: لماذا لم يستخدمُ «أونيس» إذنْ، هذا السّلاح عندما وقعَ بيد «شلش» ؟ لقد تحوّلَ إلى مايشبهُ الخروفَ الأبلهَ، أيمكنُ أنَّ نِظاماً ما قد تعطّل فجأة، فلم يتمكَّنْ من التواري، أم أنّه تقصَّدَ ادعاءَ البَلَهَ كي يصلَ لي وتعمدَّ التمّثيل أمّام «شلش»؟ كلّا، لايمكن أنْ يُخاطر بذلك، كان مُرتبكاً كمنْ وقعَ بمأزق. عجيب..كلُّ شيء عجيب، فكّرتُ أنْ أسأله لكنّي آثرتُ تأجيل السؤال إلى أوانٍ قادم. أية وسيلة ربطٍ توفّرت بيننا، كي يهتدي إليّ من دون هذه الملايين التي تُشاركني الوجود هنا؟ لا أعرف. ربّما كانَ «الانحراف الايجابي» الذي يُميزني، هو السبب في اتّصال جماعة «المزعنف» بي. شكراً لهذا « الانحراف»، فهو ما سيقودُني إلى مغامرة فريدة سأخوضها مليئةً بالخوف والأمل مثلَ امرأة حامل تترقّبُ الولادة. كيف سأتصّرف بالضّبط؟ لا زالت حواسي بطيئةَ التّجاوب مع الحدث، فقد عطّل «المزعنف» قبلَ دقائقَ بصري ولم أره، وصلتني كلّماته بصعوبة، كأنّها قادمة من أعماق البحار، لتملأَ أذنيّ بالطّحالب، والأشنيّات فتستبدَّ بي رغبةُ حكها، وفركها بقّوة. وكما يبدو لي لايترجمُ دماغي كلّماتِ مُحدثي تلقائّياً، عرفتُ ذلك من تحديقه الطّويل بي، منتظراً ردّي..هل يمكنني القولُ الآن إني دخلتُ الدّربَ الذي لطالما بحثتُ عنه في أعوامي الماضيات؟ نعم، ربّما ... فما معنى أنْ أعثرَ أنا بالذّات على حقيبةٍ، تُسرّب سراً في منتهى الأهمية؟ أليسَ الأمرُ متسلسلاً، ومتّصلاً بتناسقٍ مع حلقات حياتي السّالفة؟. في كلِّ الأحوال سأسألُ «المزعنف» عن شيفرة قدوم الأنانوكي. هل همْ أشخاصُ أسطورة مثل «سميراميس» و«سيزيف» و«عشتار»، أم أنّهم مستقبلُ الأرضِ الذين أعمَتْنا فكرتُنا المُسبقة الصّنع عن الأساطير عن فهمها؟ لابدَّ أنّه يعرفُ الجوابَ. الحقيبةُ وُضِعَتْ في طريقي لكي ألتقطَها وأرى ما بداخلها، ليس لديَّ شكٌّ، أُلقيتْ إليّ كَطُعمٍ يُرمى لسمكةٍ جائعةٍ، كان لا بدَّ أنْ تَهرعَ إليه بفمٍ مفتوح!

الهبوط إلى القاع

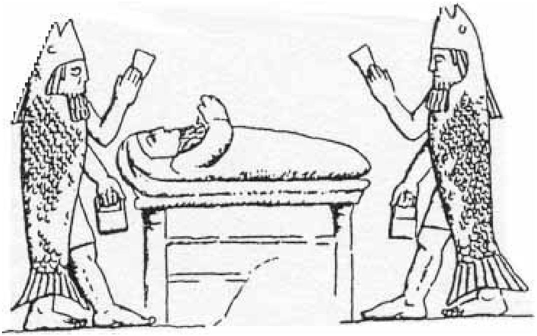

أمضيتُ ليلةً كاملةً في نوم عميق، كانت من الأحداث النّادرة في ليلي المضطرب، لكنّي عندما هَمَمْتُ بالنّهوض أحسسْتُ بخدرٍ عامّ، يسري في جسدي ولم أتمكّنْ من فتح جِفنيَّ الثّقيلين، كما لو أمسكَ بهما رمدٌ. تذكّرْتُ طفولتي عندما كنتُ أستيقظُ من نومي، ثمَّ لا أستطيعُ فتحَ عينيَّ، فجفناي ملتصقان ببعضهما، فأصرخ فَزِعاً:

«ما أشوف ..صرت أعمى!»

لحظاتٌ وانحسرَ الخدرُ تدريجيّاً، أوّلاً من يديَّ، ثمَّ انفكَّ انطباقُ جفنيَّ وانتبهتُ لأجِدَ نفسي محشوراً بكيس ضيّقٍ، التصقَ بجلدي. كانت يداي مشبوكتين ببعضهما بوضع قائم على صدري كأنّي مُقّيدٌ. وبصعوبة تبيّنتُ وجودَ سمكةٍ هائلة، وقفَتْ أمامي على ذيلها كما تخيّلْتُ، لكنَّها وقفَتْ بثباتٍ أثارَ استغرابي، كانَتْ مبتسمةً ابتسامةً مُرحّبةً حاولتُ الردَّ عليها بمطِّ شفتيَّ، لكنّي لم أتمكّنْ من تحريكهما.

مـا زالَ فمي مُخـدَّراً، وتدريجيّاً تذكّـرْتُ «المزعنفَ» وقصّتـي معَه ولا أدري لمـاذا تذكّـرْتُ حكايـةً سـمعتُها في صغـري مـن عمّتي:

في قديـم الزّمـان كان الحـمارُ يتكلّـمُ والطّـيرُ يتكلّـمُ والسَّـمكُ يتكلَّـمُ، سـألْتُ وقتَهـا: لمـاذا لاتتكلَّـمُ هـذه الحيوانـاتُ الآن؟

لأنَّ الله هداها، وكافأها وأرشـدَها السّـبيلَ الصّحيحَ، منعَ عنها الكلّامَ فاسـتراحَتْ وأراحتْ وليـس مثلَ البشر..

دارَتْ سـمكةٌ ثانيـة، لم أنتبـهْ لوجودهـا، وقرفَصَـتْ ماسـكةً بكفـيَّ المشـبوكتين، فأحسسـتُ بحـرارةٍ تـسري في جسـدي، ثـمَّ غـادرني الخـدر تدريجيـاً وتمكنّـتُ أخـيراً مـن تحريـر الابتسـامة المسـجونة عـلى شـفتيّ. تيقنـتُ أنْ لا سـمكةً تُشـاطرني الغرفة بل رَجُلين، شـكلّهما الخارجيّ شـكلّ سـمكة، مثـل «المزعنـف» تمامـاً!

ـ أهلاً بك في عالم النَّهر! أتتذكر لمَ أنت هنا؟ هل تسمَعُنا بوضوح الآن؟

حاولتُ الإجابةَ لكنَّ لسـاني لم يتحركْ، فحاولتُ الإيماءَ برأسي فواصل:

ـ أنـت هنـا لأنَّك مرشّـحٌ لمهمّـةِ رؤية حياة النَّهـر ثمَّ نقـل الحقيقة لأهل الأرض، أنـت هنـا كـي تعـرفَ الحقيقـةَ، ولكـنّ يـا ضيفنـا العزيـز! كيف سـتعرفُ الحقيقـة؟ هل نـأتي بمن يقـرأُ عليك التأريخَ الرسـمي كـما كُتب؟ ونطلـب منـكَ تصديـقَ مـا تـراه، قـال فـلان عـن عـلان نقـلاً عـن تلان؟ كلّا، التــأريخ المكتـوب هـو رأيُ مَـنْ كتبهُ. سـترى التأريخَ بنفسـك، وهو يعيـدُ نفسَـه أمّامك!

لم تسعفْني قواي المخدّرةُ في صياغة ردٍّ، فاكتفيتُ بالسّماع:

ـ والآن نبـدأ مـن البدايـة. لابـدَّ لي، قبـل أيِّ شيء، مـن تعريفـك بعـالم القـاع. هنـا يعيـش مجتمـعٌ كامـلٌ، إنَّـه مجتمـعُ المـاء. عـالمٌ متصـل مع

بعضه عبرَ الأنهار والمحيطات، بتكوين اجتماعيٍّ، يتعايشُ ضمنَه بقايا النّاس، وأنصافُ الآلهة والحيوانات. عالمنا الرّافديني مكوّن من ثلاث طبقات، سُمّيَتْ بأسمائها حسبَ تشكُّلها الزّمنيّ مثلما تُسمّى الطّبقاتُ الجيولوجية، طبقتُنا تُدعى، «أونيس»، ثمَّ ضحايا الطّوفان، حادثة الطّوفان معروفة لديَّك، لا شكَّ بنسختها الأرضيّة، وآخر الطّبقات، غرقى الأزمنة الحديثة. تختلف هذه الطّبقات عن بعضها من الجانب الحقوقيّ ولكنّه اختلافٌ مؤقّتٌ بانتظار النتيجة، كما ستعرف.

كيف تشكّلَتْ هذه الطبقات؟ قبل الطّوفان، أجبرَتْ ظروفٌ قاسية بعضَ سكّان الأرض على النّزول إلى الماء، والتّحول إلى كائناتٍ برمائيّة قادرةٍ على العيشِ ما بين اليابسة والماء في آن واحد. بعد سلسلة من الاعدادات، تأهلتْ سلالةُ «أونيس» لتكون كائنات شبه إلهيّة كلّفَتْها آلهةُ الماء بنقل المعرفة للبشريّة من أعماق النَّهر لأهل الأرض. كلُّ ما بناه أهلُ الأرض كان بمشورة ومساعدة من «آل أونيس»، هؤلاء، أجدادي، هم من شكّلَ الطبقةَ الأولى من سكّان الماء.

أمّا البدايةُ الحقيقيّة لتشكّلِ عالم النَّهر المتنوع، فهي حادثةُ الطّوفان. اسمعْ ياصديقي! تعرفُ كمختصّ بالتأريخ حادثةَ اقتناع مجلس آلهة العراقيّين برأي إنليل/ مردوخ بشأن الطّوفان؟ حدثَ ذلك قبل خمسةِ آلاف عام عندما أبدى **إنليل** انزعاجَهُ من تكاثر النّاس، وهيجانهم ليقترحَ على مجلس الآلهة إبادتَهم وإنهاء مظاهر الحياة، بجعلِ السّماء تصبُّ ماءً ليلَ نهارَ، هذه القصّة معروفة لك، ولكنَّ الطّوفانَ لم يكن أولى محاولاتِ الآلهة للحدِّ من تزايد أعداد البشر. قبلَها سلّطتِ الآلهةُ وِفقاً لاقتراح «إنليل» أصنافاً من الكوارث على الإنسان الذي ازداد عدداً وصخباً، عدِّدْ معي أنواعَ العقاب الذي اقترحتْهُ الآلهة:

فلتقعِ الأشجارُ التي تطعمهم،

وليمنعْ «حُدد» في الأعالي مطرَهُ عنهم،

ولتحجبْ «نيسابا» صدرَها الخصب،

ولتغلقِ الأرحامُ، فلا حَبَلُ، ولا ولادة،

طبّقَتِ الآلهةُ هذه التّعليماتِ القاسية، وانظرْ ما جرى:

حلَّ الجوعُ، وعندما أتى العامُ الثّاني نفدَ الطّعامُ المحفوظُ في المخازن، وعندما أتى العام الثّالث غيّرتِ المجاعةُ أحوالَ النّاس..

وفي العام الرّابع انحنَتْ ظهورُ من كانت ظهورُهم منتصبةً..

وعندما أتى العامُ الخامسُ توسّلتِ البنتُ أمّامَ بابِ أُمّها، لكنّ الأمَّ لم يرقَّ قلبُها لابنتها، فلم تفتحْ بابَها..

وعندما حلَّ العامُ السّادسَ أُعدَّتِ الإبنةُ لتكون طعاماً وراحَ البيتُ يفترسُ الآخرَ وصارتْ وجوهُ النّاسِ كأشباحِ الموتى..

لكنّ «إنكي» إلهَ السلام، والحكمة صاحَ بغضب:

ـ هذا ظلم! ظلم!

وأرسلَ سرّاً أفواجاً متلاطمةً من السّمك لإطعام البشر، فأحبطَ خطّةَ **إنليل** الذي غضبَ من تَدخُّل «إنكي»، وما فعلَهُ لتخريب خطتّه. وقرّرَ أنّه لا حلَّ إلا بالطّوفان الذي عرضَ تفاصيلَه في اجتماع مجلس الآلهة، ولم يكنْ أمّامَ «أنكى» إلهِ «الحكمة والسلام» هذه المرّة أيضاً بحكم مهامه إلّا الاعتراضُ على قرار مجلس الآلهة فصاحَ بهم:

ـ أيتها الآلهة المحترمة! ما قيمةُ إلوهيّتِنا إنْ أبدْنا النّاسَ؟. سنبقى بلا عمل، سنكون معبودين بلا عبّاد، مسؤولين بلا رعيّة! لنفكرْ بعقابٍ

آخـر غيرِ هـذا، لننبهـهـم أوّلاً، ثـمَّ نرى..

غـير أنَّ هـذا الإلـه ذا القلـب الكبـير المُفعـم بالخـير، وتقديس السّـلام كان وحيـداً لانصـيرَ لـه فبقـي صوتُـه مُغرداً خـارجَ الـسّرب كأقليّـة، كانَ عليهـا الالتـزامُ بـما قـرّرهُ مجلـسُ الآلهـة.. الآن أُريُـدك سـيّد « صفـاء» أنْ تُمَثّـلَ دورَ «إنكـي» وموقفَه، قُـلْ باللّهجـة العراقيّة، لا يهمُّ، فالإلـه عراقيٌّ، أسـمعْنا صوتَـك واعـترضْ عـلى قـرار «أنليل»!

تساءلْتُ مستغرباً:

ـ أنا؟

ـ نعـم، أنـتَ، تصـوَّرْ أنَّـك الآنَ «إنكـي» وقـد رأيتَ مـا فعـلَ «إنليل» كيفَ ستعترض؟

حاولـتُ النّطـقَ فوجـدْتُ بعـضَ الصعّوبة، لكنّـي أفلحْتُ بعـدَ محاولة فقطّبْتُ جبينـي، وصَمَـتُّ برهـةً، ثمَّ وجدْتُ لسـاني ينطلـقُ فصحتُ:

«أنليـل»، «بـالله بشرفـك ما تسـتحي؟ إله طـول وعـرض وصلاحيّات ماهمُّـك غـير هـذا المسـكين آدم، ليـش خلقته؟ ليـش خلقته وخلقـت معاه نواقصـه؟ مـا كنـت تعـرف مـن الأوّل إنـو راح يصيـح ويتكاثـر ويخبّص؟ هذه أخـلاق آهـة لو..»

ردّ «المزعنف»:

ـ يكفـي، أظـنُّ «إنكـي» لـن يجـد مـا يقـول لأنليـل أفضـلَ ممّـا قلـت، ولكـنْ هـذا كلُّـه لـن يغّـيَر الأمـرَ، فالقـرار صـدرَ، وقلـبُ إلـه السّـلام والحكمـة يتقطّـعُ ألمـاً مـن القسـوة المفرطـة اللامُـبرّرة لقرار مجلس الآلهة.

والآن مـا العمـل؟ هـل يبقـى صامتـاً فيُشـارك بهندسـة هـذه الإبـادة المرعبـة، أم يعـترض؟ فيُعـزل! ويُطـرد مـن مجلس الآلهـة؟ وإذا صَمَـت،

ألّا يعني صمتُه تخلّيه عن هويّته كإله حكمة وسلام؟ واجبه أنْ ينتهجَ طريقَ الحكمة ويسعى للسّلام حسبَ ما تُمليه عليه مهمّتُه، ولكنْ كيف؟ وقد خسرَ الإله «أنكى» المعركة أمّام مجلس الآلهة الذي لم يأبَهْ لحججهِ، ولم يبقَ أمامَه إلّا إيجادُ سبيلٍ آخرَ لتبرئة ضميره أمامَ رعيّته المُهدّدين بكارثة الغرق! بعد تفكيرٍ عميق ارتسم أمَامه الحلُّ. حلٌّ جريءٌ ومغامر! لم يتردّدْ، فقرّرَ سلوكَ هذا الطّريق الصّعب المحفوف بالمجازفة. قرَّر تسريبَ أسرار اجتماع الآلهة إلى الإنسان بشخص «أتونا بشتم» وتحذيره من فظاعة ما سيأتي. لم يكنْ هذا الفعل، أي: الاتصال بالبشر الفانين مسموحاً بل هو محرّمٌ في عرف الآلهة، فلا يجوز للآلهة أنْ تتّصلَ بهم، أو تكلِّمَهم. لو فعل «إنكي» ذلك سيكون قد خرقَ العرفَ الإلهيَّ بما يُجبره على التنحّيّ جانباً، وإذا تنحّى بقيَ الإنسان بلا نصير تحتَ رحمة «أنليل» الذي لا يعرفُ الرّحمةَ، فكيف سيتسنى له تنبيهُهُ من الخطر القادم إذن؟.

بعد تفكير، وجد الإلهُ «إنكي» الحلَّ! انسلَّ ببراعة من بين ثغرات «النّظام الدّاخلي» لمجلس الآلهة، واعتمد على فِطنة «أتونا بشتم» فسرَّبَ له محضرَ الاجتماع بطريقٍ غيرِ مباشر، حينَ خاطبَ بيتَهُ القصبيَّ مُتفاديا ذِكرَهُ بالذّات:

«بيت القصب يا بيت القصب

جدار يا جدار

اهدم بيتك وابن مركباً

اهجر كلّ ما تملك واطلب الحياة.»

لم يكنْ «أتونا بشتم» أو «نوح» إنساناً بسيطاً، بل كانَ سيِّد قومه فهماً وعلماً وحكمةً، لذلك ما أنْ سمعَ الصّوتَ حتّى فهمَ الرّسالةَ..عَرِفَ

أنَّ كارثـةً في طريقهـا للحـدوث، وأنَّ الهاتـف يعنيه هو ذاتـه، لا الجدار ولا بيـت القصـب. لذلـك عليه إنقـاذُ نفسِـه، وأهلـه. وبينـما كانَ هو منشـغلاً ببنـاء مركبـهِ كان «إنليـل» يعمـل عـلى إحـكام خطّتـه الشّريـرة، ويـذرعُ السّـماء مُتغطرسـاً رواحـاً ومجيئـاً وهو يصفـر مترنماً:

سأأتي بالرّياح من كلّ الجهات،
لتسوقَ أثقلَ الغيوم، وأكثَرها قتامةً، وأعظمها صخباً،
وتعصَرها فوقَ ضفافِ دجلة، والفرات،
ستمطرُ ليوم، وليومين، وثلاثة وسنة حتّى يقتربُ الممات،
سأصبُّ عليهم ماءَ السّماء مِدراراً،
وأرى كيف تفرُّ الجموعُ إلى البراري فِراراً،
وكيفَ تُصارعُ الجاموسةُ قدومَ السّيل،
ثمَّ تستسلمَ مِثلَ نملةٍ، لا حولَ لها ولا حيل،
سأرى كيف تحمل الأُمُّ رضيعَها، ثمَّ تبتلعهُما المياهُ وهما يصرخان،
سأرى الخنازيرَ البرّية تقبعُ صارخةً،
والخرفانَ تثْغو هَلِعةً،
والكلابَ تنبحُ ضاجّةً،
والخيلَ تصهلُ فزِعةً،
سأرى الدّجاجَ ينقُّ،
والغربانَ تنعبُ،

والقبراتِ تُصفُر لحَن الموت

سوف لن أُبقي لهذا الإنسان الصخّاب بقيّةً، ولنْ أتركَه ينمو من جديد . .

بعد أنْ حلّتْ كارثةُ الطّوفان الرّهيب الذي لم يُماثلُه شيءٌ في جبروته ووحشّيته، وهدأَ الماءُ، وصمتَتِ السَّماءُ، وصعدتْ أرواحُ الضّحايا إلى الفضاء، رأَتِ الآلهةُ كيفَ فاقَ الطّوفانُ بأثرِهِ أثرَ الطّاعون، والمجاعة وقد فتكَ بالأسود والذّئاب، حينَها آنَ أوانُ النّدم..

لو أرسلتَ بدلَ الطّوفان أُسوداً لأنقصَتْ عددَ البشر،

لو أرسلتَ بدلَ الطّوفان ذئاباً لقلَّلتْ عددَهم،

لو أرسلتَ بدلَ الطّوفان المجاعةَ، لأُهلكتِ البلادَ،

لو أرسلتَ بدلَ الطّوفان الإله إيرا إِلهَ الطّاعون والأوبئة الفتّاكة لحصدَ النّاس.

«إنليل» نفسُهُ عندما أطلَّ من عليائه، ورأى جِثثَ النّاس، والحيوانات تطوفُ على المياه ارتعب من هول ما فعل، وشعر بالنّدم..

الآنَ يا سيّد «صفاء»! عُدْ لدور «إنكي» مرّةً أخرى، عُدْ لتمثيل ردِّ فعله، وقد رأى نتيجةَ ما فعله «إنليل»!

صِحْتُ وقد راقَ لي أنْ أكونَ إلهاً حتّى لو بالتمثيل:

ـ شفت شلون يا ابن الضّبع؟ يُرضيك هذا الموت؟ هذه أفعال إله لو جلّاد؟ والله لو ما عيب من بقيّة الآلهة كان ضربتك بـ.....!

قهقه «المزعنَفُ» ضاحكاً وقاطعني:

ـ هذا تقريعٌ عراقيٌّ تقليديّ..

مسحْتُ دموعي التي سالت جّراءَ تفاعلي مع الحدث، وقلتُ:

ـ لكنّها أسطورةٌ، لا غير..

ردَّ «المزعنفُ» بثقةٍ:

ـ وقصّةُ خلقِ الإنسان من كومة طين، ونفخ الرّوح فيه، ألّا تُشبهُ الأسطورةَ؟ ومعَ ذلك أنت تؤمنُ بها! ولكنْ، ما هي الأسطورة؟ هي حلٌّ مؤقّتٌ لما ليس له حلٌّ، وتفسيرٌ آنيٌّ لما لا تفسير له آنذاك.. والأسطورةُ هي ما يدفعُنا للتّفكير بتفسير ما لا تفسيرَ له، وحلّ ما لا حلَّ له. المشكلةُ الكبرى أنْ تتحوّلَ الأسطورةُ من حلٍّ مؤقت إلى آخر دائم، فتكتسبُ صفةَ القدسيّة وعندها سيُمسكَ ماضي الزّمان بالحاضر من قرنيه ويربطهُ إلى أوتادِ خيمة التّاريخ المهترئة، كي تفسِّرَ ظواهرَ لا تفسيرَ لها، ومادُمتَ لاتعرف التّعليلَ فالأسطورةُ تتكفّلُ بذلك!

المهمُّ أنَّ «أنليل» قرَّرَ تعويضَ الإنسان عمّا ألحقَهُ به من إبادة، لم يكنْ عارفاً بما فعلَ «إنكي»، وكيف سرَّبَ السّرَّ لـ **أتو نابشتم** لكنَّه حدس ذلك، فلا أحدَ يمكنُه الالتفافَ الذكّيَّ على أوامر الآلهة غيرهُ، فتركَ له أمرَ الضَّحايا الغرقى. وهنا أمسكَ إلهُ السَّلام بالخيط ثانيةً، وانشغلَ بتضميد جراح الضّحايا.

استقبلَ البرمائيّون الأوائلُ، أي جماعةَ «أونيس» الضّحايا، وأتمَّ «إنكي» عليهم فضلَهُ بأنْ أنعَمَ عليهم بالعيش، وفقَ قيم أُخرى مختلفةٍ عن قيم الأرض التي عاشوا عليها ولم يعد هناك قوي وضعيف، غالب ومغلوب، منتصر ومهزوم فتطورت مملكة الماء برعاية الحكيم «إنكي» وفق قيم السلام والحب..

تنهدتُ بعمق ثمَّ قلتُ بحرقةٍ:

ـ كم وددتُ أنْ يكون لنا «إنكينا» على الأرض!

ـ أحقاً تُريدُ ذلك؟

ـ من كلِّ قلبي، نحن تائهون هناك بلا راعٍ، لا أحد يهتم بنا، الحكم لديَّنا للقوي، يقتل ويغزو، يسلبُ ويُفقر، يُميتُ ولا أحد يردعه. ينصحون ضحاياه بالانتظار إلى مرحلة ما بعد التّراب، لا «إنكي» يدافعُ عنهم!

المهمُّ أكملْ قصّتَك المشّوقةَ أرجوك..

استطرد المزعنف:

ـ أمّا بقايا أهل الأرض الذين أنقذهم «أتونابشتم» فقد تشعبوا وبنوا الممالك لكنّهم لم يتعظوا مما حلَّ بهم من مصائب ونوائب فما لبثوا أنْ تقاتلوا فيما بينهم وتطاحنوا..وأظنّك لا تجهل ما آلوا إليه فأنت سليلهم!

ذكرتُ قبل قليل أنْ ظروفاً أرضية ظالمة حدثت قبل الطّوفان أجبرت سلالتنا، سلالة أونيس، على النزول للماء ثمَّ تأهلنا ككائنات خاصة قامت بمهمّةٍ شاقّة هي نقل الحكمة لأهل اليابسة. بينما مهنةُ أسلافي على الأرض قبلَ الهبوط للقاع كانت الغوصَ والبحث عن اللؤلؤ والمرجان في أعماق البحر والأنهار والخلجان، وبقيت محصورة بعائلتنا.. كان أجدادي خدَمَ الملك، وجدّنُا الأعلى كان يتكلّم لغة تختلف عن لغتنا نحن أحفاد أحفاده وكان شكلُه يختلفُ عنّا. القصّةُ كما وصلتنا منقولةٌ من الآباء عن الأجداد هي أنَّ جدّنُا الأعلى، في الزمان الماضي البعيد الذي لا يتذكّرهُ أحدٌ، كانَ مسؤولاً عن شؤون النَّهرين، دجلة والفرات وفروعهما. وكانَ ينظّمُ كلَّ ما له علاقة بهما، مثل قوانين، وقواعد الكري والملاحة، الصّيد والطقّوس الدّينيّة، مياه الشّرب، وحصص السّقي وشقّ القنوات. وكان يعتبرُ نفسَه شريكاً لإله النَّهرين وحافِظَ أسراره، أمّا أولادهُ السّبعةُ فقد عهدَ إليهم بمهمّاتٍ مُساعِدة، مثل حلّ مشاكلّ الصيادين قبلَ أنْ تُحالَ إلى القُضاة، وتحديد حصص المياه بين

المزارعين وجداول تنظيف القنوات، والعناية بنظافة ماء النَّهرين. كانت الحياةُ صعبةً تتطلَّبُ تعاونَ المُزارعين، ففي بعض الأنحاء، حيث تجري السّواقي ببطء، كان على الفلّاحين القيامُ بعملٍ جماعيّ جبّار، لتضييق مجرى النَّهر، فيحملون البرديَّ والقصبَ من الهور ويتعاونون على إلقائِهِ في النَّهر مستغلّين حالةَ انحسار الماء «الصّيهود»..لكنَّ النَّهرين، أو الإلهَ انقلبوا على جدّي!.

فجأة، ابتلعَ الفراتُ أمهرَ رجالِهِ، ولم يكتفِ بذلكَ، بل أغرقَ أربعةً من أولادهِ ولم يكتفِ أيضاً، ففاضَ ودمرَّ كلَّ ما حولَهُ، فثار النّاس على الملك وثار الملك على جدّي وأصدرَ أمراً إلهياً بالقبض على أجدادي مُتّهماً إياهم بالتّسيّب والتآمر على مُلكه. رفض جدي التهمة ولم يوافقْ على تسليم قبيلته، ففرّوا كلُّهم فأمرَ الملك بملاحقتهم. نسيّ الملك أفعال جدي ومساعيه هو وأولاده بتثبيت أركان المملكة، ونظر لرفض استسلامهم كدليل على صحة تهمته لهم فأوعز أنْ ترافق الجنود فرقة خاصة مزودة بعدد من النمور والضباع والأسود بعدد أفراد قبيلة «المتآمرين». لكلّ فرد وحشٌ! وأوعز أنْ تُطعم الضواري خلال مرحلة البحثُ عن المُطاردين بالقدر الذي يبقيها حيّة ولكنَّ جائعة. وأن تجوَّع ولا تُطعَم قبلَ يوم من الوصول للهدف، فإذا ما ظفر الجند بطرائدهم أطلقوا الضواري من أقفاصها لكي لاتُبقي من المتمردين إلا العِظام. بثَّ جنود الملك الخبر المُرعب في كلّ الأنحاء فهرب أفرادُ القبيلةِ المُلاحقة كِباراً وصِغاراً إلى البراري المُقفرة لكنّ جنود الملك وشرطته لاحقوهم أسابيعاً وضيقوا الخِناق عليهم حتّى لم يبقَ بينهم والبحر سوى مسير ساعة. وقفَ أجدادي يُصَلّون للآلهة ويستعطفونها الرّأفة بهم عارضين أطفالهم الصغار وقد أوغلَ الجوع أكلًا بأنسجتهم الطرية حتّى كادت أجسادهم تتلاشى. مات الكثير من الفتية والبنات جوعاً، لكنّ السّماء بقيتْ صماءَ لاتسمعُ وصامتةً لاتردُّ على استغاثاتهم..

سرحتُ بعد أنْ عادت لذاكرتي أيامُ الحصار وقوافلُ الصّغار الموتى تتوالى دون أنْ يلينَ أحدٌ لصراخ الأمّهاتِ الثكالى..

نبّهني «المزعنفُ» بلطفٍ:

ـ هل ما زلتَ تُتابعني أم أنَّك تشعرُ بالتعب؟.

ـ نعم، لاشكَّ، القصّةُ مؤثّرةٌ، ذكّرتني بشبيهةٍ لها، استمرَّ أرجوك..

قطعَ الضّيفُ الحديثَ:

ـ كلّا، هذا يكفي اليومَ، سنلتقي غداً، لاستكمالِ الإعداد، أراك مُتعباً.

ـ أرجوك أنْ تُكملَ، لا أرغبُ في قطع القصّة، ما زلتُ قادراً على التّركيز.

ـ إذنْ نستمرّ، تصاعدَ بكاءُ الصّغار ونحيبُ الأمّهات. واقترحَ الأصغرُ سِناً والأكثرُ تعلّقاً بالحياة تسليمَ أنفسهم لمطارديهم، وإظهارَ التَّوبةِ وطلبَ المغفِرة من الملك. كانوا يأملون نهايةً لمعاناتهم التي طالت فالجند من ورائهم والبحر من أمّامهم، لكنّ «جدّي» كبير القوم صرخ بهم :

ـ ماذا تقولون؟ نطلب المغفرةَ...، عن أيِّ ذنبٍ؟! هذا ذلٌّ، نحن لم نجنِ على أحد، ولم نرتكب ذنباً!

أجابه قومه باكين:

ـ كأنّك ياجدَّنَا نسيتَ «مينا أرني» الذي قال:

«أنا أتعذّبُ لأنّي أخطأتُ لكنّي لا أعرف ما هو خطئي!»

كأنّكَ نسيتَ البيتَ القائلَ «إن الخطأ موجودٌ في أعماقنا، يولد معَنا» كأنكَ نسيتَ حكمةَ آبائِنا التي توارثوها عن أجدادهم:

«لم يولدْ طِفلٌ بلا خطيئة»

تلـك كانـت قناعـةُ الأغلبيّـةِ الأصغرِ سـناً. وبعـدَ أنْ يئِـسَ المُطَـارَدونَ مـن عدالة السّـماء واسـتجابة كبيِرهم لطلبهم، سـجدوا عـلى الأرض عُراةً خائـري القـوى مُستسـلمين للقـدر، عارضِـينَ أنفسَـهم عـلى الآلهـة وقـد انقسـموا إلى مجموعتـين. بـدأت المجموعـةُ الأولى بترتيـل موشّـح المُعذّب وهـي تبكي:

تأمّلتُ في الدنيا . .لا يسدُّ الإلهُ الطّريقَ أمّامَ الشيّطان

ماذا جنيتُ من الإله الذي عبدتُ؟

أنحني أمامَ من هو دوني مرتبةً

يحتقرُني الغنيُّ والتّافِهُ والفخور

يمجّدون أفعالَ الرّجل العظيم، رغمَ أنّه قاتلٌ

يزدرونَ البسيطَ، وهو لم يؤذِ أحداً

يأتمنون الرّذيلَ

يملأون جيوبَ النّذلِ بالذّهب

يقتلون الضّعيفَ ويدوسون على المسكين

وأنا الفقيرُ يظلمُني الغنيُّ

هل أخرّتُ النّذرَ؟ لقد صلّيتُ للآلهة

ونذرّتُ للآلهة الضّحيةَ، لكنّ كلّمتي غيرُ مسموعة.

فـردّتِ المجموعـةُ الثّانيـةُ مُذكِّـرةً بفضـلِ الآلهـة، وضرورة استسـلامِ الإنسـان لقـدره:

الظّلُ الغابرُ يعودُ بالصّلوات

رضوانُ الآلهةُ يُسترجَعُ بالدّعاء

أولئكَ الذين لم يغفروا لك سيعطفونَ عليكَ

البحثْ عن الإيمان بالعدالةِ دائماً

سيمنحُكَ الحارسُ العظيمُ نعمتَهُ

واصلَ «المزعنَفُ» بعدَ أنْ مسحَ جوانبَ فَمِهِ الذي أتعبَهُ السَّردُ الطويلُ للقصّة، وقال:

ـ هذا هراءٌ، هذه هلوسةٌ، أسلافي لم يخونوا الآلهةَ، ولا الملكَ بلْ التزموا بتعهّداتهم بتقديم النّذور، وخدمتها والعمل في مزارعها. كانوا مُطمئنّينَ إلى التزام الآلهة برعايتهم، وتوفير الرّخاء والرّاحة لهم، لكنّ جدّيَ الملتزم رُكِل مِراراً بقسوةٍ، دون أنْ يفهمَ السَّببَ. وبعد كلِّ ما جرى يريدونَهُ أنْ يُقِّرَ بخطأ لم يرتكبْهُ..وخلالَ هذه العتمة الحالكة، وبينما المصير المرعب يزحف بأذرعه الإخطبوطية ببطءٍ، ليلتفَّ على القبيلة الهاربة النّادبة، رفضَ جدي ترتيلَ ترنيمة الخضوع والتّشكّي. تمرّدَ على سنّة الأجداد. يمّمَ وجهَهُ شطرَ البحر وصاحَ:

ـ يا «إنكي»! إلهَ السّلام والحكمة، وحدَكَ تُدركُ بقلبك النّقيِّ كجمّار النّخل، وترى بعينيك الصّافيتين كعيني بوم أنّنا لم نرتكبْ ما يُغضبُ الآلهة والملك وأنّنا ضحايا لا ذنبَ لنا..لكنَّ آلهةَ السّماء صمّاءُ لا تسمعُ وملوكنا لا قلوبَ لهم..إنّنا نشكوك ظُلمَ الملوك، ولكنّنا لانستسلمُ..

ثمَّ أوعزَ للجميع بالتبّعثر على طول الشّاطئ والتّواري في الماء كي يظنَّ جنودُ الملك أنّهم غرقوا في البحر خائفين من بطشه، صاحَ بهم:

هيّـا إلى المـاء، اليابسـة تعنـي فناءَنا. ليُلـقِ كلٌّ منكم بقطعةٍ من ملابسـهِ إلى المـاء، قطعـة واحـدة لا أكثـرَ. ليأخـذْ كلَّ سـبّاح كبـير، صغـيراً واحـداً معَـهُ ويبتعـدْ إلى أقـصى مـا يمكنُـه الابتعـادُ عـن الشّـاطئ، كـي لا يسـمعَ الجنـدُ بـكاءَ الأطفـال، تفرّقـوا عـن بعضكـم، ولو سـمعْتُم خُطـى الجنود، أو أصواتهـم أو رأيتموهـم، غوصـوا في المـاء، تعلّمـوا البقـاءَ تحتَ الماء إلى حـدّ انقطـاع النَّفَس، ثـمَّ أخرجوا رؤوسَكم فقـط، لأخذ النَّفَـس وعودوا للغـوص ثانيةً!

ألقـى القـومُ أرديتَهـم في البحر، وتـوارَوا متبعثرين على طول الشّـاطئ، فلـمّا وصـلَ الجنودُ مع عتمة المسـاء، وجدوا السّـاحلَ خاليـاً، وبقايا الثياب طافيـةً عـلى الماء تـروحُ وتجيءُ، افترضـوا حينَهـا أنَّ أفـرادَ القبيلة قـد ألقَوا بأنفسـهم في البحر رعباً..

يتعلّـمُ صغارُنـا التأريخَ في مدارسـنا سـيّد «صفاء» من حكاية السّـمكة التـي صادَها الصيّـادُ وترجّتهُ باكيةً أنْ يُعيدها للماء واعـدةً إيّاه أنّها لن تُخَيّبَ أملَـه بـرزقٍ وفير، فهي تعـرف عالم المـاء وأسراره وأمّاكن تجمع السـمك!.

صدّقهـا وأعادهـا إلى المـاء ولكنّهـا وهـي هنـاك وبعـد تفكـير طويـل أدركَـتْ حجـم مأزقهـا. فشَـعَرت بالنـدم عـلى مـا فعلـتْ، فكيف سـتفي بوعدهـا لـه؟ هـل ستشـتغل جاسوسـة ضـدَّ بنـات وأبنـاء جنسـها فتزيّنَ لهـنَّ الاقـترابَ من شـبكته؟ وهذه خيانـةٌ لن تفكّـرَ بارتكابهـا، وفي المقابل، هـل سـتتنكّرُ لوعدهـا الـذي قطعتـه للصيـاد، كـي يطلـق سراحهـا ثانية؟ كلّا، فخيانـة العهـد ليسـتْ مـن طباعها، فكّـرتْ، نـارُ الصّياد أكثـرُ رحمةً! حزنـتْ وبكـتْ ثـمَّ قـررتِ العـودةَ إليـه بقصـد الاعـتراف لـه بأنّهـا غـير قـادرة عـلى الالتـزام بوعدهـا، وأنَّ مـن حقّـهِ الآن كما في المـرّة السّـابقة أنْ يبيعهـا أو يشـويها، ببسـاطة يتـصرّفُ معهـا كغنيمـة مـن حقـه التصرف بها كـما يحلـو له:

ـ إنَّـه قـدري أيّهـا الصيـاد! افعـل بي مـا تشـاء! ليـس بوسـعي خـداعُ السّـمَك لكـي تصطـادَه!

قالتِ السّـمكَةُ باكيـةً، وهي تتلوّى داخـلَ الشّـبكة..ولكنْ كانَ الصّيادُ هـو الآخـرُ قد عَشِـق هـذه السـمكة الرزينـة الوفيّـةَ ودعاهـا للعيـش معَهُ بعيـداً عـن الماء و شِـباك الصّياديـن. طارتِ السّـمكَةُ من الفـرح، فهذه هي المـرّةُ الأولى بتأريـخ الأسـماك التـي تُبرمُ بهـا علاقـةَ صداقـةٍ دائمـة، وعيشٍ مُشـترك بـين صياد وسـمكة، لكـنّ فرحتهـا لم تدم سـوى لحظـات، فكيف سـتعيش عـلى اليابسـة وهي تتنفس مـن الماء؟ انسـابت الدمـوع غزيرة على خديّها ونشـجت:

ـ ليتنـي أسـتطيعُ أيُّهـا الصيـاد الـرّؤوف! أنا سـمكة بائسـةٌ لاحيـاةَ لها إلا في المـاء..»

أجابها الصياد:

ـ أحبيّنـي، أحبّـي اليابسـةَ، وبعدَهـا سيسـهلُ كلُّ صعـب! قـرّري أنَّكِ ستعيشـين معي وسـيُحّلُّ كلُّ شيء، أنتِ لم تجرّبي البقاءَ طويلاً على اليابسـة، لـو أنّـكِ تدرّبتِ على ذلـك سـتتكيَّفُ أعضاؤك مـعَ ظروف حياتنـا بمرور الزمـن. سأنتشـلُكِ من المـاء كلَّ يوم لدقائـقَ، وقبل أنْ تشـعري بالاختناق سـأقذفَ بـكِ إلى الماء، ثمَّ نزيـدُ مُـدَّةَ البقاء كلَّ مرّة وسـترين..

ونفّذَ الاثنانِ الخطة إلى أنْ تحوّلَتِ السّمكةُ إلى كائن أرضيٍّ نهريٍّ..

آمـنَ جـدّي ببراءتـه وبـراءة قومـه وأن «إنكـي» الرحيـم سـيفتح كـوة أمـلٍ أمّامهـم. سـيفتح عـالم الماء داعيـاً إياهـم إلى حبّـه، ليجرّبـوا أوّلاً مثل السـمكة، ولكـنّ «إنكـي» لـن يفعـل لـك شـيئاً مـالم تؤمـن أنـت بـما تريد فعلـه! تريـد النجـاة، عليـك السّـعيُ للنّجـاة. وهـذا مافعلَـه أجدادي، إيمانهـم بعدالـة «إنكـي» اقترنـتْ بمقاومتهم قـرارَ الملـك. تحـوّلَ أجدادي

تدريجياً مـن برّيـيّن إلى برمائيـيّن بعدمـا أجبرَهـم الظّلـمُ والحقدُ والقسـوة على مغـادرة اليابسـة.

ثـمَّ أتـتْ الطّبقةُ المائّيـةُ الأخيرة وهـمُ القادمون الجُدد ضحايا اليابسـة، بعـد أنْ فتـحَ الإلهُ «إنكي» بـابَ اللّجـوء للمطاردين، والمُغرقـين من البشر سكّان الأرض.

ـ قصّةٌ مثيرة، هل تكيَفَتْ أشكالُ البرمائييّن أيضاً من البداية؟

سألتهُ مأخوذاً بالقصّة فردَّ «المزعنف»:

ـ الخياشـيمُ والزّعانـف والحراشـفُ وانسـيابيةُ الجسـم، والذّيـل كلّهـا إضافـاتٌ نشـأت بمـرور الوقـت.

ـ قصّـة عجيبـةٌ، هـل تتوقّعُ ما سـيحدثُ لـو تسرّبتْ قصّـةُ وجودكم في المـاء إلى الـدّول الكبرى؟ سـيحرقون البحـرَ والنّهـر للظّفَرِ بكم!

واصلَ «المزعنفُ» مُتجاهلاً ملاحظتي التّحذيريّة:

ـ سـأُحدّثكُ قليـلاً عـن فلسـفة الوجـود عندنـا، مـا دُمـتَ تؤمـنُ بـأنَّ مخلوقـاً لم يَخلِـقْ آخـراً، فأنـت تؤمـنُ لاشـكَّ أنَّ الخالـقَ هـو الوحيـد الذي يحقُّ لـه سـلبَ حياة مخلـوقٍ مـا. ليس مهـمّاً أنْ تختلـفَ معي حـولَ تعريف الخالـق، مَـنْ هو، مَـنْ أوجدَهُ، مـا غايتهُ، ممّـا صُنع، مـاذا صَنَع؟ هـذه كلّها فرعيّـات، الأسـاس هـو أنَّك لم تَخلِـقْ جـارَك ولا عـدوَّك ولا أيِّ أحدٍ آخر وهـم بدورهـم لم يَخلِقـوك. كلٌّ منكـم انوجـدَ في الحيـاة دونَ رغبـة منـه، ولذلـك مـن غـير المسـموح لـك أنْ تسـلبَ الحيـاةَ مـن آخـر، إذ مـن غـير المنطقـيِّ، ولا المعقـول أنْ يصنعَ الخالقُ مخلوقاته ويسـمحُ لأي مصنوع آخر سـلبه الحيـاة. يمـوتُ الإنسـانُ موتـاً طبيعيّـاً، نقـول يأخـذهُ خالِقـه، فهذه مسـؤوليّتهُ اتجـاه مخلوقاتـه، لكـنْ عندمـا يُنهـي شـخصٌ حيـاةَ آخـر، فهذا

هـو أخطـرُ تمـرّد عـلى أهـمِّ قواعـد الوجـود، وأَصْرَخُ انتهـاكٍ لصلاحيّات الخالـق. في العُـرف النَّهـريّ، الـذي يُدفـعُ إلى المـاء يفقـدُ حياتَـه بفعـلِ من شـخص آخـر، ويختفـي في المـاء، يسـتمرُّ هنـاك في القـاع على ذات مـاً كان عليـه، فتسري عليـه أحـكامُ المـاء. وراءَ ذلـك حكمـةٌ بسـيطةٌ لا تحتـاجُ إلى توضيـح، المخلـوقُ لا يفـرضُ القاعـدةَ بـل يخضـع لهـا! عندما تُنهـي حياةَ إنسـان، هـذا يعنـي أنَّك أعلنـت تمرّدَك عـلى القاعـدة ولكنّـك لم تُغيّرْها..!

ـ هذا غريب! هل تعني أنّ سكّانَ الماء، يعيشون هناك للأبد؟

سألتُ بدهشة، فردَّ «المزعنف»:

ـ الطّبقتـان الأولى والثّانيـة لم تعـودا بـشراً، بـل أصبحتا أرفـعَ مكانةً من ذلـك، أمّـا أبنـاء الطّبقـة الثالثة مـن الغرقـى، فيبقون أُناسـاً تـسري عليهم أحـكام الطبيعـة، ولكـنْ كلٌّ منهـم يعيـشُ كـما لـو أنّـه لم يمـتْ، ويمـوت كـما لو أنّـه لم يُقتـلْ ومهمّتُنـا نحـنُ، إدارةُ حياتهم وفـقَ الظّـروف الجديدة. هـذا مـا هـو مسـموحٌ لي قولُـه! وبعـدَ انتهـاء حياتهـم يخضعـون لقاعـدة الصالـح والطالـح أيِّ الخالـد أو «الميّـت إلى الأبـد»..وكلٌّ يُلاقـي المصير الـذي يتناسـب وأعمالـه. الإنسـان الصّالح لم يعـدْ إنسـاناً هناك، مـا العبرةُ إذا كنـتَ في الحيـاة تلتـزم بكلّ القيـم النبيلة؟ تُعـاني، تُضحّـي، وتُكافح من أجـلِ غـيرك ثـمَّ تموت وتُحاسَـبُ ثـمَّ تبقـى إنسـاناً مـدى الدّهـر، في عُرفنا تُكلّـلُ هـذه المعانـاة والاسـتقامة بالتّرقيـة إلى مسـتوىً أعلى..مرتبـة الخلود والالتحـاق بأبناء الطبقّتين الأولى والثّانية أما غـيرُ الصّالح فيُعاقب بالموت.

سألْتُ:

ـ وهنـاك، في المـوت أيِّ الآخـرة حسـابٌ، أقصـد، مكافـأة، عقـاب... أليـس كذلك؟

ـ كلّا، الطّالـح يمـوتُ بلا عودة، وكأنّه لم يُخلقْ أصـلاً، هذا هو العقاب،

«المـوت النّهائـي»، أي: العـدم، هـو العقـاب، ألّا يكفـي المـوت كعقاب؟

تمتمتُ:

ـ عـلى كلّ حـال، هـذا السـيناريو أقـلُّ رعباً، عـلى الأقلّ «لاشَـوي ولا مشويات!».

ثم رفعْتُ صوتي سائلاً:

ـ ولكـنْ مع ذلـك، هذا عجيب، يعنـي هؤلاء الغرقى، الذيـن لم يعودوا لـلأرض، هم أحياء في المـاء؟ ما زلتُ أُفكّر بما أخبرتَني بـه، غيرَ مصدّق له!

ـ كلُّ مـن أخـذَهُ المـاءُ هـو مواطـنٌ مـن الطّبقـة الزّمنيّـة الثّالثـة وهو إما أنْ يكـونَ في مرحلـة الحيـاة العاديّـة التي تعرفُهـا أنت عـلى الأرض بانتظار التّقييـم أو يكـونُ حيّـاً للأبد أو ميْتـاً للأبد.

ـ كيفَ، تسيرُ الحياة هناك،لا أفهم!

ـ سـتعرفُ الكثـير في الأيّـام القادمة، لكـنْ، عليك أنْ تعلَم أنّها ليسـت حيـاةً كحيـاة أهلِ الأرض، فحيـاةُ الغرقى تخضعُ لقوانـين أُخرى، لا علاقة لها بالهـواء والتنفّس والأكل..

اعترضتُ قائلاً:

ـ هذا غيرُ ممكن، لو قلتُ ما قلْتَهُ لي، لأيٍّ كان سيسخرُ مني!

ـ منـذُ قليـلٍ حدثتَني عـن الإيمان، كيفَ سـتؤمنُ إذن بحيـاة أهل الجنة؟ أيوجـدُ هـواءٌ هنـاك تحـت الـتراب؟ أم هـل سـيبقى هـواءٌ ومـاء في جحيم سـقر، وجهنم الـذي تفـوقُ حرارتُه، حـرارةَ أيِّ مفاعـل نووي؟

أجبت:

ـ أتمنّى تصديقَك لأنّي أومن بأنّك لاتقولُ سوى الحقيقةِ، لكنّك تُريدُ

منّي تصديقَ المستحيل، نحنُ نعيش في القرن الحادي والعشرين وليس في زمن أتوـ نابشتم..

ابتسم الشّيخ وقالَ بهدوء:

ـ أتَفهَّمُ حيرتَك، فأهلُ الأرض متناقضون، لا منطقَ يجمعُ إيمانهم! تتحدّثُ عن المستحيل، المستحيل وفقاً لشروط سكّان الأرض. أنتم تهتمون بأخبار كائنات مُفترضة في فضاء بعيد غامض لاتعرفون أبعاده. هذا الفضاء لا هواء فيه وحرارته متطرّفةٌ حسب البعد والقرب من نجم ملتهب، أليس كذلك؟ مع ذلك تتوقّعون بينَ سنةٍ وأُخرى أنْ تصلكم رسالةٌ من هؤلاء المجهولين! ولا يهمّكُم ما يمكن أنْ يكونَ على الأرض، أو تحتَ قشرتها! ألا يُخالف ذلكَ منطقكم؟! ما الذي تعرفه سيّد «صفاء» عن أعماق الأرض أكثرَ من عشرة كيلو متر عمقاً؟ ما الذي تعرفه عن أعماق الأنهار وأعماق البحار؟ الآن، سأتحدّثُ لك بشيءٍ من التّفصيل عن الحياة الدّاخلية لمجتمعنا، وأُدركُ أنَّ الكثير ممّا ستسمعه سيصدمك. فالفجوة التي تفصلنا عنكم تمتدُّ لآلاف السّنين من المسير بطريقين متضادّين. تصوّرْ أنّني سأطلبُ مِنكَ:

ـ كي نستكملَ شروط نزولك إلى القاع، عليك الانتظار يومين، غداً لديَّ اجتماعٌ تحضيريّ في مجلس الآلهة، عليَّ طرحُ برنامج العمل ومناقشته معها..

ضَحكتُ مُستغرباً:

ـ مع مجلس الآلهة؟ حتّى إذا افترضنا وجودَها لكنّ الآلهة لا تتّصلُ بالإنسان! حتّى **أتونابشتم** استلم رسالةَ «إنكي» مشفّرة وليست باسمه: بيت القصب! يا بيت القصب! جدار! ياجدار ....

ابتسم «المزعنف» وربّتَ على كتفيّ قائلاً بصوت خفيض:

ـ ألم أقلْ لـك؟ توقّعـتُ ردّةَ فعلك! معلوماتك تاريخيّـة، أيِّ أخذتها من كتب التّأريخ، جوهر مَهمتّك الآن، أنْ تعرفَ التّأريخ كما كانَ، وليس كما كُتِب. قبلَ قليل حَدَّثتُك عن تطور الإنسان، لكنّ لا قدرة لديَّك لنسف بديهياتك. عموماً لستَ وحدُك من يعيش هذا المأزق، أعني مأزق السجن ضمن فضاء مسلماتٍ ثابتة. الآلهة هنا لم تعدْ معزولةً في السّماء، ولكنْ هذا لايعني أنَّك في أيّة ساعة تشاء تطرق بابها لتجلس وتشرب القهوة معها.

ما أعنيه أنَّ عالمنا اقترب من عالم الآلهة والآلهة بدورها تنازلَتْ عن الكثير من امتيازاتها فلم تعد هناك تخميناتٌ، وأساطير وتفاسير لخططها الغامضة. كلُّ قرار إلهي يصدر بالتشاور ويُعلن بالصيغة الجماعية:

قرّرَ مجلسُ الآلهة بعدَ التّشاور مايلي..

ولم تعد طاعة القرارات مطلقةً، مثلاً أقرأُ عليك أخر قرار:

«قرّرَ مجلسُ الآلهة في جلسته الثامنة لهذا العام تخصيص مكافأة لمن يُبرهن على وجود خطأ أو قصور في قرار من قرارات مجلس الآلهة..»

أمّا العمل في مكتب مجلس الآلهة فهو لا يختلف عن العمل في أية دائرة إدارية أُخرى إذا توفّرتْ لديَّك خبرةٌ في مجال الإدارة والاصغاء المركّز وتدوين الأراء، تستطيع عندها التقدم للوظيفة. سيقابلك عددٌ منهم الآلهة ليقرروا الأمر. لكنّ لا تستسهلْ عمليةَ الإصغاء لمجموعة آلهة يتناقشون فيما بينهم، ولا تظنَّ تلخيص أرائهم أمراً يسيراً، خصوصاً أنَّ لكلِّ إله إختصاص. حدَثَ في الاجتماع الماضي نقاش بين إله السّماء وإله البُلدان حول الصلاحيات، أدار رأسي..

كتمتُ ضحكةً أخرى وتمتمْتُ مع نفسي: فيلم هندي ما أراه الآن، آلهة يتناقشون على الصّلاحيات!

سألتُ دفعاً للإحراج:

ـ يعني مسموحٌ للإنسان أنْ يتّصلَ بالآلهة؟ فقد نسفتَ كلّ معلوماتي!

ردَّ «المزعنف» وهو ينظرُ بعينيّ:

ـ أنـت تقولُ إنسـان، يحتاجُ هذا المفهـوم للتّوضيح، فمن هو الإنسـان؟ سـتفهم ذلـك فيما بعـد، لكنّـي سـأجيب أوّلاً عن سـؤالكَ: نعم مسـموحٌ مقابلـةُ الآلهـة، ولكـن ليس للجميـع، أمّا غيرُ المسـموح فهو اللقـاء مع من هو فوق الـتراب، لخطـورة ذلك.

شـعرتُ بخيبـة أمـل مما قاله، فقـد ظننـتُ لوهلـةٍ أنني سـأظفر بصورة تجمعنـي مـع الآلهـة أجعَلَهـا «بروفايل فوتـو» لصفحتي في الفيسـبوك:

أنـا في حـضرة الآلهـة: مـن اليمـين الإلـه إنكـي، صفاءالبغـدادي، الإله أبسـو..(كدتُ أقهقـه عـلى الخاطرة).

واصل مُحدّثي:

ـ انتهينـا الآن مـن تعريفـك عـلى عـالم المـاء، ولكـنْ أُريـد التّأكيـدَ هنـا وقبـلَ كلِّ شيء، عـلى أنَّ حضارتَنـا ـ وليس التّكنولوجيا فقـط ـ أكثرُ تطوراً مـن حضارتكم بأشـواط عديـدة. نحن متقدّمـون إلّا في مجـال واحد، وهو مجـال صناعـة القسـوة، كـما عَلِمتَ من قبـل، فنحـن لانمتلكُ أسـلحةً ولا نُجيـد اسـتخدامَ العنـف، لا الفيزيائـيّ ولا النّفسي وهـذا ما يُفسّرُ عزلتَنا. ولكـنَّ هـذا كلّـه ليس لـه علاقـة مبـاشرة بمهمّتـك، علينـا أنْ نُطلِعَكَ على التّأريـخ كـما كان، ووسـيلتُنا هي العـودةُ إلى الوراء أي: السّـفر عـبرَ الزّمن المـاضي! سـتعرفُ مسـارَ الزّمـن الحقيقيّ كـما كان فعلاً..

صِحتُ بصوتٍ بدا لي مُنطلقاً من أذنيّ لا من فمي:

ـ يا ربي! هل يمكن ذلك؟

ـ أجـل، سـتكونُ قـادراً عـلى ذلك بحـدود معيّنـة، وسـترى مقاطعَ من

أزمـان مختلفـة لكي تكـوّنَ فكـرةً واضحة عـمّا يُسـمّى بالتأريخ. سـنزودُك بجهـازٍ صغير تسـتطيعُ بواسـطته إيقافَ المقطـع وإرجاعه أو إنهاءه، نسـمّيه نحـن «جهـازَ تسـجيل الحيـاة» وليـس السّـفر عـبر الزّمـن. الزّمـن يعنـي نقـاط الخـطّ الحلزوني متّصلـة ببعضها، المـاضي والحاضر والمستقبل. نحن مـا زلنـا عاجزين عن السّـفر عـبر المسـتقبل. ولفهـم عمل الجهـاز يُمكنك مقارنتَـه بجهـاز الفيديـو الأرضي، فمنطقـهُ شـبيهٌ بمنطـق الفيديـو، أي: تسـجيل مـا يـراه أمامَه لكـنَّ الفـرقَ يكمـنُ في السّـعة والمـدى. في الفيديو التّقليـدي يُسـجّلُ الجهـازُ مـا يقـع في نطـاق العدسـة لاغير، وخـلالَ فترة التّشـغيل، أمّـا «جهاز تسـجيل الحيـاة» فيُسـجّلُ كلَّ شيء، ومنـذ بداية عالم الماء..

مـا هـذا الـذي أراه وأسـمعه الآن؟ «المزعنف» يتلاشـى من أمّـام عينيّ ويتحـدّث عـن فراغـات الـذرات دون أنْ أفهـم مـن تعليلـه شـيئاً والآن يتحدّثـون معـي عـن العـودة للـماضي. لم أتمكـن من كتـمان مشـاعري رغم ثقـل لسـاني فقلت:

ـ يعنـي، سـامحني عـلى صعوبـة فهمـي، هـل أسـتطيعُ اختيـارَ أحـداث التأريـخ ورؤيتهـا عـلى حقيقتهـا بشـخوصها؟ وهل فعـلاً أسـتطيعُ إرجاعَ وتقديـم الأحـداث كـما في الفيديو؟.

هذا لا يُصَّدق!

ـ نعـم، ولكـنْ ضمـنَ نطـاق مهمّتِـكَ. سـترى تأريـخ تَشـكُّل مجتمعنـا المائـي ونختـار الضحايـا الذيـن عَرَفتَهـم أو قـرأتَ عنهم وبقدر مايسـمح بـه الوقـت. لا يُمكنك مثـلاً متابعة واقعـةٍ مثلَ «حرب البسـوس» لأربعين سـنة، أو متابعة حصـار مثل حصار «نبوخـذ نصر» لمدينة صـور. عموماً لا يوجـد في تأريخنا مثـل هذه الوقائـع العنيفة الطّويلة. سـترى مـا تُريد رؤيتَه

وتصـدّقُ، لكنّـك سـتكونُ في بُعـدٍ آخـر مـن أبعـاد الحـدث، فـلا يمكنُكَ الاتصـال بصانعيـه، ولا يمكنُهـم الانتبـاه لـك. في فيلـم الفيديـو أيضـاً لا يمكنـك محـاورة مـن تـراه، مثـل الفيديـو سـيد «صفـاء»، مثـل الفيديـو تمامـاً. هـو الواقع كما كان بالأبعـاد والألوان والصّوت والضّـوء والظّروف الجوّيـة! حتّـى أُسـهّلَ عليـكَ فهـمَ الأمـر، يُمكنـك النّظـرُ لليـوم الواحـد زمنّيـاً باعتبـارهِ مجموعةَ طاقـاتٍ مُختلفة. فالنّـاس المتحرّكون، والسّـيارات، وحفيـف أوراق الأشـجار التـي تُحرّكُها كلُّهـا طاقةٌ حركيّة، وعـزف الفرقة الموسـيقيّة، وشِـجار المتشـاجرين، وصـوت القطـارات، وصـوت أجراس المـدارس طاقـةٌ صوتيّة، وحـرارةُ الشّـمس، ولهيبُ الأفران، والحـرارة التي تطهـو الطّعـام هـي طاقـة حراريـة. أي: أنَّ كلّ مايحـدث ولا يضيّـع طاقةً. و«جهاز تسـجيل الحياة» يعملُ بمبدأ اسـتعادة الطّاقة وتسجيلها، لهُ القدرةُ عـلى البحـث عنهـا واسـتعادتها كـما كانـت. الجهـاز إذنْ يُسـجِّلُ ما يقيسُـه كطاقـة. أُدركُ أنَّ مـا أقولهُ صعبُ التّصديق، لأنني بسّـطتُ العرضَ إلى حدٍ كبـير و تجنّبـتُ الحديـثَ عـن العناصر التـي لم يكشـفْها علمُكم لحـدِّ الآن.

ـ أشعرُ بثقلٍ في رأسي، تريدني أن أُصّدقَ المستحيل!

ـ أنـا لا أُريـدُ منـكَ تصديقَ ما أقـول، أنت من سـيصدقُ بعـد أن يرى. جولتَنـا ستشـملُ ضحايـا المجتمع البـشريّ الذين يسـكنون أحياءً حسب ظـروف نزولهـم، هل أنت مستعدٌّ؟

قبـلَ كلِّ شيءٍ هـذا جهـاز التّحويـل اللّغـوي، سـيمكنُك مـن الـكلّام بلغتـك وسـماع غَيركَ بهـا. سـيتمُّ كلُّ شيءٍ تلقائيّـاً. خلالَ جولتك سـتطّلعُ عـلى أحياء عـالَم النّهر..سـتراهم جميعـاً إنْ أسـعفَكَ الوقتُ، يُرافقُـك دليلٌ يُسـهّلُ لـك فهـمَ غوامـضِ عالمنـا، ولديـك حريّـةُ توجيـه أيِّ سـؤال له.. سـتبدأ مـن «حـيِّ المغدوريـن والمقهوريـين» بعـد أنْ أُعرِّفَكَ عـلى الدّليل.

غُصْـتُ مـرّةً أخـرى ببحـيرة من الخـدر العام. لم أعـدْ أرى أو أسـمعُ أو أحسُّ بـأيِّ شيءٍ.

ـ إلى أنْ يتـمَّ تجهيـزُ الكـود، يُمكنُـكَ الاطـلاعُ عـلى سـجل الدّخـول، هـو تسـجيلٌ لأولى إفـادات الغرقـى، بعضُها قصـير، وأخرى أطـولُ، لكنّ ميّزتهـا كلّهـا، أنّهـا عفوية.

تفضـلْ، جهاز التّحويل سـيترجمُ لـك مباشرةً..هؤلاء جزءٌ من سـكّان الأحيـاء ربّما سـترى بعضَهـم فيما بعد..

وضعَ «المزعنف» أمّامي سِجّلاً كبيراً بعنوان:

إحكِ للماء قصّتك!

شهادة رقم 1

أيّهـا الماءُ!أيُّهـا السّـاترُ! تركنـا الأرضَ باكـينَ ولم نكـنْ نعلـمُ شـيئاً عن عدالـةِ الماء .

شهادة رقم 2

نجـوتُ مـن المذبحـة ،لأنّي سـقطتُ مرعوبـاً عـلى الأرض، فحسـبوني ميْتـاً وتركوني مشـغولين بغيري! هـل كانَ كمينـاً؟. لا أعرفُ، كنّـا عائدين مـن عمـل شـاقّ في «اللّطيفيّـة». كنّـا أكثـرَ مـن أربعـين فـرداً، معظمُنـا نامَ عـلى أرضيّـة القلابـة غـيرَ آبـهٍ بوسـخها، مثـل الأبالسـة، فجأة وجدناهم أمّامَنـا، توقّفـتِ القلّابـة، صعـدوا إلى حيـثُ كُنـا، أوقفـوا السّـيارة قِبالـة جَـرف النَّهـر أمطرونـا بالرّصـاص، وقلبـوا حمولتَهـا في المـاء، مـن لم يمتْ بالرصّـاص مـاتَ غرقـاً! آخ.. وأنـا أغـوصُ في طـين النَّهر داهمتنـي رائحةُ دمٍ ثقيلةٌ..كـدمِ جامـوسٍ طـازج..

شهادة رقم 3

أينَ يبولُ السّكرانُ؟.

نحنُ أمامَ النَّهر لا نكذبُ، نقولُ الحقَّ ولو على أنفسنا. هكذا علَّمَنا «إنكي»، ولهذا حكيتُ حكايتي كما كانت وكما أتذكرُها دونَ تحفّظ ولا إغفالٍ لأدقّ وأصغرِ تفصيل.

سهرةُ اللّيلة الأخيرة في حياتي على الأرض كانت في الحفل السّنويّ لنادي المهندسين..في عمقِ تلك اللّيلة الرّبيعيّة، صافية السّماء، كنتُ عائداً من قاعة «الرّباط» إلى شقّتي الصّغيرة ماراً بشاطئ «دجلة». كنت منتشياً حينَ تخطّيتُ عتبةَ باب قاعة الاحتفال، وتركتُ ساحةَ «المغرب» خلفي مُغادراً، قُلْ مُترنّحاً لايغيّرُ ذلكَ في طبيعة الحدث، أينَ يترنّحُ المرء إنْ لم يفعلْ ذلك في بلاده؟ عُدتُ إذن مُترنحاً ولكنّي كنتُ مُسيطراً على خطواتي، ومحترساً ألّا أُلحقَ أذىً حتّى بنملة، صحيحٌ أنّني لم أكنْ قادراً على تمييز مايدبُّ تحتَ قدمي لكنّي لم أكنْ أنوي إيذاءَ مخلوقٍ ما دامتِ الأعمالُ بالنّيات!

ريحُ منتصف اللّيل تعزفُ لحنَ الوداع على أوراقِ شجر الغَرَب النّعسان..أنا الآن نصفان، هدوءٌ وغضبٌ، مثل حفلة هذه اللّيلة فرح وحزن، نِصفان مُتماثلان يتصارعان، تكفي ذكرى صغيرة واحدة لتُطيحَ بأحد النّصفين، كم مّرةٍ خالجني هذا الشعور! لا أنا راضٍ تماماً ولا أنا رافضٌ بالمطلق، بل أتأرجحُ بينهما، أنْ أتكدّرَ فجأة أو أفرحَ فجأة، كان الدّفءُ يافعاً يتقافزُ في الطّرقات صبياً لم يبلغْ مرحلةَ الحرّ بعدُ، فنيسانُ هو شباب السّنة. الشّمسُ التي نامت الآن، تعيشُ أيّام صباها، والأشجارُ ما زالت منشغلةً بالاحتفاء بأوراقها اليانعة الجديدة. حتّى أنا الزّاحفُ لبّوابة الأربعين أشعرُ بقوى الشّباب تسري من جديد في جسدي بعد جملة السّكرتيرة «رباب»:

«زغران عشر سنين أستاذ اليوم»!

سأُكملُ الآنَ رحلـةَ التّجوال اللّيلي على شـاطئ النَّهـر وأنقلُها لكم كما أتذكرُهـا. توجّهـتُ مُتمهّلاً لشـقّتي الفارغـة بالصّدفة تلك اللّيلـة، وأتذكّر بجلاءٍ كلَّ دقيقة مـن تلك النّزهـة اللّيلّيـة. أتذكّرُ المنولوج الذي انشـغلت بـه وأنا أتهـادى مع مـاء النَّهر:

ياسـلام! دجلـةُ يبقـى دجلةَ حتّـى وهو مريـضٌ عليل. ربّـما كنتُ أمشي الآنَ عـلى خُطـى «هـارون الرّشـيد» عندمـا كان يتفقّـدُ رعيّتَـه في جولتـه التّنكريّـة، مـن يـدري؟ لكـنْ صحيـح... أيـن اختفـتْ قصـورُ المنصـور والمهـدي والرّشـيد والمعتصـم والمأمـون والبرامكـة والمتـوكلّ؟ كلُّ تِلـكَ الحيـاة الصَّاجـة بـآلاف الجـواري والقيّـان أين اختفَـتْ؟ أين هـي دفوفُهنَّ ومزاميرُهـنَّ وأعوادُهـنَّ؟ أين هي خدورُهـنَّ وخماراتُهنَّ؟ بـل أين هي ربعُ مليـون سـيف، تَقاتـلَ بهـا جيشٌ عرمـرم بمعركة صفـين؟ نُريد خمسـةً منها للمتحـف، فـلا نجد، اتـركِ السّـيوفَ، أين هو هـودجُ الحديد الـذي ركبتْهُ «عائشـة بنـت أبي بكـر» عـلى جمَلهـا في معركـة الجمَـل؟ دع عنـك الهودج، أيـن هـو الجمل؟ أين هـي أيها الكذّابـون..كلّ شيء في هذه البـلاد كاذب.. هـا «عـلاء» سـكرت ورب الكعبـة تبحـث عـن جمل عائشـة بعـد أكثر من الـف ونصف الألـف من السـنين!؟

كنـتُ سَـكراناً لا أعـي ما أقـولُ وبديهـيٌّ أنني لم أكـنْ أفكّرْ بـأن كلّامي سـيكونُ مسـموعاً، لم أكـنْ أُفكّـرْ بأنَّ هنـاك من يتتبّـعُ خطاي..

نقّلـتُ خُطـاي بتـأنٍّ، كـي أُبرهـنَ لنفسي أنّنـي لم أعدْ سـكراناً بعـد أنْ اسـتقرَّ أكثرُ مـن ثلاثـة أربـاع اللّـتر مـن الويسـكي الاسـكتلندي بجـوفي وتـسرّبَ إلى خلايـاي ليصـلَ إلى أطـرافِ أصابـع قدمـيَّ. تلك هـي علامة الانتعـاش والرّفاهيّـة، تـأكلَّ حتّـى الشّـبع، وتسـكر حتّـى أصابـع القدم. تكـرعُ الـكأسَ حتّـى الثمّالـة، برهـنْ لهم يا «عـلاء»! أنَّـك لم تَسـكرْ قُلْ لهم

مـا هـي الثَّمالـة بالإنكلّيزية؟ heeltap، عفية! شـاطر، شـاطر بس من أين تـأتي بالحـظ؟ المهـمُّ أنَّـك الآنَ صاحٍ رغـم أنَّ الكحـولَ وصـلَ إلى البصيلة السيسـائيّة، سيسـائية؟!، كأنّـه اسـمٍ مؤسّسـة دينيّـة، حيـاتي مـع الشّـلّة ستكشـفُ لي نفسي، إذا أردتَ أنْ تـرى نفسـك انظر في المـرآة! لا، صارت زحمـة، هـذا اكتشـاف خطير، لا هـذا قولٌ حكيـم، أنت لاترى نفسـك على حقيقتهـا إلّا عـبرَ غـيرِك، وحدهم مَنْ سـيخبرك بحقيقتك، هـم المرآة!، لو سـمحوا لقـدتُ إلى بيتـي، «ربـاب» المحاسـبة الناعمـة التـي ودعتنـي قبل سـاعة بنظرة مبتسـمة:

«مع السّـلامة أسـتاذ، زغران عشر سـنين اليـوم!» نعم لقُدْتُهـا، كم تبدو المفـردة في محلّهـا؟ « قدتهـا»، أنا قـوّاد إذنْ! أقودهـا إلى غرفتي لكـي أبرهنَ لهـا صحّـةَ نظريتهـا بعـودتي إلى الـوراء عـشر سـنين، «الرّئيـس» وجـوده زائـد، أمّـا ربـاب فوجودهـا ناقـص! خـذِ الفصاحة مـن أفواه السُّـكارى، مـا يُقلقنـي قـوى الطبيعـة النيسـانية المتفجرة في أعـماق «ربـاب» وأعماقي، هـذان المـاردان الكامنـان بهـما اللـذان يتمنيـان لاشـكَّ اللّقـاء في ليلـة على دجلـة، ليلـة كهـذه، ولكـنْ دعْـكَ مـن «ربـاب» الآن، لم تكـنْ شـجاعاً، فتدعوهـا صراحـة لإكـمال السّـهرة عـلى شـاطئ دجلـة كلّ شيء فيهـا كان يـصرخ، تبقى غشـيماً، تبقى المـرأة عصيّةً عليك، يـا حظّي! ميوعـة كلّماتها، ثـمَّ هـذه العـشر سـنين الهديـة التـي أَنعمَـتْ بهـا عليك مـا ضرورتهـا لو لم تكـن إشـارة إلى رغبتهـا؟. «عـلاء» لا تتقحبَنْ، أنـتَ الرزين، بـماذا تختلف عـن «المسـؤول» إذن؟ الذي ينظرُ للنسّـاء بمنظـار ثور، يرى أبقـاراً، وأنتَ تُعـري زميلتـك من ثيابهـا بخيالـك وتحـوّر كلّماتهـا اللطيفة التـي جاملتْك بهـا لتجعـل منها دعـوةً فاحشـة، لا، لا، أنت سـقطت «علاء»! إذا سـقط السّـياسيُّ أصبح جاسوسـاً وإذا سـقط المُحّـب أصبح قحبجيـاً. اتركنا الآن مـن «رباب».

مشكلةُ المشاكل أنّني تلفظتُ بهذا الهذيان بينما كانَ شرطيُّ الأمن السّريِّ ورائي يتتبّعُ خُطاي، لم يُعلنْ عن نفسه، تركني حتّى عبرتُ الشّارع ثمَّ وصلتُ حائطاً مُعتماً فرأيتها فرصة السّكران الذي لا يجدُ مكاناً يقضي فيه حاجته..

فجأةً وجّهَ «بروجكتر» ضوءاً ساطعاً إليَّ وكاد قلبي أنْ يتوقّفَ! كيف لي أنْ أعرفَ في الظّلام الحالك حيثُ الكهرباءُ ماتتْ منذُ مساءِ أمسٍ أنّها جدارية السّيّد الرّئيس؟ وكيفَ لي أنْ أعرفَ أنْ ساهراً يرمقُ الموضع من بعيد، مَهَمَّتهُ صيدُ السّكارى المتبّولين على سيادته؟ سَمِعتُ السّاهر يصيحُ:

قفْ!

داخلني رعبٌ فهربْتُ ولم تمضِ دقيقةٌ حتّى وجدتُ الشّارعَ وقد احتلَّتهُ سيّارات الشرّطة بأضوائها الزرّقاء الوامضة، وضجيجها المرعب واو واو واو واو . قلتُ لنفسي ماهي عقوبةُ المتبوّلِ على صورة الرّئيس؟

أولاً، التّعذيب حتّى مشارفِ الموت، ثمَّ الموت..كلُّ الجهات مغلقةٌ إلّا جهةَ النّهر، ركضتُ نحوَه مُستنجداً فوجّهَ أحدُهم نحوي مصباحاً كاشفاً..ثمَّ، وقبل أنْ يلامسَ جسدي الماءَ، سمعتُ أزيزاً يهزُّ الهواء َالمجاورَ لأذني...تتتتتتت..تتتتت

شهادة رقم 4

لم أفعلْ شيئاً سيدي! كنتُ أتمشّى على الشّاطئ وفوجئْتُ بسيّارة نجدة تتوقّف فجأةً على مقربة منّي وشخص يُشير إليَّ:

هو الذي فعلَها، ذاك هو!

ـ ما الذي تفعلُه بعدَ منتصف اللّيل في هذا المكان الخالي من البشر، إنْ لم تكنْ قد ارتكبتَ جريمةً ما؟

ـ كنتُ عائداً من حفلة عرس، إسألوا الحاضرين.

ـ سألنا وقالوا أنَّك غادرت الحفل قبل نهايته، أيِّ خرجتَ لتنفيذ الجريمة حتّى لا يشكَّ بك أحد..من اشترك معك؟

ـ لا أحد، وأنا لم أفعلْ شيئاً.

ضربوني وعلّقوني بالمروحة ساعتين من معصميَّ، ثمَّ غطّسوني في النَّهر، ولم أعدْ أُحسُّ بشيءٍ، فسمعتُ واحداً منهم يقولُ: لقد مات، سيّدي.

ردّ آخر: إملأ كيسَ خيش بالصّخور واربطْهُ إلى قدميه ..

لم تمضِ لحظاتٌ حتّى استقبلني النَّهر.

شهادة رقم 5

الذي أتذكّرُه ملامحَ أُمّي عندما انحنَتْ لتلمسَ جبهتي الحارّة، كان الوقتُ ظُهرَ خميسٍ قائظٍ، وحدائقُ قناة الجيش يغمرُها حرُّ الشّمس من كلِّ جانب. كانتِ الأشجارُ الغضّةُ قصيرةَ القامة مثلي ومثلَ «اسماعيل» وقليلةَ الأوراق، لا طاقةَ لها على حماية الرّأس، والجسد من غزو الأشعّة اللّاهب، فبقي المكانُ مُقفراً . قير الشّارع الصّاعد للجسر ينفثُ أنفاساً مُتعبةً متموّجةً و«اسماعيلُ» مثلي يَمسحُ العرقَ السّائل على جبهته وخلفَ أُذنيه ويعدُني بأنَّ ماءَ القناة سيطفئُ هذا الحرَّ:

ـ عندما ستغطسُ في الماء لاتودُّ العودةَ ثانيةً إلى هذا اللّهب.

قبلَ أسبوع بالضبّط ضَحِكَ زُملائي من جوابي للمعلّم:

ـ أستاذ أنا لا أعرف السباحة!

ـ لماذا لا تتعلّمُ؟

ـ لأنّ أبي يمنعُني، قالَ..الماءُ خَطِرٌ.

ـ النبيُّ قالَ: علّموا أولادَكُمُ السّباحةَ، وركوبَ الخيلِ، إذا بقيتَ متهيّباً صعودَ الجبالِ فستعيشُ أبدَ الدّهرِ بينَ الحفر.

قال «مؤيد»:

ـ أستاذ! أبي قال: إنَّ التلاميذَ في الخارج يدرسون السّباحةَ في المسابح ويمتحنُهم المعلّمُ.

ـ في المسابح؟ نعم، لأنَّ اللهَ لم يُنعمْ عليهم في الخارج بدجلة، والفرات، نحنُ بلادُ النَّهرين..

ثمَّ سأل المعلمُ:

ـ من يُجيد السّباحةَ ويُمكنهُ تعليمَ «سعد» خلالَ شهرٍ؟

رفعَ أكثرُ من نصف الحاضرين أيديهم، لكنَّ «اسماعيل»، زميلي الذي يُرافقني في الذهاب والأياب قال للمعلّم:

ـ أنا أُعلّمُه، إنّنا نسكن في الشّارع ذاته، عمّي بطلُ الجيش بالسّباحة.. أنا أعلّمه!

ـ أُريدهُ مثلَ عمّك، سيكونُ في الشّهر القادم سبّاحاً شُجاعاً.

كلَّ مرّة كان «اسماعيلُ» يحاولُ إغوائي بمرافقته إلى النَّهر، لكنّي أخافُ الماءَ، وأخافُ غضبَ أبي الذي سيعلمُ دونَ شكٍّ بأنّي كنتُ هناك.

كانتْ حرارةُ الأرض تملأُ خياشيمَ المكان، وآذانه، حتّى لو صرختَ من أعماق حنجرتك مثلَ ما فعلتُ أنا:

يا ناس اسماعيل غرق!

لا أحد سيسمعُ، لأنّ لا أحدَ يجيءُ إلى هذا المكانِ في هذا الوقت من الجحيم، حتّى لو صِحنا معاً بعدَ أنِ انزلقتْ قدمي، وغِصتُ إلى جانبه:

يا ناس! أنا، واسماعيل غرقنا.

لا أحد سيجيء لنجدتنا، لأنَّ الوقتَ، وقتُ نوم الظّهيرة المقدّسة. غصنا سوّيةً إلى قاع القناة، أردتُ أوّلَ الأمر أنْ أقولَ لاسماعيل إنَّه خدعني، فهوَ لا يعرفُ كيفَ يصيحُ طالباً النجدةَ ثمَّ أردتُ أنْ أقولَ له إنَّه كان يجبُ أنْ يحكيَ لي عن الغرق، لكنَّ الماءَ الذي سدَّ بلعومي منعني، وغاصت الكلّماتُ إلى أسفل ولم أعدْ أرى «اسماعيلَ» الذي تهادى مع موج الماء لاعباً مع الأسماك والطّحالب الصّغيرة بينما عَلِق بنطالي بجذورِ شجرة فبقيتُ وحدي الليّل كلَّه. ليلُ الماء مخيفٌ بلا مصابيحَ ولا أغطية، وبوشوشة لاتنقطع كنتُ خائفاً من قدوم الصّباح حينَ سيُقبلُ أبي بملامحِ وجهه الغاضبة:

ـ أين كُنتَ يوم أمسِ؟

ـ في ..في ..في المدرسة.

ـ كذّاب، وبعد المدرسة؟ دعْني أحكُّ معصمَك..أرأيت؟ كنتَ تسبحُ في النَّهر، ذاتَ يوم تأتي بك الإسعاف غريقاً، وستبقى أُمُكَ باكيةً طولَ الدّهر.

ثمَّ رأيتُ أمي! هرعَتْ إلى حيث أنامُ هَلِعةً ثمَّ وقفتْ مثلَ المخبولة تُحدّقُ مرعوبةً بجثّتي الصّغيرة المنتفخة، وبقايا شعرها المنكوش تنسدلُ على وجهي. لم أستطعْ فتحَ فمي، لأقولَ لها: أنّني وضعْتُ حقيبتي المدرسيّة تحتَ الشّجرة القريبة من الأرجوحة في حديقة «قناة الجيش» وإنّني لم أغرقْ وحدي، فمعي غَرِقَ اسماعيل.

شهادة رقم 6

أحلامُ العاشقة المغدورة.

«أمّا أنا أوستكونين من سكّان القبور»

هذا هو تهديدُ محسن ابن خالتي!

ـ محسن! نحنُ تربيّنا في بيتٍ واحد، لا فرقَ بينَك وباقي إخواني، والبنات يملأنَ الجامعة..

لا أحدَ يفهمُ الأمرَ، أنا وحدي مَنْ تفهمُه، أينما ذهبتُ تملأُ أسماعي الكلماتُ ذاتها:

«ما به محسن؟ هذا هو لعبُ بناتِ هذا الزّمان، ابنُ خالتها وحالته مرموقةٌ، ماشاء اللهُ! ومستقبلهُ يبرقُ مثلَ نجم سهيل».

.. إنَّه لايريدني، ولكنْ كيفَ بوسعك إفهامَ هذا المجتمع العصابيّ؟ أنَّ محسنَ يُريدني لأنيّ لا أُريدُه، ولأنّه اكتشفَ علاقتي بمازن، لذلك يُريدُ استخدامي كبرهان على أنَّ ما يُريدُه سيحصلُ عليه، ومِنْ غيرِ المُستبعد أبداً أنْ يعمدَ لفسخ الخطوبة بعدَ أيّام، لطمري نهائّياً تحت ثقلِ فضيحةٍ لا وجودَ لها، كأنْ يقول: كان لديّ تصوّرٌ آخرُ عن أخلاقها!

انتهى، هذا هو منهجُه في الحياة. يستحوذُ على كلِّ شيء ومَنْ لايطاوعُه يلويه، ويدعس عليه بأقدامه..

منذُ شهرين، وهو يبعثُ برسائلِ تهديدٍ مجهولةِ المصدر لمازن. أقنعْنا أنفسَنا بأنّنا نعيشُ زمنَ الحقوق، والمحاكم، فجمعْنا هذه التّهديدات الخطّية والصوتيّة وقدّمها مازن ضمنَ شكوى قضائيّة. سأله قاضي التّحقيق السّؤال التقّليدي: هل لديَّك شكوكٌ أو إثباتاتٌ غيرُ مباشرة عن مصدر التّهديد؟. صمتَ « مازن» فعرف القاضي الفطين أنَّ الذي يهدّدُ ذو نفوذ، فقال:

احترسْ يا بُني! وحافظْ على التزامك بالقانون!

عندما سمعتُ منه ذلك قلت في نفسي، ها نحن الضحايا نقترب من أنْ نكون جناة. الضحية مُطالب بالاحتراس في غابتنا هذه!

كنتُ أُقلّب مع نفسي مايمكن أنْ يلجأ له « محسن »، لكنني لم أتخيّل أنّ هذا المخلوق النجس بعد أن تيقن أنني لن أُذعن له سيكون نذلاً لهذا القدر! وأنتم أيضاً لا يمكنكم تخيَّل ما فعل.

ماذا فعل؟ أجدني عاجزة عن سردِ ما حدث:

ما أتذكّرهُ أنّني كنتُ عائدةً من زيارةِ صديقةٍ محاميّة، كانت متعاطفةً معنا ولم أنتبهْ لنفسي إلا مرميّة في بستان، لاعلمَ لي بمكانه. كُنتُ مُدمّاةً.. اعذروني.. لا أستطيعُ المضيَّ أكثرَ، مُخيّلاتُكم كفيلةٌ بإتمام سيناريو قصّة الرّعب هذه، بعدَ مرور بضعةِ أشهر، ويتكوّرُ البطنُ ..وتتعالى الهمساتُ..

لم أكنْ قدْ متُّ بعدُ، عندما دَفعَتْ جسدي كفّان قوّيتان ألحقتْهُما ركلةٌ قويةٌ، وقعتُ على عظم العصعص ثمَّ حملني الماءُ الباردُ برهةً. بقبقتِ الفقاعاتُ حولَ أذني «بقَبقبقبقبق»، ومثلَ ريشةٍ هاربةٍ من صدر حمامة هبطْتُ. لمسَ ظهري قاعُ النّهر..كنتُ خائفةً، في ذات المساء رويتُ للنّهر قصّتي.

حي المغدورين والمقهورين

وبعـدَ فترة، لا أعرفُ كم طالـت! كانَ دليلٌ، مزعنفٌ شـابٌّ بانتظاري، قُـدِّم لي باسـم «بيـلاج بـو» صافحنـي، ثـمَّ وضـعَ عـلى راحـة يـدي علبـة صغيرة:

ـ كـما تـرى، ظاهرّيـاً يُشـبهُ «جهـاز الزّمـن» إلى حـدٍّ كبـير، العدسـات اللّاصقـة التّقليديّـة المعروفـة عندكـم. رقاقـةٌ لا تـكاد تُـرى، لكنَّـه جهـازٌ معقّـد، رُكِبّـت فيـه آلافُ الدّوائـر المتكاملـة. لن ترى مـن خلاله العـالمَ أو مـا يوجـد أمامَـك مُكَـبَّراً، أو قريبـاً، أو واضحـاً مثـلَ العدسـات، بل ترى مـا ترغبُ في رؤيته بواسـطة ريمـوت كونـترول، يتحكّم بالحِقَـبِ الزّمنية. عندمـا ترفـعُ العدسـاتِ عـن عينيـك تـرى الحيـاةَ الحاليّـة، أيْ: مـا يجـري الآن، افتـحْ عينيـك لو سـمحت..

فتحـتُ عينـيّ وأحسسـتُ بحرقـةٍ خفيفـةٍ كأنّـما لامسـتْ باطـنَ عينـيَّ قطـرةٌ عينيـةٌ حارقةٌ، تضبَّبـت عيناي ببخارٍ حـارٍّ، وبعدَ برهة تـمّ كلُّ شيء.

ـ أنـتَ جاهـزٌ الآنَ! سـأُفعّلُ الجهـازَ، نحـنُ الآن في الطّريـق إلى «حـيِّ المغدوريـن والمقهوريـن».

كنـتُ مـا أزال مبهوراً بما رأيتـه في طريقنا المائيّ. رأيتُ ماءَ سـطحِ النَّهر مُعكّـراً لكـنَّ أعماقَـهُ صـارت صافيـةً كعـين الدّيـك، شَـفّت عن أحَشـائهِ، فبانـت طيـورُ مـاء وأسـماكٌ، وضفـادعُ، وسـحالي، ورؤوس بـطّ باحـثٍ

عـمّا يأكلُـهُ، وسـلاحفُ، وثعابينُ، تـروح وتجيءُ بنشـاط وخفّـة. كانَ عالماً زاخـراً بالألـوان والحركـة. لا أعرف كـم من الوقـتِ مضى قبـل أنْ ألتفتُ إلى اليمـين حيـث انتصبـتْ جداريّـةٌ عملاقة خُـطّ عليها:

الوعدُ دينٌ، والموعد وثاق يشدُّ اثنين.

ثم انتبهتُ إلى صوت الدّليل:

ـ وصلْنـا، لنجـرّبْ مثـلاً فـترةَ العصـور الوسـطى حتّـى القرن التّاسـع عـشر، اضغـطْ هنا للتّحكّـم بالفترة الزّمنيّـة، انظرْ، نحنُ في أعـوام محصورة بـين تأريخـين، (1621ـ1895) في تلـك السّـنين فـاضَ دجلـةُ، والفـرات مِـراراً، فعانـى سـكّانُ بغـدادَ خاصـةً، حلّـت المجاعـةُ، وخرّبـتِ الأحيـاءَ والبلـدات، وقـد جرفَـتِ الميـاهُ آلافـاً كلُّهـم مـن الفقـراء، والمقهوريـن فسـكنوا تلك البيـوتَ التي تراهـا في مقدّمة هـذا الحيّ..بإمكانـكَ التّوقّفُ عنـدَ عـام معيّن، ومشـاهدة الحيـاة بالتّفصيل..لو أعـدْتَ الزَّمـنَ إلى الوراء قليـلاً، نعـم، مثـلاً هذه، فـترة القـرن التّاسـع الميـلاديّ، هذا الرّجـل الذي تـراهُ واقفـاً إلى يمـين الباب هـو من أعيان الحيّ اسـمه «الحسـين بن منصور الحلّاج»..

صِحْتُ:

ـ الحلّاجُ، المتصّوف؟

واصلَ الدّليلُ:

ـ لاشـكَّ أنّـكَ قـرأتَ عنـه، اتّهمَهُ الخليفـةُ المقتـدرُ بالله بالكُفـر، وحكمَ عليـه بالمـوت، فـضرُبَ نحو ألـف سـوطٍ، وقُطعـتْ يـداه ورجـلاه، ثـمَّ ضُربـتْ عنقُـه، وأُحرقـتْ جثّتـهُ بالنّـار ثـمَّ أُلقـي مـا بقـيَّ من تـراب جثّته في نهـرِ دجلـةَ، فصنعـت آلهـةُ النّهر مـن عجينتـه حلّاجـاً جديـداً وانتُخبَ ليكـونَ مختـاراً لحـيِّ المغدوريـن والمقهورين. حَـرِّكِ الجهازَ قليـلاً إلى الوراء

لـو سـمحْتَ..لحظة واحـدة، عُدتَ قرنـين للخلف، هـذا الشّـيخ المنهمك بحديـثٍ مـع صبيّـين هما مـن تلاميـذه، يبدو أنّهـما من أعيـان الحـيّ أيضاً، اسـمه «صالـح بـن عبد القـدّوس بن عبـد الله». إنَّـه من أهل البـصرة، كان يجلسُ للوعـظ، ويقـصُّ الأخبـارَ، لم تُعجـبْ طريقتُـه في الوعـظ الخليفـةَ المهـديَّ فاسـتقدمَه، لكنَّـه أحسَّ بنيّـة الخليفة، فهـربَ إلى دمشـقَ، وتوارى بهـا زمنـاً، فلـمّا عَـرِفَ المهـديُّ مكانَـه، وجّـهَ إليـه قريشـاً الحنظـليَّ، فقبضَ عليـه وجـاءَ بـه إلى بغـدادَ، فحاكمـه المهديُّ ثـمَّ قتلـه سـنة 777م، وصلبَهُ عـلى جسر بغـدادَ وبعدهـا أُلقيَ بـه إلى النَّهر، فأعـاد الإله «إنكـي» صياغتَه مـن جديد..

يُمكنُـكَ الآن تسريـعَ التأريخ بـما يتناسـبُ مـع وقتنا، فالمسـاءُ أوشـكَ عـلى الحلـول، وطاقتُـك قاربـت عـلى النّضـوب كـما أرى، اضغـطْ بحيـثُ تصـلُ خمسـينيّاتِ القـرنِ العشريـن، نعم..هنـا بالضبّـط.

قُطِعـتْ أنفـاسي، وأنـا أرى شـخوصَ المـاضي كما هـم! و شَـغِلَ تجمهرٌ وسـطَ الحـيّ انتباهي فسـألتُ:

ـ ولمـنْ هـذا النُّصبُ الذهبـيُّ الذي يُرفـعُ عنه السّـتار الآن وسـطَ هذه السّـاحة، وينشـغلُ الجميـعُ بالتّصفيـق، والهتـاف لـه؟ أرى هيـكلاً يمثّـلُ شـخصاً ينْكَـبُّ عـلى قـراءة شيء بيديـه!

ـ آه، أنـتَ ضغطْـتَ على الزّر دونَ أنْ تنتبهَ، سـارَ الزَّمنُ قروناً إلى الأمّام، بالضّبـط 1190 سـنة هـو الفرقُ بين المشـهدين، مـا تراهُ هو نصبٌ لأسـتاذ جامعـيّ، ينبغـي أنْ تكونَ قصّتَـهُ معروفةً لك، هل أنـت من بغداد؟

ـ نعـم، أصـلي مـن أطـراف بغـداد لكنّي عشـتُ شـطرَ حيـاتي الأكبر في بغـدادَ المدينة.

ـ كانَ صاحبُ النُّصب عميداً لكلّية قانون أهلّية في بغداد، في نهاية ستّينيات القرن العشرين، بالتّحديد في عام 1967 حين سجّلَ شخصٌ مشاكس ـ سيكون مُهمّاً بعد عامين ـ اسمَه في كلّية القانون الأهليّة ببغداد التي كان هذا الأستاذُ عميدَها. وبعدَ عام حدثَ في البلاد ما جعلَ من الطّالب الشّقي غير المُهتمِّ وغير المُهمّ والذي لم يكنْ يحضر الدّروسَ، مصرّاً على التّخرّج بأيّ ثمنٍ كان! والقصّة أصبحَتْ مؤشّراً على دخول البلاد حقبةَ رعبٍ عندما صار هذا الطّالبُ الشّقيُّ بالتّدريج نائباً لرئيس البلاد وخرجَ اسمه للعلن على دفعات. كان لابدَّ أنْ يتخرَّجَ ويُنادى بالأستاذ دونَ أنْ يحضرَ الدّروسَ، أو يؤدّي الامتحاناتِ. هذا الهيكلُ الذي اكتمل، وأُزيحَ عنه السّتار الآن هو نَصبُ عميد الكليّة الذي اعترض على إعفاء الرّئيس المقبل من الحضور، ولم يوافقْ على مَنحهِ درجاتٍ دونَ أن يخضعَ للامتحانات..دخلَ الماءَ غريقاً مُلقىً بقناة الجيش بعد أنْ عاقبهُ الطّالبُ المُتسيّبُ دونَ تردّد، بقي في الماء يوماً وليلةً لكنَّ جثّتَه عادتْ إلى أهله لغرض تأكيد الجريمة. أمّا سكّان النّهر، فقد خلّدوه بهيكلٍ تذكاريّ..كان ينبغي أنْ يُخلّدَ على اليابسة كأوّلِ مُعترضٍ على الفساد في البلاد في عهد صدّام..

ـ تقصدُ أنَّ «الرّئيسَ» لم يكمل الدّراسةَ؟ سألتُ مندهشاً.

ـ لم يحظرِ الدّروسَ، لقد سجّلَ، على أمل أنْ يتخرّجَ بالقوَّة، وقد تخرّجَ بالقوة، وفعلَ كُلَّ شيءٍ لاحقاً بالقوّة.

ـ ولكنَّ النّاسَ لا يعرفون ذلك، يعرفونَه كمتفوّق، وأستاذ!

ردّ الدّليلُ مُبتسماً:

ـ كلّا ياصديقي! يعرفون أكثرَ من ذلكَ لكنّهم يُظهرون خلافَ ما يعرفون! جرِّبِ الآنَ ضغطةً بسيطةً خفيفةً بخنصرك حيثُ نبقى في القرن العشرين.

ضغطْتُ الزّرَّ بملامسته بخنصري، فرأيتُ كيساً يتدلّى في الماء، وصُراخاً مُختنقاً، ينبعثُ معَ فقاعاتِ الهواء التي تصاعدتْ هاربةً إلى السّطح.

ـ هذا فظيع! مَنْ هذا المسكينُ الذي يستغيثُ؟

ـ نحنُ الآنَ أمّامَ مشهدٍ في خمسينّيات القرن العشرين، في النَّهر الذي أسميتموه «الغَرّاف»، بالمناسبة التّاريخ الذي دوّنتموه، لم يكنْ مُنصفاً في الكثير من صفحاته، فلو أنّكم تسألون أيّ عراقيّ عن تأريخ نهر الغَرّاف لما عرفَ عنه أيّ شيء، ربّما لا يوجد من يعرفُ أنَّ النَّهرَ قد حُفِرَ في سنة 2003 قبلَ الميلاد، ليربط نهرَ دجلةَ بمدينة لجش! أمّا اسمُ الملك الذي حفرَهُ، «أنتيمينا» فلا تجدُ له اسماً في أيِّ كتاب مدرسيٍّ عراقيٍّ، أليسَ مِنَ العدل أنْ يُسمّى النَّهرُ باسم من أوجدَه؟ تمعّنِ الآنَ بالمشهد الذي تراهُ أمامك!

رأيتَ شيخاً واقفاً بعباءته المُذهّبة وعلى يمينه، ويساره مجموعةٌ من المعاونين، ومنَ النَّهر الذي كانوا يُحدِّقون به، تصاعدَ صراخُ مستغيثٍ.. بينما اصطفَّ على مبعدةٍ منهم مجموعةٌ كبيرةٌ من الفلّاحين بملابسهم المبلّلَة والملوثّة بالطيّن، حسِبتَهم هرعوا إلى المكان تاركين حقولَهم على أثر سماعهم صراخَ الاستغاثة.

سألتُ:

ـ ماالذي أراهُ؟ كأنّما أرى غريقاً، يُريد مِنْ هؤلاء إنقاذَه؟

ضحكَ « المزعنَفُ» بأسىً:

ـ يريدونَ إنقاذَهُ؟ عكْسَ ماتوقّعْتَ تماماً. إنّهم يريدون إغراقَه! إنَّه أحدُ فلّاحي «الحَيّ» وضعَهُ الشّيخُ بكيس خَيشٍ، وألقى به إلى نهر الغَرّاف، لأنَّه تسبّبَ في تلويث عجلاتِ سيّارته.

ـ كيفَ حدثَ ذلكَ؟ هل هاجمَ الفلّاحُ سيارةَ الشّيخ؟

ـ كلّا، كان هـذا مـن المسـتحيلات، قناةُ المـاء التي شـقّها الفلاح فاضت دونَ أنْ يـدري، وتَصـادفَ ذلـك مع مـرور السّـيّارة..وحصلَ مـا حَصلْ، فجمـعَ الشّـيخُ الفلّاحـين، وأمـرَ بوضـع الفـلّاح في الكيـس، وألقـى بـه في المـاء ليمـوتَ غرقـاً في النَّهـر! كان هـذا إجـراءً روتينيّـاً لـدى شـيوخ الجنوب..وهـا أنـتَ تـرى الفلّاحـين واجمـينَ لا حـولَ لهم!

حي العشّاق واللاشرعيين

قـادني الدّليلُ عِبرَ ممّـراتٍ ضيّقةٍ امتـدّتْ على جانبيها طحالبُ مُتشـابكةٌ ولمحـتُ سِربـاً من السّـمك الملوّن يسبحُ خلـفَ سـمكة بنيّة كبـيرة رَفَعتْ مـا يشـبهُ اللاّفتةَ. أثـارَ اهتمامي، وتحديقي بالـسّرَّبِ، فضولُ سـمكةٍ ذهبّية، زعانفُهـا حمـراءُ قرمزيّـة كانـت في أخـر الموكـب، فأوَمـأتْ إليَّ بالتّحيّـة. لم ألحـقْ سـؤال الدليـل عنهـا فقـد قطـع مشـاهداتي بإشـارة إلى كتـل معماريّة متناثـرة تمتـدُّ عـلى شـكلّ قـوس، بعضُهـا زهريّـةُ اللّـون وبعضُهـا الآخـرُ نـاريٌّ مبنّيـةٌ وفـقَ نمط بنـاء رومانـسيٍّ خلّاب:

ـ في الجانـب الأيمـن لهذا الحـيّ الذي سـأُعرِّفك ببعض معالمـه، يتجمع كلّ العشـاق المغدوريـن الذيـن قُتلـوا لأنهم عُشَّـاق. في الجانـب الآخر، إلى اليسـار يسـكن الوافـدون إلى عـالم المـاء، كالأطفـال غـير الشَّرعيـين الذين ألقـتْ بهـم أُمهّاتُهـم في النَّهـر اتّقـاءَ الفضيحـة، وبعـض ضحايـا العقـاب النَّهـري، الذيـن تعطِـفُ عليهـم الآلهـة، فتُنصفهـم. المسـاحة المُربّعـة بـين شـطّري الحـيِّ هـو «حديقـةُ الذّكريـات»، أي: متنَـزّهُ الحيِّ.

ـ لم أفهم المقصودَ بضحايا العقاب النَّهري!

ـ تعرفُ أنَّ النَّهر كان عقوبةَ تنفيذٍ لذنبٍ مثبتٍ، فقوانينُ «حمورابي» كانت مُغرمـةً بالماء. فعَاقـبَ الزُّناةَ و المتّصلـين بالمحارم بالرّمـي في النَّهر.. في مثل هكذا عقوبات كانَ المُذنبُ يُقيّدُ تقييداً كاملاً ويُلقى إلى الماء. جاءَ في ابتهال: «أيا ومردوك منحاك الحكمة لكي تفصلَ شخصّياً في قضايا البشر»

يعني أنَّ حكمَ النَّهر هو الحكمُ العادل. وحسبَ تلك القوانين، على المرأة التي يتهّمُها زوجها بالزّنا أنْ تبرّىءَ نفسَها بأغلظ الإيمان، وتستطيعُ بعدَ ذلكَ أنْ تعودَ إلى بيت أبيها، فإذا لاحقَتْها الشّائعات ولاكت سمعتَها الألسنُ، تُغطَّس في نهر، فإذا غاصت للقاع اعتُبِرت زانية، وإذا عامت كان ذلك دليلاً على براءتها. اسمع أكثرَ من أحكام الملك الإله أموراي[1]:

«إذا ضاجعَ رجلٌ زوجةَ ابنه يُقيد، وتُعصب عيناه ويُلقى في النَّهر»، هنا أيضاً لا مجالَ للنّجاة أمّا «إذا زنت زوجةُ الأسير فتُلقى في النَّهر»، وهنا لم يُجدِ القانونُ ضرورةَ تقييد المتَّهمة، بشكلٍّ ما تعاطف القانونُ مع زوجة الأسير التي قد يكونُ مرَّ عليها سنواتٍ طوال دونَ رجل! و إذا اتهّمَ شخص شخصاً آخر بأعمال السّحر، ولم يُوفّر الأدلةَ الثبّوتية على السّاحر، تقتضي القوانين حينها اللّجوء للتحكيم النَّهري حيث يتوجّبُ على المتّهم إلقاء نفسه في النَّهر فإذا طفا دلَّ ذلك على صحّة قوله، فيُقتل خصمُه، وإن غرقَ يكون قد نالَ جزاءَهُ، لأنّه كاذب، واتّهم الآخرَ ظُلماً. في مادّة أُخرى من قانون حمورابي، إذا اتّهم أحدٌ زوجةَ رجلٍ بعلاقة غير شرعيّة دون أدلّة، أي: أنّه لم يقبضْ عليها في حالة اضطجاع مع رجلٍ آخر فعلى الزوّجة أنْ تؤدّي الاختبار النَّهري لتُثبت أمّامَ زوجها بُطلانَ التُّهمة.

ـ لكنّي لم أفهمِ الحكمةَ منَ التّحكيم النَّهري، هل تعتقد أنّه تحكيم عادل؟

ـ يُستَندُ في ذلك إلى اعتقادٍ، مفاده أنَّ إله النّهر هو من يعرف الحقيقة وهو الذي يُصدر الحكم، فالسّبّاح الماهر المُذنب يفقدُ كلَّ مهاراته وتُشلُّ قواه الجسدّية، والفكريّة، لأنّه يُدرك من يواجه الآن، إنَّه بمواجهة إله النَّهر العظيم. إنكار الحقيقة أمّام البشر أمر ممكنٌ ولكنّ لا أحدَ يجرؤ

---

١) هو نفسه حمورابي.

على الكذب أمّام إله النَّهر، لذلك تُشلُّ قوى المذنب، ويهبط إلى القاع بلا مقاومة، حتّى لو كانَ أمهرَ السّباحين، ليواجهَ مصيرَهُ هناك، فلعلَّ الإلهَ يتقبّلُ منه التماساً بالعفو. أمّا البريء، فهو يعرفُ أنّ لا ذنبَ ارتكبَه وأنَّ الإلهَ راضٍ عنه تماماً ولابدَّ أنْ يُنجيه، ويُعاقبَ مَن اتّهمه زوراً، فيكسب طاقةً نفسيّةً هائلة، تجعلُه يُقاومُ الماءَ ويعوم. ولكن، هل يمكن للإنسان أنْ ينوبَ عن الآلهة؟ لقد حاولَ الإنسانُ النّيابةَ عن الإله، فأخفقَ وظلم، وكانتِ النّتيجةُ أنَّ أكثرَ من نصف الغارقين بانت براءتُهم، لكنّ فكرةَ القصاص بحدِّ ذاتها أرعبتْهم، فغرقوا رغم ذلك..

رأيتُ من بعيد كيساً كبيراً يهبطُ ببطءٍ مثلَ المظلّة ليستقرَّ على القاع ثمَّ أقبلتْ سمكتان كبيرتان شقّتا الكيسَ بزعانفهما الحادة من جانبين متقابلين لتنسلَّ منه كائناتٌ بشريّةٌ مرعوبة، بدأتْ تسبحُ بفزع مثلَ من أفلتَ من مأزق، سألتُ:

ـ ما هذا لو سمحتَ؟ كأنّي أرى أُناساً، يهربون من هذا الكيس الكبير..

ـ أها، أنتَ في زمن «هارون الرّشيد»، إنّكَ تُشاهدُ حدثاً تأريخياً تراجيدياً.

ما رأيتَه هو وقتُ استقرار الجواليق التي خيطت على العمال الذين أغرقهم «مسرور»، سيّاف «الرّشيد»، إلى القاع. لقد بعثَ « إنكي» مجموعةَ إنقاذ، استقبلت العمّال..

هتفتْ:

ـ هل تقصد حادثةَ الخلاص من البرامكة بعدَ خيانة جعفر للّرشيد؟

ـ بالضّبط! لكنّي متشوّقٌ لسماع ما تعرفه عن هذه القصّة!

كنتُ حفظتُ هذه القصّةَ منذُ سني المتوسطّة، فشرعت بتلاوتها بطريقة مسرحيّة:

ـ ذاتَ يوم دخل **هارون** الرشيد على **زبيدة** فشكا لها خوفه من البرامكة فقالت: سأُفشي لك بسرٍ أخفاه عنك وزيرك وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع مما تُعانيه. فقال لها الرشيد وقد اصفر وجهه:

ويحكِ، وما هو؟

فقالت: أرى أنْ تُحضر الخادم «أرجوان» وتشدّدَ عليه الخناقَ، وتوهنَه ضرباً وتعذيباً حتّى يَقرَّ بالخبر.

خرج الرشيد واستدعى أرجوان الخادم وأحضرَ السّيفَ والنّطعَ، وقال برئتُ من المنصور إنْ لم تصدّقْني في حديث جعفر، لأقتلنَّك.

فقال: تُعطيني الأمانَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: نعم لك الأمانُ.

قاطعني «المزعنفُ»:

ـ سيّد « صفاء» تذكّر ذلك! ماذا قال الرّشيد؟.

قال للخادم: نعم لك الأمانُ.

تابعتُ:

فقالَ أرجوان:

إعلمْ يا أمير المؤمنين أنّ جعفراً قد خانك في أختِك ميمونة، وقد دخل بها منذ سبع سنين وولدت منه ثلاثةَ بنين أحدهم له ستُّ سنين، والآخر له خمسُ سنين والثّالث عاش سنتين ومات قريباً، والاثنان قد أنفذَهما إلى المدينة المنوَّرة وهي حامل الآن بالرابع، وأنت أذنت له بالدخول على أهلِ بيتك، وأمرتني ألّا أمنعه في أيِّ وقت شاء ليلاً أو نهاراً.

قال الرشيد وقد اسودَّتِ الدّنيا أمامَ ناظريه:

ـ أمرْتُـكَ ألّا تحجبَـه، فحـينَ حدثتْ هذه الحادثةُ أوّلَ مـرّة، لِمَ لمْ تُخبرني؟ ثمَّ أمرَ بـضرب عنقه.

مرّةً أخرى قاطعني «المزعنفُ»:

ـ تذكّرْ ماذا أمرَ الرّشيد؟ أمرَ بضرب عنقه!

أربكتْنـي مقاطعـاتُ «المزعنف» فـأردْتُ التّوقفَ عن الاسـتمرار بقصّ القصّـة لكنَّه أشـارَ إليّ بلطفٍ، أنْ، أسـتمرَّ:

وكان الرشّيدُ قد قالَ لجعفر مّرةً:

ـ يـا جعفـر! أنـت تعـرفُ أنّـه لا يطيـبُ لي المجلـسُ إلّا بمحـضر أختي ميمونـة و لكـنْ لا يجـوزُ أن تجتمعـا إلّا إنْ كتبـتَ عليهـا لإباحـة النّظـر من غـير أن تقربَـها، فاتّفقـا عـلى ذلـك، وعقد لـه عليها، ثـمَّ أحضرَهـا فكانت تحضرُ لذلـك المجلس، إلّا أنَّ غرامَهـا بجعفـرٍ البرمكيِّ قـد زاد .

قامَ الرّشيدُ على الفور، وقال لخادمه:

ـ يـا مـسرور! إذا كان اللّيلـة بعـد العتمـة، فآتني بعـشرةٍ من الشـغّالين أجـلاداً، ومعهـم خادمان.

فلـمّا كان بعـدَ العتمـة جـاء مـسرور، ومعـه الشـغّالون والخادمـان، فقـام الرّشـيدُ وهُـم بـينَ يديـه حتّـى أتـى المقصـورةَ التي فيهـا أُختُـه فنظر إليهـا وهـي حامـل فلـم يُكلّمْهـا بـشيء، ولم يُعاتبْهـا على مـا فَعلـتْ، وأمرَ الخادمـين بإدخالها في صنـدوقٍ كبـير في مقصورتها بعـدَ قتلها ووضعَهـا بحليهـا وثيابهـا كما هـي، وأقفـلَ عليها، وقد عَلِمـت أنّها بعدَ قتـل أرجوان لاحقـةٌ بـه، ثمَّ نادى الشـغّالين، ومعهم المعـاولُ و الأزاميلُ فحفروا وسـطَ تلـك المقصـورة حتّـى بلغـوا المـاء، وهـو قاعـد على كـرسيّ، ثـمَّ قال:

ـ حسبكم! هاتوا الصّندوقَ، فدلّوه في تلك الحفرة.

ثمَّ قالَ:

ـ ردّوا الترّابَ عليه.

ففعلـوا وسـوّوا الموضعَ كـما كان، ثـمَّ أخرجَهـم، وأقفلَ البـابَ وأخذ المفتـاحَ معه وجلسَ في موضعه، والشغّالون و الخادمان بـينَ يديه، ثمَّ قال:

ـ يـا مـسرورُ! خُـذْ هـؤلاء القـومَ وأعطهـم أجرَهـم، فأخذهـم مسرورُ وجعلَهـم في جواليـق، وخيَّـطَ عليهـم بعـد أنْ ثقّلهـم بالصّخـر، والحـصى ورماهـم في وسـط دجلـة (تصّـوّر كيـف يُكافـأ هـؤلاء الشّـغّالون وهـم لم يقترفـوا ذنبـاً) ورجـعَ مـن وقتـه، فوقفَ بـين يديـه، فقال:

ـ يا مسرور! هل فعلتَ ما أمرتُك به؟

قالَ:

ـ وفيتُ القومَ أجورَهم.

نظرَ إلي «المزعنفُ» مُشيداً بذاكرتي ثمَّ سأل:

مـا رأيُـك بالرشـيد حاكم أكـبرِ إمبراطوريـاتِ الأرض في ذلـك الوقت سـيّد «صفاء»؟

ـ خليفة عظيم..

ـ عظيـم؟ قالـوا لي أنَّـك هجـوت «إنليـل» لظُلمـه، والآن تقـول عـن الرّشـيد بأنّـه عظيـم...! في حين أنَّـك لم تعترضْ عـلى الرّواية، ولم تشـككْ حتّـى بمصداقيّتهـا! انظـرْ لخليفـة الأمّـة، الذي لم يـفِ بوعد الأمـان الذي قطعَـه لأرجـوان فأمـرَ بقتله!

ـ لا بـدَّ لي مـن موافقتـك، «الرئيـس» أيضـاً، وعـدَ صهرَه بالأمـان، ولم يـفِ بوعده.

ـ هـذه معركـة ذئـاب، كلاّهمـا ذئـب، لكـنّ رئيسـكم وعـد عـشرات الآلاف مـن المدنيـين المحاصريـن بالعفو، ثـمَّ دفنهـم أحياءً، ومـع كلّ هذا ثمـة مـن يرفعـه لمستوى القديسـين! أيـن هـي القيـم؟ لم يتبـق للتأريخ من الملوك سـوى سـمعة البطولـة والعظمة، بينـما ذهب الضحايا إلى النسـيان.. هذا هـو تأريخكم!

لـو كنـتَ أنـت «أرجـوان» متـى وكيـف سـتُخبر الخليفـةَ؟ ومـا أدراكَ وأنـتَ الخـادم إنْ كان الرشـيد وجعفـرُ قـد اتّفقا عـلى شيء، مثـل أنْ يكونَ جعفـرُ وميمونـةُ قـد تزوّجا بعلـم الرّشـيد ومباركتـه، لكنَّ أمراً مـا أوجبَ سريّـةَ العقـد؟ ثمَّ إذا علمتَ بأمرٍ، كيف سـتخبر الرشـيد وأنت خـادم ابنتِهِ لا خادمـه؟ ألّا يعنـي ذلـك خيانَتَـك لمـن تخدمُ؟ ثـمَّ مَـنْ يضمـنُ ألّا يُنكرا «ميمونـة» و«جعفـر» ذلـك فيذهـب جلـدك يـا «أرجـوان» إلى الدِباغ؟ !

كـما ترى فـإن جعفراً لم يكـن مُذنباً، ولا حتّـى ميمونة العباسـة فما معنى عقـد قـران شـابين دون اقترابهـما مـن بعـض؟! وكيـف فـاتَ الرّشـيدَ ألّا يحـدسَ بوقـوعٍ، مـا وقع؟

هـل تعـرفُ أنَّـه في خضـم كلّ الانقلابـات والصّراعـات بـين أقطـاب الحكـم كانـت المخيلة الشـعبية تبحث عن امـرأة لتمر المشـكلّة من خلالها؟ فقتـل ولي العهـد لأبيـه الأمـير ليـس لأنّـه أراد التخلـص منـه بل لا بـدَّ من امـرأة لـولي العهد قد إشـتهاها أبـوه الأمير... الـشرف والدفاع عنـه هو ما يسـاوي تضاريـس الحقائق بالأرض ويمحـو كلّ شيء.. ربّـما كانت القصة مُختلقـة للتخلـص مـن البرامكة، مـا رأيك؟ فهـل يمكن أنْ يقترف الرشـيد مثـل هـذه الحماقة وهـو امبراطور ربـع الأرض؟.

فهمْـتُ أنَّ « المزعنـف» يُشـكّكُ بتاريخنـا المكتوب..هـذا هـو جوهـرُ كلامِـهِ!

حَيُّ المنتحرين

قال الدليل:

ـ هندسةُ أحياء الماء تعكسُ أمزجةَ سكّانها. كما ترى فَحيُّ المنتحرين يكشفُ عن نفسه بجدرانه الرّمادية العالية ذات الشّبابيك الضيقة، وانعدام الحركة حتّى ليظنَّه المرءُ خالياً من السّكّان. شعراءُ مُحبَطون، عاشقون بلا أمل، فاشلون دراسيّاً، ضحايا علاقات زوجيّة منهارة، مُلاحقون بفضائحَ من أنواع شتّى، آباء ضاقوا بأعباء عوائلهم الفقيرة، عذارى مُغتصباتٌ لا حول لهنَّ ولا قوّةَ، تُجار أفلسوا تُلاحقهم المحاكم، خلقٌ مختلفون لكنّهم يشتركون بأن حيواتهم انتهتْ بالقفز إلى النَّهر لأسبابٍ مختلفة. وحَدَّهم عجزهم أمّام حياة لم يتحمّلوها أو لم تطقْهم فتجمّعوا هنا. هؤلاء لديَّهم عالمهم الخاصُّ، مُعظمهم منزوي وقِلَّةٌ منهم يقضي وقته بالجدال. المنتحرون عموماً، مِنَ السّكّان قليلي المشاكلّ، لكنّهم لا يثقون بأحد. سنذهب بالكاميرا إلى نادي الحيِّ إنّنا الآن في القرن العشرين.

رأيتُ رجلاً يجلسُ إلى طاولة يُشاركُه فيها آخران على الجانب المقابل، بدتِ الجلسةُ كما لو أنّها كانت جلسةَ تحقيق.

ـ هل هذه محكمة؟

ـ كلّا، لا أعتقدُ، دعني أرى الشّيفرةَ، لا، هذه وقائع الأسبوع

الثّقـافي، يتحدّثُ فيه شـعراءُ وكتّـابٌ منتحرون، أو غرقـى حديثو العهد بعـالم المـاء عـن عالمهـم الأرضيّ وذكرياتهم هناك، اسـتمعْ لهذا الشـاعر:

كنـتُ مُصاباً كـما قالَ مختـصُّ الصّحة النّفسـية بمرض الحيـاة، مرض الطفوّلـة. المصابـون بهذا المـرض يتوهمون أبديـةَ حياتهم. يعيشـون حلمَ الدّيمومـة مثـل الأطفال الذيـن يتصـوّرون بقاءهم إلى الأبـد. هكذا قال الطبيـب، لكنّـي متأكّـدٌ أنّ تشـخيصَهُ لم يكـنْ صحيحـاً فقـد كنـتُ مثلَ غـيري أرتعـبُ مـن فكرة المـوت. تخيلـتُ نفسي سـأموت. فكّـرتُ: ربّما أمـوتُ بعـدَ قليـل، في الشّـارع، أو في البيـت، خفـق قلبـي وتذكـرت ما قرأتـه عـن زيـارات ملـك المـوت لِمَـن سـيقبض أرواحَهم. سـمعتُ من أبي مـرّةً أن «عزرائيـل» يـأتي عـلى غـير تَوقّـع متخفيـاً مـرّةً بهيئـةِ مفتّش تذاكـر ينظـر بعينيـك، تُخرِجُ لـه التّذكـرةَ، فيهمـسُ بأُذنك:

كلّا صديقـي! سـنرحل معـاً، وآخـذك معـي لا حاجـة لي بالتذكـرة. وثانيـة بهيئـة طبيـبٍ ينحنـي عليـكَ، تتخيّلَهُ سـائلاً عن وجعِـك فيقولُ:

لا فائدة، هذه هي لحظاتُك الأخيرة!

وثالثـةً بهيئـة مجهـولٍ، يُقابلـكَ في الطّريـق ويَخِصُّـك بنظـرة تعتقدهـا عابـرةً لكنهـا لحظـة الإشـارة لروحـك كي تسـتعدَّ للمغـادرة.

ولكـنّ مـا معنـى أنْ أمـوتَ؟ حاولـتُ تَذكّـر أجمـل الأشـياء الميتـة، والتـي سـتموت معـي، سـوف لـن أآكلَ البطيـخ الـذي أُحبّـه، ولـن يمكننـي التنـزه عـلى الشـاطئ، ولا القـراءة في عمـق اللّيل الهـادئ، ولا تقبيـل حبيبتـي، ولـن يمكنني معرفة مـا يجري عـلى الأرض. حتّى أقرب الموجـودات إليّ سـأنحرمُ مـن الشّـعور بهـا. حتّى الـدودة الشّرهـة التي جَلَسـتْ عـلى أطراف أصابعهـا، تنتظر بصبرٍ يـكاد ينفد، انتهـاءَ الحانوتي مـن عملـه كي تنهـش لحمي، لن أُحـسَّ بها وهذا حَسـنٌ أليس كذلك؟

هـذه أولى فوائـدِ المـوت، ألّا تحـسَّ أو تشـعرَ بـشيء. وإلّا، تصـور أنّـكَ تمـوت ويُلقـى بـك في الحفـرة، ويُهـال طـنٌّ من الـتراب عـلى الـذي كُنتَهُ أنـت، لكنـك بعـد كلّ هـذا الرّعـب، تحـس بالـدود يتسـلّلُ مـن خلال فتحـات الكفـن كي يبـدأ الحفـل! لكني، في الطفولة سـمعتُ مـن المعلّم أن الميْـتَ يشـعرُ بثقـل الـتّراب، وجـدّتي قالـت أنّه يُنـادي على المشـيّعين عنـدَ عودتهـم: كيـف تتركـوني وحيـداً هنا؟

هذا مرعب! يشعرُ بالدّودة إذن!

لاشـكَّ أنَّ المعلـم أيضـاً كان مرعوبـاً منهـا، إنَّ حقيقـة التخلّي عـن كلِّ شيء والذهـاب عاريـاً إلا مـن قطعـة قـماش فكـرةٌ مفزعـة بحـدِّ ذاتهـا، الـكلُّ لايستوعبُها، لكنـيّ بصراحة، لم يكـنْ لي اعـتراضٌ على ألّا أتمتّـعَ ذاتَ يـوم بمتـع الحيـاة فتنقطـع. إنّما اعـتراضي الأسـاس على ترك جسـدي لهـذه الـدّودة المخيفة، تقرضه شـيئاً فشـيئاً، ثمَّ اعـتراض جانبي واحـد هـو أنْ تتـاحَ لي حريّـةُ الحركـة. ففكـرةُ أن أبقـى إلى الأبد سـاكناً مسـجوناً في مسـاحةٍ، لا تكفـي سـوى جسـدي، يبـدو ذلـكَ فظيعـاً. فظاعـة يـا صاحبـي أن تـأتيَ الدّيـدانُ لتنهشَـني، وأنـا لا أُحـرك سـاكناً، شـبرٌ، وأربعـة أصابع، مسـاحة لاتكفي حتّـى لتحريك يـدي، والصّراخ بوجـه دودة:

هيـه مـا الذي تفعلينه؟ ألمْ تجـدي غيري في هذه التّربـة؟ أنتِ تقضمين جسـدي، أتدركين كم كنـتُ أحرصُ عليه؟

أدركَ الدّليلُ على ما يبدو، كآبة الجوِّ فأوقفَ المشهدَ، وهو يقولُ:

ـ ليس ذلك ما تريدُ سماعَه أليسَ كذلك؟

ـ كلّا أرجـوك دعْـهُ يُكمـلْ أُريـدُ سـماعَ القصّـة كاملـةً، إنَّـه يتحدّثُ نيابـةً عـن أهـل الأرض جميعاً!

عاد الشّاعر:

ـ كنتُ أرتجف رعباً من تَخَيُّل هذه الحشرة المخيفة حتّى أنّي مرّةً أفقْتُ من نومي فَزِعاً بعد أنْ أحسسْتُ بحشرةٍ بيتيّةٍ تدبُّ على وجهي، فتخيّلْتُني ميْتاً..

ما كنتُ أريدُ التمتَّعَ به بعد الموت، هو حقُّ الحركة لا غير، دعوني أزورُ المقابرَ المجاورة، أتعرَّف على سكّانها، أستمع إلى قصصهم، هل غادروا الدنيا راضين؟ ستقول لي: وأيُّ قصّة ستسمعُها من هياكلّ لا روح فيها؟ لا، إذا كانت قصص الأحياء مُمتعة فإن قصص الموتى ولحظاتهم الأخيرة ـ وهم يُحلقون بمن حولهم غير قادرين على النّطق ـ هي أكثرُ إثارةً. واحدهم، تتزاحمُ بحنجرته آلافُ الكلّمات، كلُّ كلّمة تُريدُ أنْ تُعبّرَ عن نفسها بصرخة، لأنَّها تعرفُ أنّها الفرصةُ الأخيرة لها، لكنّها جميعاً تنحشرُ في هذا الحيّز الضيّق بين البلعوم، والفم فتختنقُ. لذلك لايقدر المُشرفُ على الموت على نطق كلمةٍ واحدة، دعوني أتسامرُ مع هياكلِ المدفونين، وسأعود حتماً إلى مكاني..إلى أين يمكنُني الفِرارُ بهذاَ الهيكلّ المضحك، بلا ملابسَ؟ والكفن قد تهرّأ وعظامي تطقطقُ من كثرة الرّقود، لم أكنْ طموحاً للعيش الطّويل، ثمانيةَ عقود، أو تسعةً مثلاً، ذلك مُتعبٌ للضّمير. يبدو أنَّ كبارَ السّنِّ مهمومونَ حزانى..ليسَ لأنّهم في الغالب غيرُ راضين عن حياتهم، كلّا، بل لأنَّ الذّكرياتِ السّيئةَ ثقيلةٌ، وهي ما يترسّبُ في أعماق الإنسان ويبقى، وعند سنٍّ معينةٍ لا يجدُ المرءُ في خزينته غيرَها!

فكّرْتُ بمقترحاتٍ للموت، الصّعود للطّابق الأخير من أعلى بناية ومن هناك مّرة واحدة إلى أسفل، لكنْ لم أضمنْ ألّا يقعَ الجسدُ ـ بشكل ما ـ على أجزائِهِ الأكثر مقاومةً، فأنجو وأصيرُ معوقاً

أتسـوّلُ المـارّةَ في محطّـات الباصات..حتّـى أنّي فكّرتُ في انتظـار القطار، والوثـوب لملاقاتـه كـما لاقـى **أنكيـدو**، الثّـور، ولكـنَّ هـذا يحمـل معَـه خطـرَ الإعاقـة. أخـيراً أتـتْ اللّحظةُ الحاسـمة، قلـتُ لنفسـي، كلّا، الماءُ مَـنْ يُنقـذُني مـن الـدّودة ومـن الإعاقـة، إذا فَشِـلتْ محاولةُ المـاء في إنهاء حيـاتي، لـن تتركَنـي مُعاقـاً! كنـتُ ضليعـاً بالغـوص والقفـز، كلَّ مـرّةٍ أقفـز مـن جسر «الصّرافية» وأغطسُ في المـاء حابسـاً أنفـاسي إلى الحدِّ الـذي أشـعرُ فيـه بقـرب الاختنـاق، فأعوم. سـتكونُ هـذه المـرّةُ مختلفةً، سـأصبرُ قليـلاً إلى مـا بعـد الشّـعور بقـرب انقطـاع النَفَـسْ، بعدَهـا ربّما لحظـاتُ إغـماءٍ وأكـون من سُـكّان المـاء إلى الأبد، فأُحـرقُ قلـبَ الدّودة الحقـيرة، قـد تقـولُ: لكنّكَ سـتنتهي لتكـون طعامـاً للأسـماك، خرافةٌ يا صاحبي!الأسـماكُ لا تـأكلُ الموتـى، حتّى لو فعلـت، فهـي تفعلُها بقلبٍ طيّبٍ ونيةٍ حسـنة، «بقلب سـمكة» لا مثل دودة تنتظرُ في عمق الأرض، وكفُّهـا عـلى خدّهـا الغائـر، لحظـةَ انتهاء مراسـم الدّفـن كي تنهشَـك..

انتهى الشَّاعرُ فقلتُ بتأثّرٍ واضحٍ:

ـ يا لهذا الشّاعر الحسّاس! أعجبتني مرافعته عن نفسه!

ردَّ «المزعنفُ»:

ـ هل ترغبُ بالمزيد، سنستمعُ لآخر؟

ـ شاعرٌ أيضاً؟

ـ هذا قصّاصٌ، انتقل إلى الماء قبلَ عامين وحديثُه لن يطولَ كثيراً استمعْ:

«أولى وأخرُ جرائمي الأرضيّة كانت معَ الدّجاج!

يتوجّـبُ عـليّ الآنَ أنْ أعتـذرَ أمَامكم، والألمُ يُمـزّقُ قلبي، للدّجاجة الوحيـدة التـي ذبحتُهـا في حيـاتي. كنـتُ وقتَهـا في بيت جـدّي في القرية

وشيموني بالرجولة واستفزوا مراهقتي بعبارة:

«الرجال غائبون»!

نعم، لا رجالَ في الحيّ، فرشّحوني أنا الذّكرُ الوحيدُ بين جيش من أناث، وصغار، لتولي منصبَ الرّجولة، وما الرّجولةُ غيرُ الدّم؟ لكنّها أيضاً تلك الدّجاجة تتحمّلُ مسؤوليّةً لحدٍّ ما، فالمسكينةُ وضعَها القدرُ تحتَ سلطتي. كانت شاحبةً ومستسلمةً، كأنّها راضيةٌ بقدرها لم ترفسْ ولم تقوقئ بعنفٍ، ولم ترفرفْ بجناحيها كما يفعلُ أيُّ طيرٍ وقع بورطة. فقط لو أنّها فعلت لأطلقتُ سراحها، لو أنّها وجهت منقارها ليدي ونقرتني مرة لأطاحت برجولتي المزعومة بنقرة واحدة. كانت ميْتةً قبل أنْ تموت وهذا ما جعلَ منيّ بطلاً أمامَ نفسي في أوّلِ اختبارٍ لرجولتي أمامَ نساءٍ وأطفالٍ، كانوا يُخفون أعينَهم خلفَ أكفّهم إتّقاءَ منظر الدّم الذي يتدفق من عنق الدجاجة المحزوز. حتّى أنّها لم تنظر بعيني. تعرفون لماذا تُعصبُ عيون الذين ينتظرون الإعدام بالرّصاص عن أعين المُكلّفين بقتلهم؟ لأن الرامي لن يجرؤ على إطلاق النّار بعد أنْ يمتدَّ شعاعُ النّظر من عيني الضّحية لعينيه. لو أنّ تلك الدّجاجةَ نظرتْ بعينيّ، لأدركتُ أنّني أستعدُّ لسلبِ مخلوقٍ حياته، وأنني أتهيأ لعملية قتل، إنني لستُ بمهمّةٍ روتينية، لكنّها دفنتْ نظراتِها بالتّراب، التّراب الذي سيُعجنُ بعدَ قليل بدمها. كلُّ شيءٍ كانَ في دجاجتي ميتاً بارداً إلا نزيف دمها الغزير الحارّ، كأنّما انتقمت من جريمتي بهذا الدّم الذي رشَّ وجهي، فأثار ضَحِكَ النّساء والصّغار...، قهقهوا وهم يردّدون، لا يعرفُ الذّبح!

نعم أنا لا أعرفُ الذّبحَ، فهل هذا عيبٌ؟

تمنّيتُ لو أنّهم هزأوا منّي قبلَ أن أُمسكَ السّكينَ، لو عيّروني بأناملي الرّاجفة قبل أنْ أنتفَ الرّيش النّاعم من رقبة الضّحية لكي

تعزفَ عليها سكّيني إنشودةَ الموت. لو أنّهم فعلوا لجنّبوني هذه الجُنحة المُخلَّة بالاتّزان وحرّروني من رأس الضّحّية الأصفرِ المستسلم الذي صبغَ أحلامي بصُفرة الموت، لكنْ أن يضحكوا من ارتجاف أصابعي بعد أنْ بقيَ رأسُ الدّجاجة بيدي، وطارَ جسدُها ناطّاً ليسقطَ على التّراب، ثمَّ يطيرُ ثانيةً، ليسقطَ بماء النَّهر فهذه قسوةٌ، نعم قسوةٌ لا يُبرّرُها حتّى ادعاؤهم أنّهم ضحكوا لأن الدجاجةَ قد جرفَها تيّار الماء وأنّ البيتَ سيبقى هذه اللّيلة بلا طعام!

إلى الآن أتلمّسُ حرارةَ دمها على وجهي، لقد اعترضَتْ دجاجتي على موتها التّراجيدي بقوّة لم تكنْ تناسبُ استسلامَها اليائسَ ليديّ، ولكنّ اعتراضَها جاء متأخراً، بعدَ أنْ أضحى رأسُها بين أصابعي وجسدُها على التّراب..ما الفائدة؟!

لم تتوقفْ محاولاتُ مَنْ حولي لدفعي أبعدَ في مديات الخوض بالدّم. أتى العيدُ وقرّروا دحرجتي ثانيةً لعالم القتل. داروا حولي مُشجّعينَ نافخين في بقايا جمرِ الكرامة الذي لم يخبُ بعدُ في نفسي، بعدَ هروب جسد الدّجاجة، فوضعوا أمّامي حملاً مراهقاً بعد أنْ قيّدوا قوائمَه وطرحوه أرضاً لكي يسهّلوا المهمّة أمامي:

ـ اذبحْ! صحّحْ غلطتَك!

لامجالَ للتّراجع، أنا والحملُ الأسير كلّانا مُقيّدٌ ينظرُ لصاحبه ضمنَ حلقة طوّقتنا وتنتظرُ منّا بدءَ الصّراع. أحرقتني هذه المرة عينا الحمل الواسعتان. لم يكنْ مُستسلماً، بل مُتحدّياً رغمَ شلِّ قدرته على الحركة، لكنَّه بقيَ رافعَ الرّأس مُبتسماً بإستهزاء حتّى تخيلّتُه سيقهقهُ بوجهي! أيُّ ذلٍّ أنْ يتحدّاك خروفٌ يافعٌ، ويرفعَ رأسَه ليقول:

ـ أَ تَجرؤُ على نحري؟ إذنْ، افعلها، وأرني رجولتَك!

نقّلتُ وجهي بينَ وجوه المتحلّقين حولي، كانَ جلُّهم يرمقُني بتشفٍّ وكأنّهُ يراهنُ على فشلِ مهّمتي، وقلبُ الخروف يدقُّ في صدري، فوقعَتْ عيناي في الوقتَ المناسب تماماً، على صبيّةٍ ساحرة. كانت عيناها السّوداوان ترفّان باكيتين، تترجّياني ألّا أفعلَ، فصرختُ بوحيٍ من نظرتها:

ـ أنا لستُ جاهزاً لأنحرَهُ، تذكّرتُ أنّني لستُ طاهراً!

«وهل كُنتَ طاهراً عندما فصلْتَ رأسَ الدّجاجة عن جسدها؟»

تعالى تصفيقُ المستمعين فقالَ «المزعنفُ»:

ـ كما ترى يتداولُ المنتحرون حكاياتِ العنف، والإحباط، واليأس كبقايا أرضيّة، ذكريات لاغير!

ـ نعم، هنيئاً لهم حياتهم..

استمعْ لهذا المختصر:

قفي، وميلي عليَّ يا حبيبتي!

لنلتقط صورةً

سيتأمّلها الأحفادُ بعد مئتي عام

ويتأوّهون: آه ما كان أجمل ثياب أجدادنا! وأناقتهم!

ما الذي بقيَ من عِظامهم الآن؟

آه، الحياةُ فيلمُ رعبٍ وأنا المنتحرُ، مُشاهدٌ جبانٌ لم أقوَ على مشاهدة الفيلم حتّى نهايته..

حيُّ العلماء، والورّاقين

اللّحظاتُ التي تسبقُ لقائي «المزعنَف»، **أونيسَ** أو الدّليلَ الشّابَّ، عادةً هي لحظاتُ غيبوبتي التّامة، لا أستطيعُ تذكّرَ تفاصيلِ ما يحدثُ خلالَها وكم تطول، رغم محاولتي إجبارَ نفسي على التذكُّر، هل هي لحظاتٌ قصار؟ فآخرُ ما أعيه هو، ضيفي أمّامي ناقراً على كتفي.

هذه المرّةُ مثلُ سابقاتها، لم أشعرْ بنفسي إلّا وأنا أمامَ الدّليل، وقد وقفَ أمامَ معْلمٍ نهريٍّ لم أرَ مثلَه، أشارَ إليه قائلاً:

ـ هذا هو «جسرُ العلوم»..يصلُ مركزَ المدينة بحيِّ العلوم والمكتبات بُنيَ الجسرُ من الكتب التي أُلقيَتْ في دجلة، جسرٌ من الورق والماء عوضاً عن الآجر. والحقُّ أنّه لم يكنْ جسراً ولم يفكّرْ أحدٌ ببنائِهِ، لكنَّ الماءَ قد غمرَ الكتبَ، ولكثرتها سدَّتْ مجرى النَّهر وتحوّلَتْ إلى عجينة صلبة. كما ترى هنا، الكثير من الصّفحات مازالت واضحةً وهي من نفائس الكتب والمترجمات العلميّة...

كنتُ قد سمعتُ عن دليلِ حيٍّ على هذه الواقعة، وهو كتابٌ في المكتبة القادريّة محفوظٌ في مكتبةِ جامع «الشّيخ عبد القادر الكيلاني» في بغداد، استطاعَ أحدُ البغداديّين أيّامَ احتلال بغداد، انتشالَه من النَّهر وقد سُجِّلَ على أوَّل صفحة من صفحاته أنّهُ انتشَلهُ من نهرِ دجلةَ مِنْ بين الكتب التي قُذفت في النَّهر. بحثتُ آنذاك طويلاً إلى أنْ وجدْتُه في ذيلِ قائمة المخطوطات القديمة. كان أثرُ البللِ الذي لحقَ بالمخطوطة

واضحاً حيثُ ساحَ حبرُ بعض الصّفحات كما لو كانَ الكتابُ يبكي مصيرَهُ!

مضى الدّليلُ شارحاً:

ـ كانت خزانةُ الخلفاء العبّاسيين في بغداد أعظمَ خزائن الكتب في زمانها لأنّها الأكبرُ، والأغنى من بين ثلاثِ خزائنَ في الدّنيا. فيها من الكتب ما لا يُحصى عددهُ، ولا يُقارنُ بقيمته معَ غيرِه من الكتب. ولم تزلْ على ذلك إلى أنْ هاجمَ التّتارُ بغدادَ، وكان **الطوسيُّ**[2] وقتَها مُنجّماً مُرافقاً **هولاكو**..

التقطْتُ خيطَ الحديث فقلْتُ:

ـ نعم، الطّوسي استولى على كتب الطّبّ والنّجوم والفلسفة واللّغات أمّا كتب التّفسير، والحديث، والفقه فقد ألقى بها في دجلة.

ضحكَ الدّليلُ:

ـ من أينَ أتتْ إذن لعناتُ التّفسير، والتّرجيح، والتّأويل، والأحاديث التي فتكتْ بالنّاس على الأرض، وحوّلت حياتَهم إلى جحيم ما قبل الآخرة؟ أنا أشكُّ أنْ يفعلَ **الطّوسي** شيئاً كهذا.

ـ كيف؟ تعني أنْ **هولاكو** لم يُدمّرْ مكتباتِ بغدادَ؟

ـ خذْها بالعقل، عندما يغزو قائدٌ ما، مملكةً قويّةً متقدّمةً، ألا يريدُ أنْ يعرفَ أسرارَ تقدُّمها؟ ألا يدفعُه الفضولُ للحفاظ على نفائس الممالك التي سبقته، كي يسبقَ غيرَهُ بها؟ فكيفَ يُتلفُ هذه الأسرارَ قبلَ الإطلاع عليها؟

---

2) أبو جعفر بن محمد بن الحسن الطّوسي، المعروف باسم، نصير الدّين الطّوسي، عالم إسلامي (اسماعيلي) فارسي. المصدر (ويكيبيديا)

ـ نعـم، وهـذا مـا قلْتُه، لقـد احتفظَ بكتـب الطـبِّ والطّبيعة والفلسـفة وأتلـفَ كتـبَ التّفسـير، والحديـث والفقه كـما تتّفـقُ الرّوايات.

ـ وأيـن آلافُ كُتـب العلـم في الطّب والطّبيعـة والفلسـفة؟ هـل أكلها **هولاكـو**؟ أليـس مـن المنطقِّـي أكثـرَ أن تكـونَ هـذه الكتـبُ هـي الباقية؟ وأنّكـم الآن تتحسّرون عـلى كتـب الطّـبريّ والزمخشريّ وأحاديـث أبي هريـرة وعبـد الله بـن عبـاس التـي لم تصـلْ إليكـم، إنّكـم غارقـون بكتب الفقـه، وقـالَ فـلان عـن عـلّان نقـلاً عن..

«عدْنـا ثانيـة لـذات الحكايـة. كلُّ مـا تعلمتُـه عـلى الأرض هـو موضع شـكوك هـذه الكائنـات المائيّـة المزعنفة!»

ضغـطَّ الدّليـلُ عـلى الرّيموت كونـترول، فرأيتُ مشـهداً مريعـاً. كانت الحرائـق تلتهـمُ المبـاني، والنّـاسُ يفـرّون كالفئـران الفَزِعـة، ومجاميـعٌ مـن الجنـد تُفـرغ حمـولات أكياسـها الثّقيلـة في دجلـة، كُتب..كُتب..كُتـب.. تطـوفُ عـلى امتـداد سـطح النَّهـر، كُتبٌ تفتـحُ صدورَها للسّـماء تسـتغيثُ مـن البلـل، تتلـوّى، تتجعّدُ..تبكـي حِـبراً غـيّر لـونَ مـاءِ النَّهر..

ـ مَن هؤلاء؟ سألتُ بذعر، وكأنَّ المشهدَ حقيقةٌ واقعةٌ أمامي..

ـ عليـك أنْ تصدّقْنـي أوّلاً، أنـا أرى، وهـذا رأيـي الشّـخصيّ، أنّها فرقة مـن مرتزقة الخلفاء ألقَـتْ بكلِّ كتب العلم والطّبيعة والفلسـفة والرّحلات إلى المـاء واحتفظت بكتـب الخرافة والشـعوذة والدّجـل وأحاديث الأوّلين لتصنـعَ من سـطورها بعدَ مئـاتِ الأعوام قُضباناً تسـجنُ خلفَهـا الملايين..

ـ ولماذا؟ هل يعقلُ ذلك؟

ـ ولمـاذا حرّمـوا كُتـبَ الفـارابي؟ والمعـرّي، والكنـدي، والـرّازي وابن النّديـم وابـن طفيـل، والجاحـظ وابـن رشـد؟ لمـاذا قتلوا ابـنَ المقفّـع تلك القتلـة الشـنيعة؟ لقد حوصرَ الإنسـانُ المُفكّـرُ في آخر أزمان العبّاسـيّين، ألم

تسـمعْ شـعارَهم: مَـنْ تمنطقَ تزنـدقَ؟ يعني أن مـن اتّبع المنطقَ، والفلسـفة قـد كَفرَ!

ـ أنتَ إذنْ، تُحمِّلُ الخلافةَ نفسَها مسؤوليَة تخلُّفِنا!

ـ كـما أخبرتُـكَ، تقدّمـتِ الدّولـةُ وازدهـرَتْ عندمـا كانَ الحاكـمُ يـزن الكتـابَ فيمنـح كاتبَـه وزنَـه ذهبـاً، أمّا من يُجـرِّمُ الفلاسـفةَ ويحـرقُ كتبَهم ويحـرّمُ تداولَهَـا، فهـو يُعلـنُ عمليّـاً اعتقـالَ عقـلِ دولتـه، مـا الـذي تتوقّعُ حدوثَـه عندمـا يُسـجَنُ العقلُ؟

ـ ولمـاذا إذنْ لم تفعـلْ مملكـةُ الماء شـيئاً، لانتشـال هـذه الكتـب الثّمينة؟ لمـاذا تركتموهـا تتلف؟

ـ هـي ثمينـةٌ قياسـاً للحقبـة التـي كُتبت بهـا، ولأهلهـا، أمّـا نحـنُ تجاوزناهـا، قبـلَ أن تُكتـبَ بأكثـرَ مـن ألفـي عـام مـن مسـيرة تطوّرنـا!

لم أشـبعْ في حيـاتي كلِّهـا مـن شيء، كـما شـبعتُ إهانـاتٍ خـلالَ فـترة مصاحبتـي لهـذه المزعنفـات!

حيُّ السياسيين

كانَ تيّارُ النَّهر قوياً ونحنُ ننحدرُ مع اتّجاهه في ممّراتٍ، بدَتْ ملساءَ خاليةً من الطّحالب، والأشنات وسبّاح النّهر. قال الدّليلُ، وهو يُمسك بزعنفتي اليمنى بقصد إدارة اتّجاهي إلى اليسار:

ـ انظرْ إلى الطّين الحرّي، أسموه حرّي، لخلوهِ من الشوائب، هو حرّ!

كان الطيّن مائلاً للحمرة، من هذا الطّين خَلقَ الخالقُ الإنسانَ لا شكَّ، أردْتُ قولَ ذلك للدّليل لكنّي خشيتُ أنْ يُدخلَني في معمعة جديدة من أفكاره، فأفقد جزءً آخرَ من قناعاتيَ..خصوصاً أنني تذكّرْتُ تخريفةً لأحدِ المؤرّخين يتخيَّلُ فيها اللهَ قد أمرَ جبريلَ بجلبِ الطّين من الأرض، لكي يخلقَ البشرَ فاختار من الطّين الأسمرَ والأسودَ والأصفرَ فجاء السُمرُ والسّودُ والصفرُ..

بقيتُ صامتاً فاستمرَّ:

ـ يومنا هذا سنمضيه تجوالاً في حيِّ السّياسيين، وهو من أعرق أحياء النَّهر، وأكثرها إزدحاماً. بُني منذُ فجرِ التأريخ، وما زالَ في توسّع فالسّياسةُ مزروعةٌ في تربة وماء هذه البلاد. لا يكادُ يمرُّ عهدٌ سياسيٌ إلّا، ويرفدُ الحيُّ بدفعة جديدة من الضّحايا. تهمة التآمر السّياسي هي من أقدم التّهم وكانت تثبتُ في حال عدم وجود شهود، عن طريق الاختبار النّهري.

ضغطَ الدّليلُ على الزّر مُختاراً فترةَ الحكمِ البابليّ فظهر أمّامَ عينيَّ رجلٌ في حوالي الأربعين جاثياً على قعر النَّهرِ..

ـ المشهدُ الذي تراه هو يومُ تنفيذ الحكم بمتآمرين على سلطة الملك.. ملك «كركميش» بعث رسالةً سرّيّةً هامّةً إلى ملك «ماري» مفادها إنَّه اعتقل الشّخصَ الذي اتّهم شخصين بممارسة العمل السّياسيّ التآمريّ اعتقالاً احترازياً إلى أنْ ينتهيَ التّحقيقُ وتظهرَ الحقيقةُ، ويخبر الملك «زمري ليم» بأنَّ عقوبةَ من ادعى عليهما الحرقُ عندما تتبيّنُ براءتُهما من التّهمة أي: في حالة نجاتهما من الغرق. أمّا إذا غرقا فسيكونُ الإله قد أثبتَ ذنبيهما وعندها سيؤولُ منزلاهما، ومن فيه لصالح من أخبر عنهما. لقد استلمَ من اتّهمهُما أملاكَ المتَّهمين بعد أنْ قرَّر إلهُ النَّهر أنّهما كانا مذنبين، وكان المتهمان أوَّلَ سكّان حيِّ السيّاسيين.

همستُ أُكلِّمُ نفسي:

ـ يعني صنعةُ كتابة التّقارير متوارثةٌ من زمان العم، ملك « كركميش » !

صمتَ الدّليلُ برهةً ثمَّ التفتَ إليّ:

ـ ما رأيُك أنْ تُسَرِّعَ الزّمنَ قليلاً؟ توقَّفْ لو سمحت عند بداية ستّينيات القرن العشرين، نعم هنا، راقبِ المشهدَ جيّداً لابدَّ أنَّك ستعرفُ شخوصَه!

وجَّهْتُ انتباهي إلى أمّام عندما مرَّ من أمامي رجلٌ بعصاً ممّا يستخدمُه الضباط في تفتيشهم أثناء حياتهم العسكريّة، سألتُ:

ومن هذا العسكريُّ الأنيقُ المُبتسمُ؟

ـ ألا تعرفُ «عبد الكريم قاسم»؟

ـ لا بربّـك! الزّعيـم؟ محبـوبَ جـدّتي، ذو الأسـنان الذّهبيّـة! مـا الـذي أتـى بـه هنا؟ هـذا قتلـوه منـذُ نصفِ قـرن! سـألتُ مُسـتغرباً

ـ ألقَـوه في نهـر **ديـالى**، كـي يتخلّصـوا من ذِكراه فـلا يتحـوّلَ ضريحهُ إلى مـزار! كانـوا يخافـون شـعبيّته ونزاهتـه وبسـاطته في العيـش، لكنّـه في الماء تحـوّلَ إلى قدّيـس بعـدَ أن تطهَّـرَ مـن بعض موبقـات الأرض.. ثلاثـةُ أرباع السّياسـيّين الذيـن اختفَـوا، ألقـوا بهـم في النَّهـر! لـو توفّـر لدينـا الوقـتُ لرأيـتَ سـيّاراتٍ تهبطُ بمـن فيهـا إلى قـاع النّهـر، ورأيـتَ ضبّاطـاً سـبقَ وسـجّلوهم في سـجّل الأسرى والمفقوديـن، وشـاهدتَ سياسـيّينَ تـوارَوا عـن الأنظـار فجـأةً، وعرفـتَ تجّـاراً متنفّذيـن تركـوا مصالحهم ولم يشـهدْ أحـدٌ لهـم أثـراً. لصدمـتَ بوجهـاء وزعـماء قبائـل انقطعـت أخبارُهـم.. لـولا خـوفي عـلى قلبـك الرّقيـق مـن التّوقّـف لعرضـتُ أمامَـك لقطـاتٍ لفتيـاتٍ بملابـس العـرس، وأخريـات بملابـس الحِـداد، ولـولا خشـيتي مـن أنْ تكفـر بكونـك مـن جنس البـشر، لأطلعْتُـك عـلى مشـاهد أطفال بملابـس المدرسـة يغوصـون في مياة الأنهـر بعـد أنْ سُـجّلوا كمخطوفين، أو ضائعـين..

يمكنُـكَ أنْ تعـدَّ كلَّ مـن اختفـى دونَ أن يـتركَ أثراً، سـاكناً من سـكّان النّهـر. شـعبٌ كاملٌ يرقـدُ في أعـماق النَّهرين!

حي المتحف

أمّـا هـذا الحيُّ الـذي سـنقصدُه الآن، فهو مـن الأحياء العريقـة، ويعود تأريخُـه إلى أكثـرَ من قرن ونصـف، بُنيَ بالتّدريـج بعد أنْ اُفتُتِـحَ هنا متحفٌ ضخمٌ.

قالَ الدّليلُ ذلك، فاستغربتُ:

ـ هل لديكم هنا متاحفُ أيضاً؟!

ـ ليسـتْ لدينـا متاحـفُ عـن حضـارة اليابسـة غـيرُ هذا المتحـف الذي يعـجُّ بثـيران آشـوريّة وقِطـع نفيسـة مـن **بابـل**، فضلاً عـن منحوتـاتٍ من قصر آشـوربانيبال..

رأيـتُ الفرصـةَ مواتيـةً للسّـؤال عـن موضـوع كانَ يُحـيّرُني منُـذ أيّـام دراسـتي، ذلـك هـو لغـزُ الآثـار العراقيّـة التـي غرقـتْ في منتصـف القرن التّاسـعِ عـشرَ. قـرأتُ مـرّةً أنّها تكفـي لافتتاح أربعـةِ متاحـفَ عالميّة، ومن بينهـا عشراتُ الصّناديـق التي تحتوي عـلى آثار من بابل، وعـشراتٌ أُخرى مـن الصّناديـق، وخزانة تضـمُّ منحوتـاتٍ تعـودُ إلى قصر «آشـوربانيبال».

فهـل هنـاك أكثـرُ مـن حُـكّام النّهـر درايـةً بمصيرهـا بعـد أنْ تضاربت الأحاديـثُ عنها؟

الحكايـةُ الشّـائعة، تقـولُ بـأنَّ منظـرَ الأخشـاب العائمـة مـن تحطـم الأسـطول اسـتثارَ طمـعَ الأهـالي الذيـن اعتقـدوا أنّها تحمـلُ بضائـعَ ثمينةً

فهجموا عليها وأغرقوا معظمها، وهو رأيٌ لا يقبلهُ العقلُ، فالأكلّاك غالباً ما تنقلُ البضائع الرخيصة كالفواكه والتمور وليس النفائس التي تُنقَلُ بالسّفن الآمنة. المُنقّب «والس بدج» ذكرَ أنَّ الأكلاكَ قد تعرّضت لعاصفة، أدى تلاطم الأمواج العالية إلى تصادمها ببعضها وغرقها، وبالتالي غاصت التّماثيلُ الأثريّة في الوحل، وفُقِدَتْ إلى الأبد. فرنسيّون ويابانيّون من جامعة طوكيو بحثوا عنها في نهاية الخمسينيّات، وأجروا مسوحاتٍ دقيقةً انطلاقاً من ملتقى دجلةَ والفرات، ولمسافة سبعةِ كيلومترات، لكنَّ البعثةَ لم تعثرْ على أيّة قطعة أثريّة رغم الجهود المُضنية التي بذلتها.

سألتُ مُلَخِّصاً الموضوعَ:

ـ هناك آثارٌ غَرِقَتْ..؟

ولم أكدْ أُتمَّ جملتي حتّى أجابَ الدّليلُ مبتسماً:

ـ نعم أنت في حيٍّ، بُنيَ أصلاً بفضل هذه الآثار!

ـ ماذا قُلتَ من فضلك؟ أتعني أنَّ الآثارَ موجودةٌ هنا؟ لم تَضعْ؟

ـ كلّا يا صديقي! لم تضعْ، إنها هنا في هذا الحيِّ! كان الأثاريّان الفرنسيّان (يوتا) وزميله (فلانوان) قد نقّبا في موقع قصر الملك الآشوريّ **سرجون** الثّاني، ثمَّ أرسلا عن طريق دجلة إلى البصرة مئات القطعِ الأثرية، ولم يعرف أحدٌ للآن لماذا اختار هذان العالِمان طريقةً بدائيّةً لنقل نفائس تأريخيّة، فاختارا تهريبَها على ظهور أكلّاك..

كانت في طريقها للتّهريب إلى **فرنسا** بعد أن عثرَ عليها المُنقِّبون وعبأوها بأكياس خيش، لينقلوها على أكلّاك بسيطة تمويهاً، حتّى لا ينتبهَ أحدٌ لقيمتها. لم يعرِ العثمانيّون الآيلون للسّقوط الآثارَ القديمةَ أيّةَ أهميّة، بل أنّهم فجّروا أسوارَ بغداد، وأبوابَها التأريخيةَ عندَ انسحابهم

أمامَ الإنكلّيز! تركوا المُنقّبين ينهبون ما يريدون دون اكتراث. لكنّ الحرّاسَ المُشتركين لنهري دجلةَ، والفرات لمجتمع «إنكي» صادروا الآثارَ المُهرّبةَ في منطقة التقاء النَّهرين، «القرنة»، وأدخلوها أعماقَ المياه وشرعوا ببناء متحف في الموقع ذاتهِ وسرعانَ ما تكاثرتِ البيوتُ حولَ المتحف، ليتشكَّلَ واحدٌ من أكثرِ أحياء الرّافدين جمالاً.

لطالما راودتْني الشّكوكُ أنَّ المصير الذي رسمتهُ الرّواياتُ لهذه الآثار، وحكايات غرق الأكلّاك التي كانت تحملُها، ما هي إلّا تغطيةً لعمليّة سرقة كبرى..آآه أيّتها «المزعنفاتُ»..ياسلالة **أونيس**!..يا ناقلةَ الحكمة!

تجوّلْتُ قرابةَ ساعتين في أرجاء المتحف، والفرحةُ تملأُ روحي..

بعدَها أخذَني الدّليلُ في جولةٍ إلى المدينة العلميّة (ساكبا)، وسطَ العاصمة حيث كليّةُ اللّغات العراقيّة القديمة، ومختبر دراسة ظروف الحياة في **سومر**، و**بابل** و**آشور**:

ـ كما ترى، يُشيرُ الاسمُ إلى الحروف الأولى من سومر، آشور، كلّدان، بابل أكد ساكبا ينشغل الباحثون هنا بأسئلة صعبة، يحلّلون مثلاً القارَ القديمَ الذي وجدوه في الخرائب، ويتساءلون هل استخدمه العراقيّون كمادّةٍ عازلةٍ، أو رابطةٍ أو لكِلا الغرضين؟ ويبحثون في آليّة صُنع الحليّ الذّهبيّة الدّقيقة التي وجدوها في المقبرة الملكيّة، ويدقّقون في معرفة تأثير الشّمس على طبعِ العراقيّين القدامى، وتشكيل مدنهم وبيوتهم. مثلاً كيف تمكّن السّومريّون من معرفة ثابت التّربة الحراريّ[3]؟ فروَّضوا شمسَهم التي لاترحمُ، كما تجدُ في المختبر نموذجاً مصغّراً لبرج بابل وحدائق الجنائن المعلّقة، وأجوبة علميّة على السّؤال: كيفَ تمكّنَ البابليون من إيصال ماء الفرات إلى علوٍّ يتجاوز العشرين متراً؟ وماذا

---

3) المقصود بها ثبات درجة الحرارة لكلّ الأيّام من كلّ فصل.

كانـت وسـيلتُهم لرؤيـة النّجـوم البعيـدة؟ كلُّ ذلـك مـع نُسَـخ لنصـوص أدبيّـة وعلمّيـة بالعربيـة والإنكلّيزيـة والفرنسـية والألمانيـة ً والإسـبانية والصينيـة متوفّـرة للباحثين..(سـاكبا) تأسّسـت بعد تصويـت برلمان الآلهة عـلى تخصيـص مـوردٍ النَّهر لسـاعة واحـدة لغـرض بنـاء المدينة..

حيُّ سبايكر[4]

دُعيتُ أخرَ النّهار لمشاهدة حيٍّ بُنيَ على مسافة بعيدة من باقي الأحياء، وكانت آثارُ عمليّات البناء مازالت واضحةً، فسألتُ:

ـ يبدو أنّنا خرجنا من المدينة..

كلّا، نحن على أطرافها، لم تعدِ المدينةُ القديمةُ تتسّعُ للسكّان الجُدد! هذا هو أحدث أحياء النَّهر.. «حي سبايكر»

ـ «سبايكر»؟ هل لديَّكم هنا أيضاً «سبايكر»؟ هذه المفردةُ تُثيرُ بي الفزع، ألم تجدوا غيرَها في عالمكم المُسالم؟

ـ لا تتعجّل الأمورَ، ستعرفُ مِن مختار الحيّ كلَّ ما تودُّ معرفتَه. سيلخّصُ لك تَأريخ الحيِّ كلّه.

التفتَ الدّليلُ إلى اليمين حيثُ هناك شابٌ في بداية الثّلاثينيات يجلس إلى مكتب في شرفةٍ تدلَّت من سقفها سِلال زهورٍ ميّزتُ منها، زهرة الكاميليا، بدت أكبرَ قليلاً من المعتاد ونوعاً يشبهُ النّرجسَ لكنَّه أزرقُ اللّون! ثمَّ لمحتُ كتلةً بيضاء تَدلَّتْ من سقف الشّرفة، ذكرّتني بأعناق الثّوم التي كانت جدّتي تُعلِّقُها في طارمة البيت.

4) نسبة إلى مجزرة سبايكر، حيث قام فيها الدّواعش عام 2014 وبعد أنْ سيطروا على مدينة تكريت ، والموصل، بإعدام جنود عراقيين من الفرقة 18 ممّن كانوا مُكلّفين بحماية أنبوب النّفط الواصل بين بيجي، ومنطقة عين الجحش. المصدر (ويكيبيديا)

قطعَ الدّليل تأملّاتي عندما صاحَ مُنادياً بلطف:

ـ هل لك أنْ تتكرّمَ بتقديم عرضٍ لتأريخ الحيِّ لضيفنا؟

تهلّل وَجهُ الشّاب وقام وقد انحنى قليلاً تعبيراً عن تقديري، وهو يُرحّبُ بي، وقادني إلى حيث خارطةٌ كبيرةٌ مُثبَّتةٌ إلى عمودين ضخمين:

ـ هذه هي الخارطةُ النّهائية أو (ماستر بلان)، القسم المظلّل هو المُنجزُ والمتبقّي كما ترى أكبرُ بخمس مّراتٍ ممّا بنيناه للآن، فنحن نتوقّعُ طلباً مُتزايداً على بيوت هذا الحيِّ. لا نجدُ أفضلَ من أوّل النّزلاء للحديث عنه، فهو الآن دليلُ الحيِّ السّياحيّ.

وطلبَ منيّ تشغيلَ الجهاز والتوقّفَ عندَ زمن محدّد.

ـ أَسسَّ هذا الحيّ شخص متجهم الملامح، هو صاحب الفضل في تخطيطه والإسراع بتشجيع سكّانه من الشباب على السكن به..

ـ هل هو مهندسٌ معماريٌّ؟

ـ لا يعرفُ بحياته صنعةً غيرَ رصف الكلمات مع بعضها مثل جدار، بنّاءُ كلماتٍ من الصنف الرّديء..لو أردتَ ستسمعُ شرحاً صوتيّاً لخطاباته، لن تجِدَ أكثر منها إثارة للملل! لكنْ دعْكَ من ذلك، هذا شيء عنه، سُجِّلَ بمناسبة وضع الحجر الأساس للحيِّ، استمع، هذه يوميّات ضحيّة من ضحاياه، هذا الذي تراه مازالَ مُلطّخاً بالدّم، من أوائل السّاكنين. شابٌّ في الثّالثة والعشرين كانَ ينتظرُ ابنَه الأوّلَ، لكنَّ، طلقاً ناريّاً في رأسه وركلةً من آخر دفعته إلى عمق دجلة. ارفعْ مستوى الصّوت قليلاً ستسمعُ القصّةَ بنفسك..فنحن هنا نستمعُ لمقابلة معه.

توضَّحَتِ الصّورةُ فرأيتُ شابّاً ضئيلَ الجسم لم يتمكَّنْ من حبسِ دموعه، سالت، وراح يمسحُها بباطن كفيّه وصوتُه مُشبعٌ برماد شيءٍ احترقَ:

ـ قيادتُنا باعتنا، أتوسّلُ إليكَ أنْ تنقلَ الحقيقةَ منيّ، لم ألحقِ الاتّصالَ بأيِّ أحد، لم تهتمَّ قياداتُنا إلّا بتجديد الولاء لها وإعادة انتخابها، ولمّا عرفوا بأنَّ حظّهم يميل للتّلاشي حسموها:

أمّا نحنُ أو الخرابُ من بعدنا!

دخلَ الإرهابيّون علينا بخدعةٍ، باتّفاقٍ مسبق مُحكم. كنّا نعرف أن «تكريت» سقطت بأيديهم، لكنَّ موقعَنا كان مُحصّناً قابلاً للمقاومة لأيام إلا أنّهم طمأنونا بأنّهم سيُخلون سبيلَنا بعد تسليم موبايلاتنا وتوزيعنا إلى مجموعاتٍ صغيرة. سألني أحدُ المُلتحين:

ـ شيعي أم سُنّي؟

أجبتُ متلعثماً:

ـ أبي..سنّي..وأمي شيعيّة.

لو كنتُ أعلمُ لما قلتُ ما قلتْ ولكنّي اعتقدتُ أنّه سيحسبُ أبي قد كسِبَ شيعيّةَ لمذهب السّنة، فيرأف بي! قال:

ـ إذن يتوجّبُ أنْ نأتي بأبيك كي نعدمَه قبلك يا ابنَ المتعة!

أحسستُ بالأرض تَميدُ تحت قدميَّ. لقد وقعْنا بقبضة الدّواعش ولم يكنِ الخوفُ من الموت وحدَهُ، هو ما أفزعني بل أنْ يبيعَنا قائدُنا العامُّ بهذه الطّريقة النذلة! قادونا كالخراف العاجزة، أيدينا فوقَ رؤوسنا، وورائي مجموعةٌ من الملتحين، ثمَّ كتّفونا وبدأوا يُطلقون الرّصاصَ زخاتٍ على طول الطّريق، بلا تعيين فقط لإدامة الرّعب، كلّ لحظة تسقطُ مجموعةٌ فيركلّها حرسٌ آخرون ملتحون، لكي تنحدرَ للوادي باتّجاه الماء. فجأةً أحسستُ برشّة دم حارّةٍ هائلة تملأُ وجهي، لقد فجّرَتِ الصّلية رأساً لجنديٍّ مُكتّفٍ قريباً منّي. ظننتُ أنّني كنتُ

المقتولَ، لم تعدْ قدماي تحملاني، سقطْتُ ودفعني الخوفُ إلى محاولة التّدحرج للوادي لكنّي لم أوفَّقْ سوى بالوصول إلى حافة المنحدر تحتَ أقدام أحد الحُرّاس. موَّتتُ نفسي قدرَ ما استطعتُ، قطعتُ النَفسَ وفتحتُ عينيَّ مُحدِّقاً بالسّماء البعيدة، كنتُ أريدُ إيجادَ صلةٍ، أستنجدُ بربي فهو من يستطيع مدّ يد العون لي. تيقّنَ الحارس من موتي بعد أنْ رأى وجهي مُدَميّاً، رشَّ صليةً على ساقي وركلّني بقوة فتدحرجْتُ إلى أسفل، كنتُ أُعدُّ الأمتار المتبقية لي للوصول إلى جرف النَّهر. بقي متران، متر... وفجأةً اكتشفتُ وجودَ مُلتحٍ مهمته التّأكّدَ من موت مَنْ يهبط إلى النَّهر! نظر بعينيَّ وقرَّب بندقيتهُ من رأسي وأحس بأنفاسي فأطلق، تتت تتتت، أحسسْتُ بتطاير الذكريات مع نثار مُخي، وجه أمي، شهادة تخرجي قبل سنة، يوم زواجي، قريتنا وبساتينها، صورة ابني الذي تخيّلتُه وهو في بطن أمه، الملابس التي اشتريتها له، خَرَجَتْ كلّها مع أحشاء ذاكرتي، تلوَّثَتْ بدمي النّازف، تلوّثَ خزّان الذكريات المُحطم كلّه بدم رأسي المتدفق، ثمَّ وجدتُ نفسي في الماء أبيتُ ليلتي الأولى مع السمك..السمك كان مختنقاً، خياشيمه حُمر، الماء أحمر، ورغم موتي لم تقتربْ أية سمكة مني. في اليوم الثّاني قادني مبعوث مجلس الآلهة، إلى هذا المكان. كانت مجاميع الجنود القتلى قد وصلت قبلي، عرفتُ فيهم الشاب الأعرج الذي ضاق أحد الملتحين ذرعاً بمشيته البطيئة فجرَّهُ خارج الصف ورش جسده بطلقاتٍ متتالية ثمَّ ركلّهُ إلى الوادي. للوهلة الأولى، صمتُ لم أُجب المحقق عن اسمي فقد كان دماغي منشغلاً بالسّؤال الذي سألني إياه:

شيعي أم سنّي؟

أيّةُ مصيبةٍ هذه؟ قبلَ الموتِ كانَ أبي سنّيّاً وأمّي شيعيّةً والآن؟ أنا الآنَ في الآخرة، ولكنَّ ذهني كان مشوّشاً، فكما تعلّمْتُ يجب عليّ في الآخرة قول الحقيقة. كُلنّا خفنا من قول الحقيقةِ لكنّ المحقق فاجأنا

بمعلومـاتٍ مفصّلـةٍ عن حادثة «سـبايكر»، وقال لنـا: لمْ يعدْ مَـنْ خَدَعَكُمْ عـلى الأرض قـادراً عـلى خداعكـم في الميـاه. هـذا هـو حَيَّكُـم يـا ضحايـا «سـبايكر»..ظُلِمتم عـلى الأرض وسـيعوضكم الإلـه «إنكـي» في مملكـة العدالة.

لم نسـتلذّ بطعـم الحيـاة إلا بعـدَ موتنـا. هنا تحتَ المـاء عاملونـا معاملةً لم نألَفْهـا أرجوك «سـلَمْلي عـلى أهلي» ووصّيتي لهم أن يسـمّوا ابنـي أو ابنتي «إنكـي» وأخبرْهُـم أنّني هنا في الأعـماق مرتـاحٌ ولا ينقصني شيءٌ..

بـلا إرادة ضغَطْـتُ عـلى زرِّ الإيقاف، بعـد أنْ أحسسْـتُ بتلاشي قدرتي عـلى التّحكّـم بدموعـي. ربـتَّ الدّليـلُ عـلى كتفـي مواسـياً، وقـالَ بلطفٍ طالبـاً منّـي نـزعَ الجهاز عـن عينيّ:

ـ لايشتغلُ الجهازُ بوجود الدّموع ...فهما ضدّان لايلتقيان.

العودة

آخرُ ما أحسسْتُ به دفعةٌ قويّةٌ على ظهري، بعدها وجدتُ نفسي جالساً على جرف النَّهر في المكان ذاته الذي أدخلني منه «أونيس»، ثمَّ بدأ الطّنين الذي ملأ رأسي يخفُّ تدريجيّاً و عاد تنفُّسي إلى الإيقاع الطّبيعي بعدَ أن كان مُتسارعاً، وعميقاً، ومُضمّخاً برائحة كائنات الماء. لم تكنِ الشّمسُ قد استيقظَتْ بعدُ، لكنّها أزاحَتِ الغطاءَ ببطء عن وجهها المُنير. انسحبت العتمةُ عن صفحةِ الماءِ، وتعالى هديلٌ حزين لبضعِ حمائمَ، أتعبَها أرقُ ليلةٍ حارّة، سمعْتُها مثلَ صدىً ثقيل. ما الذي جرى لي؟ إنّني عائدٌ للتو من أغربِ مكان، وأعجبِ حدثٍ، حدثٌ يستحقُّ أنْ يتصدّرَ مانشيتاتِ كبرياتِ الصّحفِ، وأن يجذبَ الفضائيّات لتقفَ في صفِّ الانتظار أملاً في الظّفر بتصريح منّي، أو مقابلة معي.

أنـا عائـدٌ من مـكانٍ لايقلُّ إثـارةً عن كوكبٍ مسـكون بكائنـات عاقلة. مـكانٍ لـن تقـوى مخابرات البلـدان الكبرى عـلى تركـه، إنْ عَرَفـتْ به دون اقتحـام. إنَّـه تاريخ العـالم الحيّ، التأريـخ المُعاش دون توقـف، ودون فصل بـين حـاضر ومـاض. مارأيته بيّن زَيـف التأريـخ الواصل إلينـا عبر تحريف المؤرخـين، بـل فيه نقاشٌ لنظرّيـة التّطور وأساسـاتِ البيولوجيـا، لكنْ هل سـيُبقى مـا شـاهدْتُه سرّاً؟ نعم، على الأقـلّ الآنَ. يتوجّب عـليّ ألّا أتصرّف بمفـردي تحـتَ ضغـط فـرادة التّجربة، فأجـدُ نفـسي مُنسـاقاً للحديث عن كلِّ مـا رأيتُه. عـليَّ أنْ أفيَ بوعدي الـذي قطعتُهُ لأونيـس، ولا أنطق إلّا بعدَ استشـارته، ولكـنْ ما هـدفُ دعوته إلى تلـك المغامرة الفريدة؟ غـيرُ نقل ما رأيت مـن حقائقَ مذهلـة صادمة؟ .

فجـأةً لاحـتْ لي قامـةُ الحارس «شـلش» مـن بعيـد، فقمْـتُ مُرتبكاً لا أكادُ أحفـظُ تـوازني. خطـوتُ أُولى خطـواتي باتّجاه غرفتي مُترنّحـاً متمايلاً كأنّي مـا عشـتُ على سـطح الأرض من قبـلُ. حاولْتُ تفاديَ الحـارسِ بأنْ أسرعْـتُ الخُطى بالاتّجاه المعاكـس، لكـنَّ هـذا كان قريبـاً، وفي موقع عالٍ فلـمْ أفلـحْ مـن الزّوغان بعيـداً عـن عينيه الخبيرتـين، صاحَ مـن بعيد:

ـ صبـاحُ الخير أسـتاذ! رأيتُـك مـن بعيـد، فظننتُـك غريبـاً تسـلَّلَ إلى الموقـع. في هـذه السّـاعة وعـلى الشّـاطئ، كأنّـك بِـتَّ في النَّهـر. أريـدُ أنْ أشـكرَك عـلى الإجـازة، لكـنْ لم أفهـمْ ملاحظتَـك عـن الصّلة بـين صوت النّشـيج، وجهـاز ضخِّ الميـاه!

شـعرْتُ وكأنّ دفقـة مـاء بـارد تنهمـر عـلى أعـلى ظهري! كان«شـلش» مـن سـلّمني «أونيـس». إنَّـه أوّل من التقـى بهـذا الكائن الفريد، ولاشـكَّ سيسـألُني عـن مصيره. صحيـح أنَّ موقعَـه كحـارسٍ للشّركـة لا يخّولُـه لأكثـرَ مـن مهّمة الحراسـة وصحيح أيضـاً أنَّ «أونيـس» لم يُثـرِ اهتمامَه أكثرَ ممّـا يثـيرهُ متسـوّلٌ تسـلّلَ داخلَ فضـاءِ الشّركـة، لكـنْ لا يمكنُ تجاهـلُ أنّه

هـو مـن عثر عليـه. ولربّـما كان قد بلـغَّ عنه جهـةً أمنيّـةً ما، بدافـع التبجح أو السّـخرية مـن شـيخ خـرفٍ كسيح يَدّعـي أنّـه مـن أسـلاف البابليـين ويعيـش في قـاع النَّهـر، وربّـما يرومُ فتـحَ الموضـوع للثرّثـرة، لا غيرَ. اقترب الحـارسُ أكثرَ، وسـأل باسـتغراب:

ـ أسـتاذ «صفـاء» أنـتَ بملابـس السّـباحة! لـو كنّـا في حزيـران لقلتُ أنَّـك افتتحْـتَ يومَـك بغطسـةٍ في مـاء دجلـةَ، لكنَّـه نيسـانُ يا أسـتاذ..!

كشـفني الحـارس، نعـم، كيـف لم أنتبهْ لذلـك؟ مضتْ لحظـاتٌ حرجة بـين الصّمـت والهمهمة، كنـتُ أحاول خلالهـا ترتيبَ جملةٍ تـصرفُ اهتمامَه بحادثـة «أونيس». سـأقولُ لـه إنّنـي حقّقـتُ معَـه وتيقّنـتُ أنّه ليـسَ أكثرَ من متسـوّلٍ هَـرم مُعاق، مسـكين، مختلِّ العقـل، فأطلقْتُ سراحَه إشـفاقاً، لكـنّ «شـلش» أحَـسَّ على ما يبـدو بتجاوزهِ حـدود العلاقة الرّسـميّة معي فقال:

ـ أخشـى أنْ تـبرد أسـتاذَنا العزيـز! مـن سـيترجُم لمسـتر «دوغـلاس»، نحـنُ مـا شـاء الله عـربي لا نعرف!

وختـمَ جملتَـه بقهقهـةٍ أعـادتْ الهـدوءَ لي، فعُـدْتُ إلى غرفتـي بعـد أنْ تبادلْـتُ معَـه كلـماتِ مجاملـةٍ بلهـاءَ شـاردة، ثـمَّ ألقيـتُ بنفسي منهـكاً على السرّير.

أشـعرُ بـرأسي ثقيلاً مثـلَ بحيرةٍ هائلـة تتلاطمُ فيها الأمواجُ، والأسـماك والقواقـعُ، وتسـكنُ قعرَهـا مئـاتُ الصّخور الزّلِقـة. بدأ معـولُ القاع يهدمُ أسـسَ قناعـاتي الأرضيّـة. لم تكـنِ الانتقالـةُ الحـادّة مـن عالمـي الأرضيّ الـترُابيّ إلى عـالم آخـر غريب كليّاً، لتمـرَّ دون أنْ تـتركَ آثارهـا السّريعةَ على جسـدي وروحـي، وحتّـى هـذه الآثـارُ لم تكنْ تشبهُ أيّـةَ عـوارضَ مَررتُ بهـا مـن قبـلُ. فما أحـسُّ بـه الآنَ يصعـبُ وصفُـه، ليس تعبـاً، أو إجهـاداً،

أنـا أشـعرُ بتناثـر محتويـات ذاكـرتي مثـل عقـدٍ انفـرطَ تـوّاً. يئـنُّ رأسي على وسـادةٍ رطّبَتْها أنفـاسُ النَّهر. وقريباً مـن أُذني اليُمنى انتبهتُ إلى خشخشـةٍ مريبـةٍ تتصاعـد، لعلّهـا حـشرةٌ مائيـةٌ تـدبُّ عـلى الوسـادة بعـد أنْ عَلِقتْ بشـعري أثنـاءَ رحلتـي المائيّـة. رفعـتُ رأسي ونفضـتُ الوسـادةَ المبلّلـة، ثُـمَّ دُرتُ بـرأسي قليـلاً إلى جهـة البـاب، فرأيـتُ سربَ أفكارٍ تتعـاركُ مع بعضهـا بخليـطٍ من صياحٍ وجـدالٍ ونقـاشٍ صاخب. كان السّربَ يسـتعدُّ للدّخـول مـن أُذني اليمنى، فأغلقْتُ الأذنـينِ معاً بكفيَّ، لكـنَّ السّربَ كان سريعـاً، فأفلـح في ولـوجِ رأسي، ليتعاضـضَ مـعَ بعضـهِ بعد برهـة بعنف. صخـب، صخـب.. قبـلَ سـاعةٍ رأيـتُ شـبحاً يختلسُ النّظـرَ إليَّ بسرعـة ويختفـي، أعتقد أنّه «شـلش». « ربّما كان الحارسُ، شـكَّ بنيّتي في اسـتغلال خلـوِّ المـكان، فتكون فرصتُـه لتنميق تقريـرٍ، يُطيح بي، ويرفـعُ كاتبَه، هكذا هـي حياتُنا..

تركتُ الباب مواربـاً أختلس النّظر عبرَه بين حين وآخر، ورائحة أحشاء النَّهر، غرين نيسان، قد تغلغلَتْ في رئتيَّ. أنا أنتمي الآن لعالم الماءِ لا اليابسة، وطأةُ الهواء الثّقيل تملأُ صدري. لابدَّ لي من يوم راحة كي أتمكنَّ من ترميم ما تهاوى في أعماقي، من قناعات وما كنتُ أعتبرُه من المُسلّمات، ترميم...؟! تبدو هذه المفردة في غير محلّها هنا، ربّما أحتاج إلى إزالة مخلّفات ما انهارَ وليس ترميمه، أهِلِ الترّابَ على القمامة، لا تتركْها تتراكمُ، إكرامُ الميْت دفنُه، وخيرُ علاج للحقائق المزيّفة نسيانُها، لكنْ في كلّتا الحالتين لابدَّ من وقت. زيّنَتْ لي نفسي فكرةَ الاعتذار وتأجيل موعدي القادم مع «المزعنف» فشعرتُ ببعض الهدوء ومتعة التوّصّل إلى حلٍّ مريح واشتغلَتْ مُخيّلتي في هذه الأثناء باستعادة تذكُّر أحداثِ الأيّام الماضية، نمطِ البناء الرّومانسي الخلاّبِ في بيوت «حيّ العشّاق». شرفات بيوتهم المحاطة بالزهور وتكرار مشهد الأيادي المتشابكة والأرائك تتمدّدُ بحبور تحتَ جسدين متعانقَين. دهاليز «حيّ المغدورين»، الهياكل، والنُصب التي اختصرت مسيرةَ آلاف

السّنين، جدارية «إنكي، خادم الماء» التي كان سكّان النَّهر يعلقون قصائدَهم وآراءَهم واقتراحاتهم عليها، السّلاحف وقواقع الماء والضّفادع تأكلّ معاً على مائدة مختار الحيّ أثناء حفل بهيج راقص، الطحالب التي شكَّلت رسوماً مدهشة زينت أحذية أهل البيت. والمنظر الذي لن أنساهُ أبداً عندما انهمك ثعبان الماء باكياً وهو يحاول إسعاف سلحفاة جريحة. كان الثعبان الرؤوف يحاول جاهداً والدّموع تتقاطرُ من عينيه تضميدَ جرح حزَّ رقبةَ السّلحفاة التي عَلِقت داخلَ شبكة، تشكلّتْ من جذور وبقاياً شبكة صيد، أخيراً تمكّنَ الثّعبانُ بفضل همّته وصبره وبمساعدة حشدٍ من أسماك الجري اليافعة من تخليصِ السُّلحفاة وإعادتها إلى بيتها. أتذكّرُ كيفَ بقيت السّلحفاةُ تُلوِّحُ بيدها بامتنانٍ للثعبان من خلف زجاج شبّاك صالون بيتها.

تذكّرْتُ وقائعَ محكمة، حضرْتُ جلستَها حين كانَ المُتّهمُ الرّئيسُ بها بجعةٌ ضخمة التهمَتْ خمسَ أسماك، وقد أجبرَها القاضي على إعادة الأسماك التي كانت ماتزالُ حيّةً من حوصلتِها أمامَ الجميع واحدة بعد أخرى. كان الجمهور يُصفّقُ عندَ نزول كلِّ سمكةٍ، ويهتف مُطالباً القاضي بوضع حدٍ نهائي لانتهاك حقِّ الحياة من قِبَلِ هذه البجعة المتوحشّة، لكنَّ محامي البجعة، وهو «شبوط» شابٌّ وسيمُ الملامح استأذنَ القاضي، وأبرز أوراقاً ثبوتيّةً بدتْ قديمةً، سلّمها لكاتب المحكمة طالباً إدراجَها كوثائق تُثبتُ براءةَ المتّهمة.

قال المحامي:

- سيادة القاضي! هذه البجعة ضحيّةُ مرض، أجبرَها على فعلِ ما فعلتْ. فهي لم تتخلّصْ بعد من إرثها الأرضي السّابق، فبقيت هذه الصّفة الوراثيّة - التهام الأسماك الحيّة - ملازمةً لها، لذلك أطلبُ من المحكمة الموقّرة أخذَ هذا الدّافع بعين الاعتبار، و مساعدتها كي تتغيّرَ.. إنّها بحاجة إلى عمليّةٍ جراحيّة مُكلّفة.

دَفنـتِ البجعـة في هـذه الأثناء رأسَـها بـينَ رجليها خجلاً، واسـتغربتُ حينهـا كيـفَ أنَّ مـزاجَ الحضـور قـد تغـيّر مُتعاطفـاً مـع البجعـة، وشرع الجميـع يتبرّعـون لها..

وبعـد تـوالي المشـاهد المُثـيرة داهمنـي النّعـاسُ فاستسـلمْتُ لـه دونَ أن أُغلـقَ باب غرفتي الذي راحَتْ نسـائمُ نيسـان تتلاعبُ بـه كالأرجوحة... صيص..صيـص ..صيص....صيـص... بدا الصّـوتُ أوّلَ الأمـرِ مزعجاً لكنّـي تعوّدْتُـه ثـمَّ بـاتَ مرغوبـاً، كـم تتكـرّرُ هـذه الظّاهـرة في الحيـاة، ظاهـرة «تَعَـوّد المزعـج» ثـمَّ استسـاغةُ وجـوده وصـولاً إلى الاندمـاج به؟ كلُّ عقود الزّواج تسـيرُ بهـذه الآليّة، آليّـة «تقبّل الإزعاج تدريجيـاً»، الزّوجُ يشـعرُ بزوجتـه دخيلـةً على حياتـه، وهـي كذلـك. يخاصمُهـا، يطردُها من البيـت، يضربُهـا، يهدّدُ بقتلها، ثـمَّ يتعـوّدُ وجودَها، وتتعوّدُ وجـودَهُ، تموتُ فيـضربُ رأسَـهُ بالحائـط حزنـاً عليهـا.. ثمَّ يتعـوّدُ غيابهـا الأبدي.

آخر المحاضرات

تسلّلَ الصّباحُ من خلال فتحات السّتارة، ليرسمَ خطوطاً ذهبيّةً على الجدار المقابل، واستيقظتُ شاعراً بمرارةٍ في حلقي، واضطراب في دقّات قلبي، مرّةً تتسارعُ وأخرى تتباطأ. عطش حادٌّ يُجفِّفُ خلاياي، هل هو الحنينُ إلى الماء؟ ربّما تحوّلتُ إلى سمكة! مرّةً سألني معلّم العلوم: هل تعتقدُ أنَّ السّمكَ يشعر بالعطش أحياناً؟ أجبت:

لا أستاذ! العطش يأتي عندَ الشعور بالحرّ ولا حَرَّ في الماء.

هل كانَ ذلك صحيحاً؟ للآن أنا غير متأكّد من أنَّ السّمكَ لا يشعرُ بالعطش، ربّما كانَ من الأصحِّ أنْ تكونَ إجابتي: نعم، إذا ابتعدَ عن الماء. فها أنا قد عشتُ أيّاماً قليلة في الماء، وعندما رجعتُ إلى اليابسة داهمني العطشُ.

قُمتُ، وفتحْتُ حنفيّةَ الماء، ووضعْتُ رأسي تحتَها، أها، عُدْتُ سمكةً، لكنْ في الغرفة..ما أصعبَ أنْ ينطوي المرء على سرٍّ! سرّ خاصّ خطير كالذي أحملُه. سرّ ليسَ بوسعك الحديثُ عنه حتّى مع أقرب المُقرّبين..لم يعدْ في الوقت متّسعٌ، بشكل ما يتوجّبُ عليَّ إيصالُ رسالةِ النّهر، هذه هي مهّمتي المقدّسةُ الآن..

وجدتُ نفسي أفكّرْ إنْ كانَ هنري قد عرفَ شيئاً، أو صار جزءاً من اللّعبة، لستُ غشيماً فأنا أيضاً أعرف أسرارَها. كان عليّ الاستعدادُ

لاستئناف الحديث عن النَّهرين (المنزعنفين) مع فريق الشّركة الأوربيّة، لكنَّ صباحي مضى برأسٍ ثقيل، لم يخفّفْ من ثقله الماءُ البارد. تناولتُ قُرصي أسبرين، وشربتُ ثلاثةَ أكوابٍ من القهوة. تدرّبتُ مِراراً أمام المرآة على وضعية مترجم، لم يهبطْ بما يشبهُ المعجزةَ إلى قاع النَّهرِ، معَ كائن اسمه «أونيس». حاولتُ أنْ أمسحَ من ذاكرتي وشوشةَ الماء، صوتَ خشخشة الهياكلّ العظميّة التي رأيتُها، رائحةُ السّمك الميْت الذي تعثّرتُ به، الزعانف الحادّة التي انغرزَتْ بكعب قدميّ، ضغطَ الماء على رأسي، نعم ضغطَ الماء، الله يساعد الغرقى على سنين من ضغط الماء، كيف تحملوا كلّ ذلك؟ يجب أنْ أتناسى ولو مؤقّتاً القصصَ المرعبةَ التي سمعتُها عن سكّان الماء. ضربتُ رأسي أربعَ ضرباتٍ كي أختبرَ وجودي في عالم الأشياء الحيّة، أنا أتألّمُ، إذنْ أنا حيّ، نعم أوجعتني الضّربةُ الثّالثة على الأخصّ، إذنْ أنا حيّ! وحرّكْتُ كفيّ مِراراً أمامَ عينيّ، لأطردَ صورةَ زعانف «أونيس» التي تحرّكَتْ على الطّاولة أمامي. لابدَّ من أنْ أكفَّ عن التّنفسّ العميق كما لو كُنتُ سمكةً افتقدت الماء.. عُدْ إلى الأرض يا «صفاء»! أُتركِ السّمكَ والمزعنفَ، النّاسُ بانتظار محاضراتِك، أنتَ العراقيُّ الأكثرُ موضوعيّةً والأكثرُ إقناعاً كما قال عنك «هنري».

حتّى تكونَ العراقيَّ الأكثرَ إقناعاً فعلاً، لابدَّ أوّلاً من الابتسام، ذلك هو ما سيميّزُكَ عن الموظّفين العابسين الذين يُمطرون مقابليهم بنظراتهم النّارية المتغطرسة.

امتلأتِ القاعةُ. ابتسمَتُ ابتسامةً عريضة، لكنّها استطالت على أديم وجهي عريضةً بلا معنى، عريضةً أكثرَ ممّا أردتُ حتّى أنّني شعرْتُ بعينيّ تبتعدان عن بعضهما. تخيّلتُها ابتسامةً بلهاءَ تماماً، ابتسامةً ملفّقةً لم تكنْ تنتمي يوماً لتضاريس وجهي، لكنّه السّرُّ الذي يلعبُ بصدري.

بـدأتُ الحديـثَ بتحيّـةِ الحاضريـن، وتمنّيـاتي بأنْ يكونـوا قد أمضـوا عطلة عيـد فصـح سـعيد، ولم أسـتطعْ تمالـكَ نفسـي فحدّثتُهم عـن أيامٍ مدهشـة قضيتهـا أثنـاءَ غيابهـم. بسرعة انتبهت لشـططي، وطالبت لسـانيٍ بالصّمود ويبـدو أنَّ مونولوجـاً صغـيراً قـد سُـمعَ في القاعـة، بضـع كلّـمات بصوت عـالٍ، كان ذلـك واضحـاً مـن وجـوه الحاضريـن المُحملقـة بي. ابتسـمتُ ببلاهـةِ مَـنْ لا يسـتطيع التّعبيرَ بالكلـمات، وشـعرتُ بحـرارةٍ تتصاعدُ من جسـدي، فدلفـتُ لنهـرِ الفرات:

ـ عـلى ضفـافِ الفراتِ يـا أصدقاء نَشَـأتْ أولى الحضـارات! قبل الميلاد بآلافِ السـنين أهمُّها الحضارة السّـومريَّة، ومازالَ الغموضُ يشـوبُ الكثيرَ مـن تأريخهـا، مُـدنٌ كاملـةٌ مـا زالت ترقـدُ مع أسرارهـا تحتَ الـتّراب، وفي أعـماق الأنهر..

اسـتمعوا إلى هـذه القصّـةِ: عندمـا سـاحت ذاتَ ربيـع سـيولٌ عارمـةٌ طغَـتْ في منابـع نهـر الفـرات، فـاضَ واتسّـعَ، وخرجَـتْ أحشـاؤُهُ مُتعبـةً لتتناثـرَ على الشّـاطئ. سـمكتان كبيرتان قاومتـا الجفافَ والعطـش، فعادتا ببطءٍ وإصرار سـابحتين إلى النَّهـر. بدهشـة قالـتْ إحـدى السّـمكتين للأخـرى أترينَ مـا أرى؟ مـا هـذا الـذي يطـوفُ هنـاك؟ ردَّت الأُخرى: لعلـه قـاربٌ حطّمـه الفيضـانُ، أو بيـتُ صيّـاد جرفتْـهُ السّـيولُ أو حِصانٌ داهمَـهُ المـوجُ، لنسـبحَ كـي نـراه. بعـد أنْ وصلـتِ السّـمكتان، هالَهُـما مـا شـاهدتاه. كان مـا يطفو على سـطح المـاء بيضةٌ هائلـة الحجم، لم تريـا مثلَها مـن قبـلُ. قالـت إحداهمـا للأخـرى: يالها مـن بيضة كبـيرة! تُـرى ماالذي سـيخرجُ منهـا؟ دفعَ الفضـولُ السّـمكتين فتعاونتـا لدفع البيضـة برفقٍ إلى شـاطئ الفـرات يحدوهمـا أمـلُ مراقبـةِ الكائـن الـذي سـيخرجُ منهـا بعـد حـين. فجـأةً، وبعـد أنْ اسـتقرَّت البيضـةُ الهائلةُ عـلى اليابسـة، هبطت من السّـماء حمامـةٌ بيضاءُ عملاقـةٌ وشَـبَكت أقدامَها عليها لتحملَهـا بعيداً عن مجـرى النَّهـر. بَكـتْ إحـدى السّـمكتين بحرقة:

أرايتِ كم ظُلمنا! فلم نُمنح جناحين.

فردّتْ عليها الثّانيةُ:

وهـل يمكـنُ لحمامـةٍ، العيـشُ في الماء لحظـةً واحـدةً؟ ما تفقدينَـه ذهبَ لآخـر، بينـما فقـدَ هذا الآخـر ما تملكينَـه أنتِ..هـذه هي الحيـاة ياصغيرتي!

غفَـتِ الحمامـةُ الكبيـرةُ بحنان عـلى البيضـة النّاجية من طوفـان الفرات إلى أنْ فَقسـت، ويا للعجـب! لم يخرجْ من البيضة الكبـيرة حمامةٌ، ولا أفعى، ولا سـمكة، ولا حتّـى نعامـة، أو بجعة، بـل طفلةٌ باهرةُ الجـمال مع أسراب حمـام مـن حولهـا، تـرفُّ بأجنحتهـا لتدفـعَ عنهـا حـرَّ النـهّـار وبـرد اللّيل. لكـنْ كيـفَ لحمائـمَ أنْ تُطعـمَ طفلةً في موسـم فيضـان؟ بعد جهـدٍ وبحثٍ وجـدتِ الحمائـمُ مؤونـةً لرعـاة، وقـد خبّأوها في مـكانٍ بعيـد فحملت كلَّ يـومٍ بعـضَ الطّعـام للطّفلة التي نَمَـتْ بينَ الحمائـم. لكنَّ الرّعـاةَ انتبهوا إلى تناقـصِ طعامهـم، فتركـوا أحدَهـم يراقبُ المكانَ، ومـا لبثَ الحـارسُ أن رأى الحمائـمَ تملأ مناقيرَهـا بالحليب وتُمسـكُ قطعَ الجبـن بمخالبها، وتطير إلى مـكانٍ غـيرِ بعيـد، خلسـةً تتبّـعَ الرّعـاةُ الحمائـمَ إلى أنْ عثروا عـلى مكان الطفّلـة ذاتِ الجـمال الآخـاذ فانبهـروا بهـا، وحملوهـا إلى مضاربهـم بعد أنْ قرّروا تسميتَها«سـميراميس».

كـبرَتْ «سـميراميس» لتتـوّجَ فيـما بعـدُ ملكـةً لنينـوى، تلك هـي التي قالـت: «إنّـني اسـتطعتُ كبـحَ جمـاح النّهـر القـويّ، ليجـريَ وفـقَ رغبتي لـتروي أراضي بـوراً غيرَ مسـكونة، فجعلتُهـا خصبةً ومأهولـةً، وأحكمْتُ السّـيطرةَ عـلى مياه الأنهـار، وغـيّرْتُ مجاريهـا لتزيـدَ مسـاحاتُ الأراضي الخصبة»

كلُّ ذلـك يُشـيرُ إلى أهميّتهـا ولكن..بالعـودة إلى « سـميرا ميـس»، كنّـا قـد قرأنـا القصّـةَ وفي مؤخّـرة دماغنا قناعـةٌ مسـبقةٌ بأنّها أسـطورةٌ، أيِ: في

الفهـم العـامِّ، أكذوبـةٌ، قصّـةٌ نرويهـا للصّغـار، كـي ينامـوا. ترجمنـا كلمةَ سـمكة لمجرّد قيـام فعل دفـع البيضة الكبيرة للشّـاطئ، لكنْ لمـاذا لا تكون السّـمكةُ هنا بمعنـى «الكائـن المائيّ»؟ ولمـاذا لاتكـون البيضةُ هـي مخزنَ الحكمـة؟ والجمـال والحقيقـة، بـل، وجذر الحيـاة الـذي يتوجّـبُ أن يُحفظ مـن الغـرق والضيـاع، هكـذا نتعاملُ معَ مـا تركه الأسـلافُ، نقـول: إنّهم أسّسـوا أولى الحضارات العظيمة، ولكننا لا نملكُ حتّى الرّغبةَ في الكشـف عـن آثـار هؤلاء العظـماء. لنعـدْ لعزيزتنا «سـميراميس»، هل وُجِـدَتْ حقّاً أم أنّهـا مُخيّلـةُ النّاس؟ هـي التي تخلق الأبطـالَ والآلهة، هذا كلُّـه ليسَ مهمّاً. فالأسـطورة العظيمـة لا يخلقُها إلا الشّـعبُ العظيـم. والشّـعبُ العظيمُ لا يخلـق أسـاطيراً للتّسـليّة..تذكّروا ذلك..ولكن اسْـمعوا يـا أصدقائي كري الأنهـار الكـبرى! وتنظيفَهـا، عمليّة حساسـة، فأنت لا تتعامـلُ مع مخلفات وغـوارق غاليـة قـد تكـون مليئـةً بالذّهـب! ولكـنْ تتعامـل أيضاً مـع كمٍّ هائـلٍ مـن أحيـاء وعضويـات، أنت عمليّـاً تُهاجـمُ مسـتوطنةً مائيّـةً عاجّةً بأنـواعِ الأسـماك والطيّـور والنبّاتـات والأفاعـي والسّـلاحف والحشرات والطّحَالـب، والنّاس..!

كـدْتُ أتحـدّثُ عـن «أونيـس» لكنّـي أفلحْـتُ في تحويـل جملتـي التـي حـوَتْ مفـردةَ «النّـاس» إلى:

أعنـي كيـف سـتتفاهمُ مـع هـذه البيئـة الحيّـة؟ كيـفَ تتفـادى تخريـبَ بيوتهـا وإثـارةَ غضبهـا؟ أنتـم تعرفـون ذلـك لكنّنـا عندمـا نتحـدّثُ عـن دجلـة والفـرات، فعليـك أنْ تتجنّـبَ مس مقـرّ الآلهـة، فالفـرات مثلاً نهر مقـدّسٌ فللفـرات ربٌّ، حـينَ يغضـبُ عـلى رعيّتـه، يُعاقبهـم بالطّوفـان. وكانـت الرّعيـةُ تَنـذرُ لـه النّـذورَ، وتتوسّـلهُ ألّا يغضـبَ عليهـا. الحيـاةُ غريبـةٌ، وعصيّـةٌ على التّفسـير، حتّـى في جوانبهـا التي تبـدو للوهلة الأولى سـهلةً، وبديهيّـةً، فهـل أن الجـذورَ هـي من يفـرض الشّـجرة، أم الشّـجرة

هـي مـن يُحـدّدُ الجذر؟ هـل يقول الجـذر للجـذع، والأغصان أنـا مغروسٌ في التّربـة بما يسـمحُ لكـم بالارتفاع إلى خمسـة أمتار لا أكثـرَ، أم أنَّ الغصونَ والجـذعَ هـي التي تُوعـز للجـذر بالتغلغل في التّربـة أكثر؟ فتقـولُ له غُصْ بالتّربـة أعمـقَ وأعمقَ وتمدّدْ، لكـي يمكننـا الارتفاع أكثر، ربما تسـتغربون هـذا التسّاؤلَ ولكـنْ فكّـروا لو أنَّ هـذه الشّـجرةَ مصنوعةٌ من الإسـمنت بنفس الثّقـل، تُـرى كيـف يمكـنُ تثبيتُهـا؟ وهـي تكـبرُ، وفروعهـا تتوزع في كلّ الجهـات، هـل أنَّ ريـحَ الخريـف هـي التـي علّمـتِ الأوراقَ أن تتهيّـأ للسـقوط كلَّ عـام في وقـت هبوبهـا، فتصّفـر، أم أن الأوراقَ بعـد أن تجـفَّ ويقـلَّ عطاؤها تستفزُ الهـواء فيتلوّى مـن الألم؟ هل قالـت الأوراقُ للريّـح هيّـا تعـالي أسـقطيني، فقـد انتهـت مهمّـتي لهـذا العـام؟ هـل هـي التـي تسـتدعي الرّيـحَ؟ لأنّهـا إن لم تأتِ فسـوف لن يكـونَ نموٌّ وسـتختلُّ مقاديـرُ مكوّنـات الهـواء وحرارتـه ولن تهـبَّ رياح، ولكـنَّ هذا كلّـه ليسَ مُهّـماً. المهـمُّ، هـو النَّهر الذي تَعِـبَ من الجريان، الأسـماكُ الميْتـةُ والفطائس والضّمائـر الميْتـةُ لكثرتها، سـدَّت مجرى النّهر، النَّهـر يختنقُ، تعفّنَ السّـمكُ الميْـتُ مـعَ بقايـا الضّمائر الميتـة وجثـث الأبرياء..

شعرتُ بحـرارةٍ تكتسـحُ جمجمتـي، كنـتُ مضطربـاً، وتعـذّرَ علـيَّ الإمسـاكُ بالفكـرة التـي أريـدُ إيصالَهـا فما الـذي كُنـتُ أريد قولَـه؟ كانت جُملي غـيرَ متماسـكة، وكأنَّ هنـاك مـن يتكلّـمُ نيابـةً عنّـي! حاولـت مـرّةً أخـرى: السّـومريّون والأكّديّـون والبابليّـون مؤمنـون أنَّ الفيضـانَ تعبيرٌ عـن غضـبِ الآلهـة عـلى البـشر الخطّائـين، لذلـك يهرعـون قبـلَ الفيضان لتقديـم الضّحايـا تكفـيراً عـن أخطائهـم..

تَوقّفْـتُ فجـأةً، لابـدَّ أنَّ «هنـري» ظـنَّ أنّي جئْـتُ للمحـاضرة بعـدَ أنْ احتسـيتُ قـدراً كبـيراً مـن الكحـول، فهمـسَ بـأذن مَـنْ هـو بقربه شـيئاً.

فجـأةً خطـرَتْ لي فكرةٌ: لمـاذا لا أُخبرُ «هنري» بالأمر؟ نعـم صحيح أنّه

رأسمالي، مالك الشّركة أوّلاً، وأخيراً، لكنَّه مثقّفٌ موثوقٌ، ومهما كانت درجةُ تقبّله للموضوع، فلن يسخرَ منيّ بكلِّ تأكيد. الأوربيّون جادّون حتّى مع الخُرافة، فكيفَ بحقائق رأيتها بعينيّ؟ تطوّرتِ الفكرةُ أكثرَ:

لماذا لا أُقنعُ «أونيس» بالسّماحِ لهنري بمرافقتِنا إلى قاعِ النَّهر؟

مرّةً واحدةً على الأقل، أنذاك سيبدأ الإعلانُ عن الاكتشاف من لندن، ولكنْ كيفَ سأقطعُ الطّريقَ على تفعيل نظريات المؤامرة التي ستتّهمُني بالتّنسيق مع «قوى خارجيّة، لاتريدُ الخيرَ للوطن، والأمة»؟ أحتاجُ أوّلاً لأنْ أسيرَ بالمحاضرة حتّى نهايتها التّقليديّة دون إثارة انتباهِ أحد، ودون أن تَفلِتَ منّي كلمةٌ واحدةٌ، تُشير إلى رحلتي العجيبة المُثيرة إلى أعماق النَّهر.

حاولتُ الاستمرارَ بالحديث:

ولكنْ من أين أتى هؤلاءِ الأفذاذُ؟ أقصد السّومريّون، يُقال: إنَّ هذا الشّعبَ ظهرَ في بلاد ما بين النَّهرين منذ زمن سحيق، قبل الميلاد بطريقة مختلفة عن المعهود من غزو، وتدمير. استوطنوا البلادَ، لكنّهم لم يذلّوا سكانَها الأصليّين ويبيدونهم كما فعل الأوربيّون معَ الهنود الحمر، ولكنْ مَن الذي ثقّفهم بثقافة السِّلم الاجتماعي؟ من علّمَهم العلومَ المتطوّرة؟ كيفَ بلغوا مستوىً لم تعرفْهُ البشريّةُ إلّا قبلَ سنين معدودة؟ كانت مدينةُ **إيريدو** مركزَ إشعاع الحضارةِ السّومريَّة الذي أضاءَ أنحاءً واسعةً على ضفاف نهري دجلةَ، والفرات لثلاثِ آلافٍ منَ السّنين، منتقلةً من إيريدو إلى أوروك، وأورو ولكش وشوروباك، وأداب ونيبور وكيش ماري آشور. من أين أتى هؤلاء؟ ولغتهم لاتشبهُ أيّةَ لغة في محيطهم المجاور، ولا اللغات التي نشأت فيما بعد، ما كانت مهامُهم؟ والأهمَّ من كلِّ ذلكَ أين اختفوا؟ مجتمعٌ متطوّر، قضاءٌ، محاكم، هيئات محلّفين، مجلسُ نوّاب، تشريح، صيدلة، كيمياء، غزل ونسيج، زراعة.. كتبوا نصوصَهم على ألواحٍ طينيّة، نقشوا رسومَهم التّوضيحيّة على أختام

أسطوانيّة. آلاف من النّصوص، والرّسوم التوّضيحيّة المُحيّرة، الفلك الرّياضيّات، حساب مساحات الأشكال الهندسيّة المُعقّدة، واستخراج الجذور، حلّ المُعادلات بمجهولين، أو أكثرَ، بالإضافة إلى النّسبة الذّهبيّة وعدد فيبوناتشي[5]، نظام مُعقّد في الحسابات، لم يستخدمْهُ البشرُ، إلا بعدَ عصر الحاسب الالكترونيّ. كيف توصّلوا لمعرفة حركة النّظام الشّمسيّ؟ فصوّروا الشّمسَ وهي في مركز الكون مُحاطةً بإثني عَشرَ من الكواكب، من أين أتى العلمُ للسّومريين؟ وكيف اختفَتْ علومُهم؟

لكم أنْ تتمتعوا بتصور اليوم الذي يأتي أحدُهم ويعتلي المنبر ليقولَ:

أيُّها النّاسُ! أنا «المزعنَفُ رسولُ الماء» جئتكم لأخلعَ عن التأريخ ثيابه.

أينَ ذهبوا؟ فكّروا معي، أين هم؟ الحقيقة أنّهم هناك..هناك.

وأشرْتُ دونَ إرادتي إلى النّافذة المُطلّة على نهر «دجلةَ»، فنظر الحضورُ إلى حيثُ أشرْتُ مُستغربين.

مرةً أُخرى كدْتُ أنزلقُ لعالمِ «المزعنفِ»!

لكنّي، انتبهْتُ أخيراً إلى نفسي، وحاولْتُ تغليفَ جملتي بضحكةٍ تُنقذُني من ورطتي:

ـ صدقتم إن **السّومرِّيين** ينتظروَنكم هناك؟ إذن قصّتي كانت مشوّقةً ها ها ها..

كنتُ صباحَ اليوم التّالي أرومُ البنكَ لمتابعة معاملة قرض الشّركة الأخير، وقبلَ أن أُغادرَ غرفتي أعددْتُ لنفسي كأساً، ثمَّ سمعْتُ صراخَ «شلش»:

---

5) Fibonacci numbers،في الرياضيات، مُتتالية يساوي فيها الحد مجموع الحدين السابقين، نسبة إلى عالم الرياضيات **ليوناردو فيبوناتشي**.

ـ أستاذ «صفاء»!

فتحْتُ البابَ مستفهماً:

ـ ما الخطبُ يا «شلش»؟!

ـ هزّةٌ أرضيّةٌ أستاذ «صفاء»! الله يستر، ما بقى إلّا الهزّات!

ـ هزّة؟ لم أحسَّ بها، ومع ذلك ماذا تتوقّعُ «شلش»؟ جماعتُنا فرّغوا الأرضَ من أحشائها، أربعةُ ملايين برميل في اليوم، هذا هو الرَّقمُ المعلنُ، أمّا غير المعلن فربّما ضعف هذا، هذه الأرض التي تركضُ عليها، صارت مثلَ كرةٍ كبيرة ثقبوها، وفرّغوها من الهواء ونحنُ نتراقصُ فوقَها، ألن تنخسفَ بنا؟

ـ هذا السّببُ برأيك أستاذ؟ يقولون: انتقامٌ من ربّ العالمين، النّاسُ هرعوا للمساجد، لأداء صلاة الخوف، وجئْتُ استأذنُك للسّماح لي بالالتحاق بهم لساعة واحدة. سترك يا إلهي!

يمكنُك النّظرُ لذلك كانتقام من ربّ العالمين، ولكنْ يجبُ أن يكونَ عند ذاك انتقاماً من المُسبّبين وليس من الضّحايا الأبرياء..اسمعْ منّي «شلش»! واجلس شاركني الكأسَ، دعْنا نشربْ نخبَ عالمٍ أنظفَ، بغلافٍ جويٍّ سليم، وطبقةِ أوزون لا ثقبَ فيها، عالم لا يتأرجحُ تحت أقدامنا..مثلَ عالم «أونيس»..

تداركتُ نفسي بسرعةٍ، فابتسمْتُ للحارس وغيّرتُ الموضوعَ:

ـ انظرْ «شلش»! ما أحلى الحياةَ هنا! وما أكثرَ أنس المكان! لولا ضعف مجرى النَّهر.

وَجَّهَ الحارسُ لي نظرةً بلهاءَ وحدسَ أنّني لا أرغبُ في منحهِ إجازة مؤقّتة، فتشاغل بالنّظر لساعته مُداراةً لحرجه، ومضى بخطواتٍ سريعة، ليختفي

خلفَ التّلة، مكانه اليومي قُربَ البّوابة الرّئيسيّة. لم يكتفِ هذا الحارسُ بأسبوعين، عطلة منحتُهما له، يحسبني ربَّ عمله، وأنا لم أكنْ في أيِّ وقت من حياتي ربّاً لا لعمل، ولا لأسرة..والحقُّ لو عرفَ ماحدث معي، ولماذا منحتُه أُسبوعي عطلة، لتلاعبَ ربّما بمصيري، لكن انطلَتْ عليه اللّعبةُ كما يبدو!

تعمّدْتُ الذهابَ للبنك مشياً، وسأعود منه مشياً في السّبيل ذاتِه، لديَّ عطشٌ لليابسة، وأهلها بعد أيّام من مشاركة القواقع، والأسماك والمزعنفات الكبيرة حياتها المائية. أعجبني البقاءُ في أعلى طابق.

تشبهُ بغدادُ في صباح ربيعيّ مشمس منظوراً لها من أخر طابق في بناية البنك المركزيّ فراشةً عملاقةً متعبةً، تفرشُ جناحيها بكسل وتستعدُّ ببطءٍ للنّهوض من نومها مبتسمةً ابتسامةَ من نام نوماً هانئاً، لكنَّه لم يستعدَّ بعدُ لسباق النّهار. هناك في البنك شغلَتْ أخبارُ «الهزّة الأرضية» جميعَ الموظّفين فخلقَتْ لهم مبرّراً لترك مكاتبهم، والتّجمع في الطّابق السُفلي متسلين بتبادل التّفسيرات. النّاس على دين ملوكهم. لم أسمعْ تفسيراً واقعيّاً واحداً لسبب الهزّة. هبطتُ لأعبرَ الجسرَ. تصوّر لو أنَّ الماءَ مثلُ الزّجاج، صافٍ بذرّات متبلورة، كما قال المزعنفُ، تسمحُ بولوج الموجة الضّوئيّة من خلالها، لانكشفَ سرَّ النّهر.

لا، سوف لن ينكشفَ، عندها لابدَّ أن يلجأ «المزعنفُ» وجماعتُه لتكتيك التّواري..هؤلاء لديّهم خطّةٌ لكلِّ طارئ. نقّلتُ نظري بين المارّة على الجسر، كانوا لاهين عن النَّهر بأنفسهم. كلٌّ يغوص داخلَ نفسه، واحدٌ يترنّمُ بأغنيةٍ يرددها بخفوت، آخرُ يتعوّذُ من الشّيطان، والأغلبية صامتةٌ توجّه نظراتٍ ساهمةً إلى لا اتّجاه. كلُّهم يسيرون كأنّما بفعلِ قّوة مغناطيسيّة تحرّكُهم من الكرخ للرصافة ومن الرّصافة للكرخ. كلُّ هؤلاء المارّة لايكترثون للنّهر، فهو لايشكّلُ لهم سوى ماء يسّرَ لهم الجسرُ مهمّةَ عبوره، الجسر أهمُّ من النَّهر. أمّا أنا، فمنغمرٌ

بالنّهر وقصّته. مُحمّل بالأسرار التي أفكّرُ الآن بتسريب قليل منها لصديقي الأثير «نادر» المُحرّر في جريدة «ندى الصّباح».

لماذا «نادر»، وليس غيره؟ السّببُ واضحٌ، فنادر مسؤولٌ عن «صفحة علوم»، وهو أكثرُ تقبّلاً لتصديق القصّة لأنّه سيقرأُها بعيونٍ، تبحثُ عن المعرفة، لا الإثارة كباقي الإعلاميّين. لم أنمْ ليلَ البارحة، ربّما ساعةً واحدة. تأرجحْتُ مِراراً في سبيل اتّخاذ قرارٍ حاسم، هل سأُخرجُ بعضاً مما عرفتَهُ من أسرار نادرة للعلن، أم أنتظرُ لحظةً أكثرَ مناسبة؟ أخيراً اخترْتُ طريقاً أقلَّ مجازفة، سأُسرّبُ لنادر شيئاً من القصّة! أكيد، لن أخبرَهُ قصّةَ لقائي «المزعنف» ولا رحلتي المثيره معه إلى أعماق النَّهر، ولا العوالم الآخاذة بغرابتها وتفرّدها هناك، ولكنّ سأنقل له بطريقة لا تُثيرُ الشّكوكَ، شكوكي أنا بوقائع التّاريخ! سأخبره بتلقائيّة بعدَ أن أجِدَ مدخلاً للحكاية:

ـ شوف « نادر»، تيقَّنْتُ الآنَ أنَّ تاريخَنا كلَّه مزّيفٌ!

وعندها سيستفسرُ منّي:

ـ ماذا؟ تهمةٌ جاهزة مُكرّرةٌ، ما هو دليلك؟

فأقول:

جهازُ السّفر عبرَ الماضي!

سيسألُ:

ـ ماذا؟ ماذا قلْتَ؟

ـ الوسيلةُ التي تريك الماضي كما كانَ، وليس كما كتبوه، وكما وصلَ إلينا!

سيردُّ دونَ شكٍّ:

ـ مُضحكٌ حقّاً، تقصدُ أنّكَ تنفي حقائقَ التّأريخ بحكايات الخيال العلمي..

حينها سأضطرُّ لقول بعضٍ من كلِّ ما أعرفه!

ـ لا «نـادر»، لا ليـس خيـالاً علميّاً، الخيـالُ العلميُّ غـيرُ موجود إلّا في مخيّلـة كاتبـه، أمّـا الجهاز فقـد كان مُركّباً عـلى حدقتي عينيّ هنـا، لقد رأيتُ مـا يذهـلُ العقـلَ، ولأنّي أثقُ بك أقـولُ لك ذلك!

ـ «صفـاء»! مـا الـذي جـرى لـك؟ هـل أنـت جـادٌّ؟ ظننتُـك تمـزح! عزيـزي! مثـلُ هكـذا جهـاز يتعـارضُ مـع بديهيّـات العلـم، دعْنـا نسيرُ بسرعـة الضّـوء أوّلاً، ثـمَّ نفكّـرُ بجهـازك.

مـا الذي سـأردّ بـه؟ أقولُ لـه إنَّ الجهـازَ ليس مـن صنـع حضارتنا، بل حضـارة أخـرى تتقدّمنـا بثلاثـة آلاف عـام؟ آنذاك لابـدَّ من قـول الحقيقة كلّهـا، كيـف عرفـت ذلـك؟ مَـن الـذي عرّفَـك عـلى المزعنـفِ، وأيـن هو الآن؟ سـأعرضُ عليـه بعضَ الصّـور، الصّور التـي صورتُها للعـمّال الذين أغرقهـم «مـسرور»، ولبعـض جوانب حيِّ «سـبايكر»:

ـ هـذا هـو قـاعُ نهـر «دجلـة»، انظـرْ، هـذه الكهـوف، هـذه بيـوت كلّ سـكانه منـذ يـوم التّكويـن، ماتـراه في هـذه الصّـور، فظيـع.

ولكـن، من الذي يضمـنُ ألّا تتسربَ الصّـورُ أو حكايتُها إلى السّـلطة؟ سـيكونُ الموضوعُ مصـدرَ صفقاتٍ سياسـيّة، وتجاريّة، وبيـع وعقود..

عـدْتُ لجـدال اللّيلـة الفائتة بعدَ أن ظننتُـه قد حُسـم. كلّا، البركة راكدة إلى حـدّ أن أيَّ حجـر سـيُلقى فيها سـيُثير انتبـاه كلِّ المارة..سـأُكملُ مهمّتي أوّلاً، سـأكملُها وحدي، ولربما سـمحَ لي «المزعنـفُ» باصطحاب «هنري»، لـن يبقـى آنـذاك مجالٌ للشّـكّ. قبـلَ أن أبلغَ منطقـة التحام الجسر بالشـارع الموصـل لمقـرّ الصّحيفة اسـتدرْتُ عائداً إلى موقـع الشّركة.

عندما عدتُ للنّهر، لتقييم رحلتي المائيّة سألني «المزعنفُ»:

ـ الآن يتوجّبُ علينا سؤالُك عن انطباعك عن الرّحلة كلِّها، أنا أستمعُ سيد «صفاء»!

صمَتُّ طويلاً مُتهيّباً من قول ما أردْتُ الإفصاحَ عنه، وأخيراً نطقْتُ:

ـ ما رأيتُه.. قلبَ تأريخَنا على رأسه.. ياسيدي! بل قلبَ معارفي كلّها!

مسّدَ «المزعنفُ» وجهَهُ بكفّه، وهي علامة خبرتُها تدلُّ على أنَّ محدثي يستعدُّ لدفع جملة صعبة من فمه:

ـ سامحني على ما سأقولُ، مهمّتي تُحتِّمُ عليَّ ذلك، قلتُ: إنَّ ما رأيتَهُ قلبَ تأريخَكم، هل تعتقدُ أنَّ التأريخَ سَجّلَ ببراءةٍ للأحداث أم أنّه كان عملاً مقصوداً سببُه سعيُ الإنسان لإسماع صوته وإبقائِهِ مسموعاً؟

ـ التّاريخُ سجَّلَ ما جرى من حوادث، ولأنَّ الذي سجَّله شعبٌ كاملٌ لا فرد، فلا بدَّ من أن يكونَ بريئاً.

ـ ما هو دليلُك على أنَّ الشّعبَ كما أسميتَهُ، هو من كتبَ التأريخَ؟

ـ أكيد، فكيفَ يسمحُ مجتمعٌ لشخصٍ واحدٍ بتدوين سيرته؟

ـ ولكنَّك قرأتَ الطّبريَّ، والجرجاني والحموي وابن هشام واليعقوبي والدينوري والمقريزي والمسعودي والعسقلاني والخطيب ثمَّ الحسني.. وهم أفراد!

ـ أفراد لكنَّ أحاديثَهم استندت إلى الرّواية الشّفهيّة، حدّثَني فلانٌ عن فلان عن فلان..أو المكتوبة فيما بعد..

ـ إذن اسمعْ: وذكرَ الخطيبُ البغداديُّ في كتاب «تاريخ بغداد»: «وحكى بعض أصحابه (يعني هارون الرشيد) أنّه كان يصلّي في كلِّ يومٍ مائةَ ركعة إلى أنْ فارق الدّنيا..

سيّد « صفاء»! من هو هارون الرّشيد؟ هل هو أميرُ المؤمنين الهاشميُّ العادلُ المتّقي الذي كانَ يحجُّ مرتين في العام، ويُصلّي في كلِّ يوم مائة ركعة، أم سفّاكُ الدّماء الذي لاحقَ الفقهاءَ، وكلَّ مَنْ لم يُعلنْ ولاءه المطلق له؟ وقتل أختَه وطفليها، بل من هي أختُه التي قتلَها، **العبّاسة** أم **ميمونة**؟.

من هو **خالد بن الوليد**؟ جلّادٌ تقشعرُّ لذكر اسمه الأبدانُ أم **سيف الله المسلول** الذي كان لسانه لا ينقطع عن ذكر الله؟ من هو **بن العلقمي** برأيك؟ خائنٌ تآمر على بلاده، وسلّم مفاتيحها للغزاة، أم عقلاني أرادَ تجنيب بغداد الدّمارَ، وهو العارف بضعف جيشها، وأميرها، منْ هو **المستعصمُ باللة**؟ مستبدٌّ لاهٍ تركَ أمورَ البلاد، وانصرفَ للمتعة، أم حاكم مشاورٌ حكيم؟ هل توجد واقعةٌ واحدةٌ في تأريخكم، لم تُقلَب؟ هل اتفقتُم على حادثة واحدة؟ على شخصية تاريخية واحدة؟

حشرجتُ:

ـ وقائعُ التأريخ رهنٌ بناقلها كما تعرف..

صاحَ «أونيس»:

ـ وكيفَ ستعرفُ الحقيقةَ إذن؟ نصيحتي لكم اتركوا التأريخَ، اتركوه كلَّه فهو كتابٌ مزوّرٌ، لن ينفعَكم بشيء، بل إنْ شئْتَ إنَّه كتابٌ ملغَّمٌ مثلُ قاتلٍ يلفُّ صدرَه بحزام ناسفٍ..هذه نصيحةٌ، وليست تدخّلاً بشؤونكم. أنتَ رأيْتَ حياتَنا، قارنْها بما تسمّونه أنتم حياة. نحن لانحتاجُ التأريخَ، فعندما تنعدمُ فرصُ الكذب، وتزوير الماضي، لن يعودَ التاريخُ مهمّاً، بل لن يهتمَّ أحدٌ بتدوينه. تأمّل حياتَنا، إنّنا نُعيد النَّظَر لحياتنا السّابقة، فنراها كما كانت، وليس كما كُتبت، والفضلُ في كلِّ ذلك إلى هذه التّكنولوجيا الرّائعة، تسجيل الزّمن كما كانَ، ثمَّ السَّفر للماضي واستعادته كما كانَ أيضاً. الآن نَصِلُ لملخّص ما اطلعتَ عليه بنفسكَ :

تاريخُكم مزيّفٌ، تقنعون أنفسَكم بالأكاذيب، لم تنفعْكم قيمُكم بشيء، تقدّم الجميع وبقيتم أنتم حيثُ كُنتم، أنتم الأغنياء، الفقراء، تبدو حياتكم بلا معنى.

الشّجاعةُ هي أنْ تعرفَ حدودَ عقلك، فتُقرَّ بما لاتفهم، وتقول بلا تردّد:

أنا لا أفهمُ هذا! لا أنْ يُخيفَك ما لاتفهمُه فتخترعَ أشباحاً وتفترضَ وقائعَ، لم تقعْ، بهذا ستجدُ نفسَك تتحمّسُ للّاشيء، وتخافُ من غيرِ الموجودِ، وتقدِّسُ الوهمَ.. لا تسقط من حافّة العقل! لأنّك ستدفعُ ثمنَ ذلك بتشييد سجن مؤبّد لإرادتك! هل لي أن أسألَ: أيُّ دافع يجعلُكم تعيشون؟ تعيشون حتّى تُكافؤوا بالجنّة! كلُّكم يحلمُ في نهاية الطّريق برؤية «**أتونابشتم**» الذي سيمسحُ على رأسه، ويسلّمُه عشبةَ الخلود، تُرى كيفَ ستتملّصُ من أبديّة المعاناة لو أنَّ حياةَ الخلود هناك لم تُعجبْكَ؟ في حياتكم هناك، ممرٌّ آمنٌ للخلاص، إنَّه الموتُ، أمّا الخلود كما تُنشدونه، فهو سجنٌ أبديٌّ.

أزعجني كلامُ «المزعنفِ» فصحْتُ دون أنْ أتحكَّم بصوتي:

ـ أرجوك بلا إهانات، لم أتبعْكَ إلى هنا من أجل سماعِ شتائمَ. لكلٍّ إيمانُه، وأنتَ تحاولُ نسفَ أُسس معتقداتِنا..

ـ أنا أتكلّمُ وفقاً لمستوى منطق زمانِكم، أنتم الآن في القرن الحادي والعشرين، هل تعجبُكم حياةُ الجنّة كما وصفتُها لك؟

ـ لا أحدَ سيأخذُ برأينا إنْ كانت تعجبُنا أم لا، هذا جزاءُ المؤمن فاعل الخير، وما أدراكَ أنت بطعام وشراب أهل الجنّة؟ إنَّه طعامٌ وشراب لايُملُّ وكلُّ ما هناك لايمكنُ مقارنتُه بما على الأرض، ثمَّ ألم تقلْ لي: إنَّ سكّانَ الماء أيضاً لايموتون؟

ـ أمّـا سـكّانُ المـاء، ينتقلـون مـن مرحلـة إلى أخـرى، أجدادُهـم لايشـبهونهم، وأحفادُهـم سـوف لن يشـبهونهم أيضاً، مـن الصّعب عليك اسـتيعابُ ذلك..أعـرف.

ـ يجـبُ أن تعلَـم أنّنـا قـومٌ مؤمنـون بـالله، وهو وحـده الـذي بمقدوره إنقاذُنـا ممـا نحـن فيه..نحـن مسـاجين هناك..

ـ نعـم صَدَقْـتَ، أنتـم مسـاجينُ هنـاك. لكـنْ لاعلاقـةَ لله بذلـك! فقط أجبنـي بصـدق، ولكـنْ أرجـوك لا تفهمْنـي خطـأ، هـل تتذكـرُ حادثـةً واحـدةً في كلّ عمـرك تدَخَّـل فيهـا الله فأنقـذ إنسـاناً أو سـاعد مُحتاجـاً؟

انتفضْتُ وصحْتُ دونَ شعور:

ـ أسـتغفرُ اللهَ! إذا أردتَ أن تكفـرَ، فـلا تُشركنـي معَك أرجـوك؟ إفعلْ ذلـك وحـدَك! أنـت تريـدُ تكفيري بدينـي.. لم يسـبقْ أن اتّفقنـا على ذلك.

ـ أنـت ترفـضُ الإقـرارَ بالحقيقـة، سـألتُكَ سـؤالاً مُحـدّداً فانفعلْـتَ. لايمكـنُ بلوغُ القيـم الرّاقية بالإذعان والخضوع سـيد «صفـاء». أنت تعبدُ الخوفَ..نعـم الخـوف، تعبـدُه كـي تنجو ممّـا تتخيّلَـه نهاية..لابـدَّ أنْ يكون هدفُـك قيمـةً عُليا، قمّة الصّـدق، وقمّة الحـقّ، وقمّـة العدل..وقمّة الجمال لذلـك ..انظـر وتأمّلْ:

عـالم بكتريولوجـي بلحية طويلة كثـة ينحني على ميكروسـكوبه، يُعاينُ قطـرةَ مـاء ملّوثـة بالبكتريا. يسـتطيعُ هذا العـالمُ أن يزيـدَ الضّـوءَ والحرارةَ والضّغـطَ ويُغـيّرَ مـكانَ البكتيريـا، يُكاثرُهـا، يقتلُهـا، يتلاعـبُ بمصيرها. لـو كانَ للبكتريـا عقـلُ أُنـاس القـرن الأوّل الميـلادي مثـلاً، لعَبـدتْ هـذا العـالم، واعتبرتْـه خالقاً، فهـو الذي لايُـرى و يُحيي، ويُميت، ويـأتي بالمطر، والحـرّ، والـبرد، والرّياح، ويتلاعـبُ بالظّروف لكـنّ البكتريـا لايمكن أنْ تصـل لدرجـة الوعـي كـي تُـدرك حقيقـة مَـنْ يفعـل تلـك الأفعـال! وإذا

أدركـتْ ذلـك فهي لايمكـنُ أن تعـرف أنَّ هذا الرّجـلَ العالِمَ، ليـس خالقاً بـل أحـد المخلوقات!

ـ أعـذرْني، حديثُـك اليـومَ يكتنفُه الغمـوضُ، هل تتحدّثُ عـن الفكرة القديمـة حولَ تعـدّد الآلهة؟

ـ لا، ليـس ذلـك مـا أتحـدَّثُ عنه، مـا قصدْتُه هـو الفاصلُ بين مسـتوى عقولكـم، ومستوى تعقيـد الكـون. ألمْ تُفكـرْ مثـلاً أنَّ مَـنْ صَنـعَ هـذه القوانـينَ الفيزيائيّـةَ، ويهـزّ قـشرَة أرضكـم بقسـوة، فيطمـر آلافَ النّـاس تحتهـا، ومَنْ يُرسـلُ الأشـعّةَ الكونيّةَ ويتلاعبُ بتكسـير الأجرام، ورشّـكم بهـا وبعشـرة الشُّـهب، قد يكـون واحداً مثـلَ عـالم البكتريولوجـي؟ عالم له غايتُـه التجريبيّـة التـي لم تدركوهـا ورغـم كلِّ ذلـك، فهو ليـس الخالق بل أحـد المخلوقـات؟ ربّـما كُنتـم مثـلَ البكتيريا، لم تصلـوا لدرجـة الوعي كي تعرفوه!

الخالـق موجـودٌ، لكنَّـه موجود في نهايـة العالم الـذي لا نهاية لـه، أعتقد الآنَ أصبحـتِ الفكـرةُ مفهومـةً أليس كذلك؟

قاطعْتُه متلعثماً، وأنا أبحثُ عن مخرج لنقاشي العقيم معه:

ـ لم أفهـمْ شـيئاً، ربّـما فقدنـا القـدرةَ عـلى قيـادة أنفسـنا، ربّـما أخطأنـا... أعـرفُ أنَّ آلهـةَ المـاء كلّفَـتْ سـلالتكم، سـلالةَ «أونيـس» قبـلَ الطّوفـان بنقـل المعرفـة للبشريّـة مـن أعـماق النَّهـر لأهـل الأرض، أعنـي، ألا يمكـنُ أن تُعيـدوا مـا فعلتمـوه مـرّةً أُخـرى؟ الأرضُ الآن بحاجـة لكـم كـما أرى، وقـد عجـز سـكّانُها عـن إيجـاد حلـولٍ لمشـاكلّها. ردَّ «المزعنف»:

ـ مـا الـذي يمكننُـا أنْ نُسـاعدَكم بـه؟ يجـبُ أن تكـونَ تربتُكـم صالحةً لنمـوِّ النبـات، حتّـى يكـونَ منحُكـمُ البـذور مُجدياً. لابـدَّ أنْ تتوفـر لديّكم

الرغبة بالتعلم، حتّى نمنحكم دفاتر الحكمة. هل يُمكنُكم مثلاً التّعامل مع جهاز استعادة التّأريخ؟ لنفترضْ أنَّ ذلك ممكناً على الأرض، وأنّك أخذتَ أحدها ودعوتَ صفوةَ البلاد من أساتذة، ومؤرّخين، وباحثين، وسياسيّين، وعلماء، لمشاهدة وقائع التأريخ كما كان بحقيقته، وليس كما نقلوه لكم، ما الذي سيحدثُ؟ تخيَّلْ مثلاً أنَّك شغَّلْتَ الجهازَ، وتوقّفْتَ عند مرحلةِ غزو الكعبةِ من قبل «إبرهة الحبشي» منذ عام الفيل، ولادة النبيّ وطفولته وغيابه في الشّام ثمَّ تابعتَ قتالَ قبائل الجزيرة، وتطاحنها ثمَّ دخلتَ بيت «خديجة بن أبي خويلد الأسدي» و«ورقة بن نوفل» و«عاتكة»، وتابعتَ أيّامَ البعثةَ وغزواتها. وحضرْتَ واقعةَ تشكيل جيش غزو الرّوم بقيادة شابٍّ صغير لم يبلغ الثّامنةَ عشرَ هو «أسامة بن زيد» وسَمِعتَ الصّحابة «أبو بكر الصّدّيق» و«عمر بن الخطّاب» و«أبو عبيدة بن الجراح» و «طلحة بن الزّبير» يناقشون أمرَ الامتثال إلى إمرة القائد الشّاب والانضمام لهذه السّريّة. ثمَّ لو سجّلت كيف غضب النبيّ منهم غضباً عارماً وخرج معصوب الرّأس يحمله رجُلان ورِجْلاهُ تخطان بالأرض، ثمَّ تابعتَه بعد يومين يُسلمُ الرّوحَ، وكلُّ ذلك بالصّوت والصّورة الحيّين. ولو عرضْتَ عليهم وقائع قتل «عثمان بن عفّان» وسير عمليّة جمع القرآن وتدوينه، ثمَّ وقائع ومقدّمات استدراج **الحسين** حفيد النّبيّ إلى **الكوفة**. تصوّرْ أن تدخلَ غرف الضّباطَ والسياسيّين وتُصوّرْ أخر اجتماعاتهم قبل انقلابٍ ما، أو تعرف أسبابَ استقالةِ الرؤساء وانتحار القادة، وهزائم العسكريين، وسقوط الممالك، وتقسيم الدّول، وصفقات رسم الحدود وتعيين الملوك، وتغيير الحكّام ..

سيّد «صفاء»! تُحزنني أحوالُكم، أنت كمثال، الرّجل المُصطفى الذي اخترناه للوقوف على الحقيقة، كيف ستواصل حياتك بعد أن عرفْتَ ما عرفت؟ صعبٌ عليك أنْ تعرف الحقيقة وتكتمها. نريد مساعدتكم،

فهل تعتقد أنّنا سنبخل بالحكمة؟ أبداً، لكنْ قلْ لي كيف؟ ماضيكم وعرفناه مغشوشاً، فما هي درجةُ نقاء الحاضر؟ «الموبايل» حوّلتموه إلى جهاز تفجير، «الانترنت» جعلتموه شاشةَ عرض للرّؤوس المقطوعة، «الستالايت» وظفّتموه لمصادرة عقول البشر، أقترحُ عليك العودةَ للأرض، وحمل هذه التّعاليم، خذْها وبشّرْ بها، إبدأ بالتّعاريف:

ـ اللهُ: هو الضّميرُ الحيّ، الرّقيبُ الذي يحاسبُ المرءَ على أفعاله ويدفعُه للسّير باتّجاه الخيرِ المطلق، والجمال المطلق والحق المطلق.

ـ المؤمنُ: هو الانسان المؤمنُ بالخير والسّاعي إلى المساواة بين بني البشر مهما كانت دياناتُهم، أعراقُهم وألوانُهم.

الكافرُ: هو مَنْ يعتدي ماديّاً أو معنوياً على الآخرين، ويتجاوزُ على الطّبيعة ويُثيرُ الكراهيةَ بأيِّ شكل كان.

الوطنيُّ: هو الإنسانُ الذي يسعى لأنْ يكونَ وطنُه المكانَ الأكثرَ أمناً وازدهاراً على الأرض، وجيرانه أكثر البلدان تشرفاً بجيرته..

لو توصّلتُم لإجماع، وثبّتم هذه التعاريف كدستور سيعني ذلك أنّكم بدأتم السّيرَ بطريق التّحضرّ..

أطرقْتُ قليلاً قبلَ أنْ أردَّ بصوتٍ محبط:

ـ لا أعتقدُ أنّني سأنجو! ما تقترحُه يتعارض مع قيم الدّين والسّياسة والمجتمع كما يفهمُه النّاسُ هناك..سوفَ لن يتركوني حيّاً..

ـ ألايمكنُ اعتمادُ هذه المبادئ كمرشد لحركة مثلاً؟ مثلما تفعلون في الأحزاب.

ـ وكيفَ تأمنُ تسلّلَ العابثين؟ كيف تُميّزُ بين من يتطوع لإيمانه بسموِّ مبادئك، ومَنْ يتطوّعُ كي يقتلَ مَنْ يؤمنُ بمبادئك؟

لم أسمعْ رداً، ما الذي يجري لي يا ربيّ؟ مرّةً أخرى أجد نفسي وحدي! لم أرَ «المزعنف» ولا غيره وكأنّني كنْتُ أتحدّثُ مع نفسي.

ـ سيّد «أونيس»!

صِحْتُ فأحسسْتُ بنقرةٍ على كتفي، كما في المرّة الأولى!

ـ لقد ضعْتَ منيّ ثانيةً، ما الخطبُ لقد أفزعتني؟

ـ ما بالُ مفردة «الفزع» لاتفارقُك؟ ممَّ تخافُ؟ طالما أنَّك في حمايتنا لن يحدثَ لك سوءٌ. اسمعْني جيّداً، كي تعرفَ النّاسَ على حقيقتهم، قرّرْنا أنْ نجرِّبَ من خلالك تطبيقاً تكنولوجيّاً قديماً يعود لما قبل عشرين قرناً مضَتْ، مقارنةً بما تملكون، سيكونُ مجرّدُ تصوّر وجود هذا التّطبيق والجهاز الذي يمكّنُهُ من العمل ضرباً من الخيال العلميّ. الجهاز اسمه **B1** وهو مشتقٌّ من **Brain1** أي: التّطبيق الدّماغيّ الأوّل.

سأشرحُ لك طريقةَ عملِه بإيجاز، ولو صعبَ عليك أمرٌ، قاطعْني واسأل:

لمخِّ الإنسان، وهو جزءٌ من الدّماغ، كود مُنفردٌ مثلُ بصمةِ الإبهام، يعني مُخٌّ مُعينٌّ لايتكرّرُ مرتين أبداً. عندما تعرف الكود، أي: الشّيفرة، تستطيعُ الدّخولَ إليه، تماماً مثل كلمة سرٍّ في جهاز كومبيوتر، أو خزانة، أو مدخل بناية، أو حقيبة اليكترونية القفل. آلة تحليل الأفكار **B1** التي صنعناها قبلَ ألفي عام تقرأُ هذه الشّيفرة. توجّهها نحوَ عين الشّخص فتقرأُ شيفرتَه، وبذلك تدخلُ المخَّ. تعرفُ أنَّ الأفكارَ تتكوّنُ في مكان ما في المخِّ، والمخُّ جهازٌ كهربائيٌّ كيميائيٌّ، عندما تتشكّلُ الفكرة، تكون أوّلاً بشكل إشارة، لتتحوّلَ إلى كلّمات. الجهاز **B1** يقرأُ هذه الإشارةَ ويحوّلُها إلى كلّماتٍ مكتوبة، يقرأُها الدّماغُ المقابلُ مباشرةً قبلَ أن ينطقَها صاحبُها..يعني عندما يُقابلُك جارُك ويكونُ على مسافة أقلِّ من عشرة

أمتـار منـك، توجـه الآلـةُ باتّجاهـه، فتعرف مـا يتشـكّلُ في هـذه اللّحظة في رأسـهِ، كأنْ يُفكّـرَ محيّياً:

«صباح الخير»

والإشارات التي تكّونَتْ في دماغه، فترد:

«صباحُ الخير».

إذا كان هـو أيضاً يمتلك الجهاز سـيتمكّن من دخـول دماغك، وعندئذ يتـمُّ تخاطـبٌ غـيرُ منطـوق..دونَ أنْ يكـونَ لديه جهـازٌ سـتعرفُ أنت فقط مـا يفكّرُ بـهِ جارُك.

الـشرط الثّـاني لعمل هـذا الجهـاز الرقائقي الذي لايـكادُ يُـرى، هو أنّ قـراءة الشّـيفرة، والتّفاعـل بين شـخصين، يمرُّ عـبرَ طريق واحـد، العينين، فالجهـازُ الـذي حدّثتُك عنه يشـبهُ، شـكلًا فقـط، العدسـات اللّاصقة التي تسـتخدمونها لتصحيـح مشـاكل الرؤيـة، لكنّـه في الحقيقـة شـبكةٌ من عدد هائـل من الدّوائـر المتكاملة وعنـاصر تكنولوجية متناهيـة الصّغر مصنوعة بالمقيـاس النانـوي. إذن الجهـاز يقـرأ الأفـكارَ أوّلَ تشـكّلِها، ولاتنسَ أنَّك تسـتطيع قـراءة الأفـكار التي تخصُّك فقط لأنّهـا موجّهةٌ لشـيفرتك الخاصّة فأنـت لاتسـتطيع باسـتخدام هـذا الجيـل مـن **B** معرفـةَ كلِّ مـا يفكّـرُ بـه غـيرُك، سـنأخذُ الآنَ تمريناً:

لنفـرضْ أنَّك تحملُ شـيفرة (ن **113** س)، شـيفرة جـارك (م **465** ش)، كلاكـما مُجهّزٌ بالعدسـة، تقتربان مـن بعضكما على بعد أقلَّ مـن عشرةِ أمتار، تنظـر باتّجاهـه، تدخـل إلى دماغـه بعد فـكِّ الشـيفرة، إذا كان جـارُك يفكّرُ بأمـرٍ يخصُّـك سـتنفتح في دماغـه خزانتُـك الخاصّـة: (ن **113** س)، وهنـاك سـتقرأُ الأفـكارَ التـي ينوي جـارُك قولها بخصوصك، سـتقرأُ عبـارة: «كم أنـت أنيـق يا جاريَّ هذا اليـوم» . هذه العبـارة هي ما يُريد الجـار الآن قوله

لـك! هـو يقـرأ في خزانتـك الموجودة في رأسـك عبـارة: «رجعَ جـاري من السّـفر يبـدو متعباً، مع ذلك سـأكلّمُه بخصوص أشـجار حديقته التي تمنع الشّـمسَ عن بيتـي» وهو ما كُنتَ تُفكّـر به في تلك اللّحظـة. التّفاهم بينك، وبـين جارك يتـمُّ دونَ أن تنطقا، تتحـاور الأدمغة بسرعة فائقة بالإشـارات فقـط، يعنـي: لـو أردْنـا التّعبير عـن ذلك بشـكل معادلـة سـتكون كالآتي:

الأفكار تتطابق تماماً مع الكلمات المنطوقة.

عوَّضتْنـا هـذه التكنولوجيـا عـن الـكلّام، وهـو كـما تعلـم لا يتـمُّ بـلا هـواء، مفهـوم؟ والآن هـل تعتقد أنَّ هـذه التقنّية قادرةٌ على الحيـاة عندَكم، هـل سـتنفعُكم في شيء؟

أطرقْتُ برهةً، وأنا مأخوذٌ بما سمعْتُ ثمَّ قلتُ:

ـ سيد «أونيس» هذا خطير! خطيرٌ جدّاً، لا أجدُ في نفسي القدرَة لتجريبه!

ردَّ «أونيس»:

ـ كلُّ جديد له مخاطر، الكهرباء أيضاً كانت مُرعبةً في بداية اسـتخدامها، والسّـيارةُ، والطّـائـرةُ. تسـتطيعُ تجربتَهـا ليومـين، وتعـود لنـا بانطباعاتك. سـتكون أنـت لا غيرك القـادر على فـكِّ شـيفرة الآخرين ولـن ينتبه لذلك أحـدٌ، عليـك أنْ تحـذر، الأهمُّ مـن هذا كلّـه، هو سريّـة الموضـوع. لا تدعْ أحـداً مهـما كان، يعـرف أنَّ لديَّك عدسـاتٍ فنحـنُ لحدِّ الآن لم نبـتَّ في أمر تمكينكـم من هـذه التّقنيّـة. أنصحُك بالـشّروع بالعمل.

قلّبْتُ الأمـرَ في نفسي مـرّةً، ومرتين، فشـعرتُ برهبـة ما سـأُقدم عليه، ثـمَّ حاولت تشـجيع نفسي، فانتهيتُ إلى قبـول الفكرة..اسـتمعْتُ لشرح مركّـزٍ مـن «المزعنـف» عـن اسـتخدام الجهـاز، واتفَّقْنـا عـلى موعـد اللّقاءَ القـادم قبـل المغادرة.

كان مساء جمعة، عدت إلى غرفتي، وسرعان ماغفوت، لكنَّ ارتفاع الحرارة الممزوجة برطوبة النَّهر في الغرفة أيقظْتني مُبكّراً. كنت قد نمْتُ عارياً تماماً، فأعجبتْني فكرةُ النّظر لنفسي في المرآة. كانتِ العدساتُ قد رُكِّبَتْ لي من قبل «المزعنف» بدقّة حتّى أنيّ لم أشعرْ بوجودها، فتحتُ بابَ الحمّام، ووقفْت عارياً أمام المرآة. أريد هذا اليوم أنْ أرى نفسي على حقيقتها، اليوم هو يوم كشف الإنسان لحقيقته، أنا كما أنا، وهم كما هم. فتحت عينيّ وبحلقْتُ في المرآة باحثاً عن أثر العدسات وفجأةً؟ وعلى غير توقُّع واجهني وجه «المزعنف» مُبتسماً كالعادة كان واقفاً خلفي قرب باب الحمام فخجلت كثيراً منه. ما الذي جعله يظهر فجأة؟ وفي مثل هذه السّاعة؟ لابدَّ أنَّ أمراً مستعجلاً يخصُّ العدساتِ قد حدثَ. أسرعتُ وسترتُ أسفلَ بطني بكفيَّ بحركةٍ تلقائيّة، ثمَّ التقطتُ روبَ الحمّام بسرعة، وألقيتُ به كيفما اتّفقَ على جسدي:

ـ أعتذرُ، لم أتوقّعْ حضورَك!

قلتُ مرتبكاً، لكنَّ «أونيس» كان قد اختفى!

صحْتُ:

سيّد «أونيس» لقد رأيتك! لاداعيَ للإحراج..

لا أحد! هل يتجسّس «أونيس» عليّ؟ لقد رأيت وجهَه واضحاً في المرآة، هل يريد أن يعرف كيف سأتصرّف مع جهاز **B1**؟ هل يشكُّ بتسريبي أسرار النَّهر لمن لا يجوزُ له معرفتُها؟ ربّما ندموا على سماحه لي باستخدامها! لماذا أتى؟ ولماذا اختبأ في الحمّام؟ ولماذا اختفى؟

ثانيةً شعرتُ بشعور مَن استُدرجَ لفخ. يمكن للمزعنفِ أن يجلسَ أمّامي دونَ أن أراه، هذا يعني أنّني لستُ حُرّاً بعد اليوم! هناك من يُراقبُني، مَنْ يتسلَّل لحمّام بيتي دون أنْ أراه! نشّفْتُ جسدي بسرعة وعاينت فضاءَ الشّقّة بحذرٍ، ودقة. بدأ الشكُّ يتناهبُني أنَّ أجهزة مراقبة

دقيقـة قـد نُصبَـتْ في الشّـقّة، ولكنّي ضحكت من سـذاجة فكـرتي. أليس ثمـة احتـمال آخر؟ مثـلاً «أونيـس» لم يكن موجـوداً أبداً في الحـمام، بل هذه نتيجـة لصلة بـين اثنين:

العدسـات الذكيـة في عينـيّ والمـرآة، ومـا صـورة «أونيـس» التـي رأيتهـا إلا بقيـة لقـاء الأمـس. أيمكـن أنْ تكـون العدسـات نسـخة مـن مرايـا «بابـل»؟ ألم يتحـدّثِ البابليـون عـن المرآة التي كانـت تأتيهم بصور النّـاس المسـافرين، والبعيديـن بمجـرّد إبلاغهـا بأسـمائهم؟ يبـدو أنّنـي نَطَقـتُ اسـم «أونيـس» دون قصـد، فأتتنـي العدسـاتُ بصورتـه. حاولْتُ إقنـاع نفسي بهـذه الإجابـات، فلا حاجـة لأونيـس بمراقبتـي. هـو متقدّمٌ أخلاقيّـاً عليـك يـا « صفـاء» بثلاثينَ قرنـاً، ألم يسـتهجنْ فكـرةَ الدّخول في غرفـة الرّئيـس الأمريكـيّ، أو الـروسيّ؟ فهـل أنـت أكثـرُ أهميّةً مـن هذين ليتجسّـسَ عليـك؟ وهـل سـيصعب عليـه إخفـاء نفسـه إذا أراد ذلـك؟

مهـما يكـنْ، أنـا مُصمّـمٌ عـلى تجريـب «العدسـات الذكّيّـة» هـذا اليوم. أوَّلُ تجريـب سـيكون في الـوزارة ثمَّ مـع أصدقائـي الصّحفيّـين، وفي اليوم التّـالي في محيـط عمـلي. سـأجمعُ حصيلـةَ هـذه التّجـارب، سـأكوّنُ فكـرةً شـاملة، وأنقلُهـا للمزعنـفِ.

بعـد أقـلَّ من نصـف سـاعة انطلقْـتُ عازمـاً اختيـار عينات مـن بشر، أثـق بهم. أنـاسٌ أعـرف أنّهـم لا يكرهونني، أو يُضمـرون لي مشـاعرَ غيْرَّة أو حسـد، وهـم كُثـرٌ فالذيـن لا أحبّهـم ولايحبّوننـي، لايـكادُ عددُهـم يتجـاوزُ الأربعـةَ، ومـع هـؤلاء سـتتحوّل التجّربـة إلى معركـة!

لم يتغـير العـالم مـن حـولي، وأنـا في طريقـي مـن غرفتـي لمبنى الـوزارة. الهـواء الحـارُّ، والسّـماء المُغـبرّة، وزعيـق الباعـةِ، وكثـرةُ سـيّارات الأجـرة التـي تجـوب الشّـوارعَ دون هـدف بحثـاً عـن راكبـين، لم يتغـيْر شيء. أحسسـتُ بجسـدي معـافىً، ونفـسي منشرحـة، سـوى مـن بعـض الثّقـل

في رأسي، ووشوشة خفيفة، تمرق بين حين وآخر بين أذنيّ. لعلّها من رطوبة ليلة البارحة، أو أثر ضغط الماء، وجريانه، لكنّي، مثلُ كلِّ من يحملُ سراً، تصورْتُ أنَّ كلَّ مَنْ ينظرُ إليَّ يعرفُ قصّتي مع «المزعنف». وتخيّلْتُ الجميعَ يعرف أنّي أحمل منه جهازاً خطيراً مركّباً على عدستي عينيّ، وأنَّ هذا الجهازَ نسخةٌ فريدة، لا مثيل لها على الأرض كلّها. كنتُ أُخفض بصري تلقائيّاً كلّما اقترب منيّ أحدٌ، ولوهلةٍ أحسسْتُ بالخوف من انكشافِ أمري، وكنتُ على وشك انتزاع جهاز العدسات النّانوي من عينيّ. تُرى ما الذي سيحدث عندها؟ سيستخدمونَه في مديريّات التّحقيق لكشف نوايا المُعتَقلين، وربّما سيدخلُ في ملكّية رئيس البلاد وأكثر سياسيّيها نفوذاً، لاختبار مدى ولاء المحيطين به، بعد قتلي قبلَ كلِّ شيء، كي تطمرَ القضيّة..ولكنَّ مجتمعَ «المزعنف» أذكى من أنْ يخضعَ لهذا الابتزاز، تذكّرْتُ جملةً قالها «أونيس»:

«وجود **B1**، وحتى تركيبها داخل العيون لايعني شيئاً، الأهم هو تفعيلها وهذا لن يتمَّ إلّا بشيفرة، عدساتُك الآنَ مُفعلّةٌ ولكنْ ما أنْ تنتزعَها حتّى تنتهي صلاحيّةُ الشّيفرة، بعدها تحتاج لشيفرة جديدة وتفعيلٍ آخر.

حلو! شيفرة جديدة، هذا أكثرُ فظاعةً، فكيفَ سيفهمون ذلك؟ سيعتقلونني ويجرّبون فنونَهم حتّى الموت مُعتقدين أنّني أعرف الشّيفرة ولا أبوح بها! ولكنّ هذا كلّه هراءٌ. «صفاء»! من تُراه يحدس بها يلتصق بعدستي عينيك؟ العدسة كلّها غير مرئيّة، والأمر مازال، وسيبقى سراً بين اثنين، أنت، و«المزعنف» أسوةً برحلتك كلّها. من تُراه يتصوّرُ أصلاً وجودَ مثل هذه التّقنيّة؟ إنّهم مبهورون الآن «بالسوشيال ميديا»، الفيسبوك، والتّويتر، والانستغرام! لمن لايعرفها هي ليست سوى عدساتٍ لاصقةٍ كما قال «المزعنف».

بعـد أنْ ترجَّلْتُ مـن الباص مُتبـادلاً بِضع كلّمات مع السّـائق، تجاوزتُ خـوفي فخـفّ إحسـاسي بأنّـي ظاهـرة لافتـة للانتبـاه في الشّـارع. تيقنـتُ أنّنـي مثـل غـيري، لم يولني أحـدٌ أيِّ اهتمام خـاص. حييّـت الشّرطيَّ الذي يحـرس مبنـى الـوزارة، ثـمَّ أبـرزْتُ بطاقتي لموظّـف الاسـتعلامات الجديد وقصـدتُ مُديريّـة الحسـابات، لرؤيـة مديرهـا المسـنّ الـذي قـارب سـن التقّـاعـد وهـو مـن المقرّبين منّـي. داخلني انـشراحٌ حـينَ رأيتُـه خارجاً من اجتماع، لكنّـي في اللّحظـة الأخيرة شـعرْتُ بِرُعـب من الخطـوة اللّاحقة. سـيطرَتْ عـليّ خشـيةٌ غامضـةٌ مـن مغامـرة غـير محسـوبة العواقـب. هَبْ أنَّـكَ يـا «صفـاء» قـرأت غير الـذي تحدّثـه المديـرُ، وكان الذي قرأتَ سـيّئاً للغايـة، كان شـنيعاً، مـا الـذي سـتفعله؟ أمّـا أنْ تـردَّ تحيّتـه التـي سـمعتَها منـه، وهنـا سـتخدع نفسـك، أو أنْ تردَّ عـلى ما فكّـرَ به، وعندها سـتخسرُ صاحبَـكَ، وتفقـد ثقتـك بكلِّ مـن حولك! كيف لـك أنْ تتـصرّفَ مع هذا المـأزق؟ ثـمَّ أنَّ الأكثـرَ إثارةً للإحباط، والأسـى هـو أنَّك لاتسـتطيع إقناع غـيرك بما جرى، فشـيفرتُك خاصّـةٌ بك، ومـا تراه عينـاك، لايـراه غيرُك. لـو قـرأتَ في دمـاغ المدير مسبّةً، قبـل كلّمات الترّحيـب التي تسـمعُها منه، كيـف سـتنقل استهجانَك لـه؟ تقـول لـه أنْ في تلافيـف دماغـك كلّامـاً آخر؟ سـيضحك منـك! ما أغـرب الحياة! ومـا أوجع الحقيقة! إنّي أخشـى حتّـى مديـر الحسـابات الودود..يـا له مـن مأزق!

بعـد تـلاشي صـوت خطـوات المدير في الممرِّ الجانبـيّ اسـتدرتُ عائداً بخفـةٍ دونَ أنْ يشـعر بوجـودي وقـرّرتُ تغيـيرَ خطّـتي كاملةً. لـن أبقى في الـوزارة، بـل سـأذهب إلى مجمّـع الصّحافـة للقـاء «نـادر» في مبنـى «نـدى الصّبـاح»، لـن أحدّثَـهُ هـذه المـرّة عـن «جهـاز السّـفر عـبرَ الزّمـن»، بـل سأشـترك معـه بلقـاء «تطبيقـيٍّ»، سـأختبرُه وسـأردُّ عـلى اسـتغرابه بجملةٍ قصـيرة متهكّمة:

قرأتُ أفكارَك!

أكيد لن يصلَ شكُّ «نادر» إلى حدِّ الاقتناع بوجود مثل هكذا عدسة نانومتريّة لكنّه سيضعُ نظّارتَه على الطّاولة كعادته عند مفاجأته بأمر غريب، ويصيحُ:

ـ تخبّلتْ؟

هذا كلُّه لن يهمَّ، المهمُّ إخضاع الجهاز للامتحان العمليِّ. معَ «نادر» ستكونُ الأمورُ أكثرَ ضماناً، فهو لا يمكن أنْ يُضمرَ لي سوءاً.

لم يكن النَّهار قدِ انتصف بعد عندما ولجتُ باب مبنى الصّحيفة. نظر موظّفُ الاستعلامات بساعته:

ـ أستاذ «نادر» لديَّه اجتماع معَ رئيس التّحرير ولكن تفضّلْ فالاجتماعُ بطريقهِ للانتهاء على ما أعتقد.

ولم أكدْ أخطو أكثر من خطوتين داخل بهو المبنى حتّى سمعتُ صوت باب يطرق بقوّة، إنّها «أم إحسان» عليّ الآن تفادي مقابلة عاملة الاتّصالات التي لن ترض بأقلَّ من عشرين دقيقةً من الثّرثرة. كانت قد أغلقَتْ باب غرفتها تواً، وقبل أنْ تدير عجيزتها الضّخمة، لتخطو باتّجاهي انعطفْتُ ببراعة إلى اليسار، على عجلٍ تواريتُ لِلحظاتٍ خلف رفوف الأرشيف. لا أريدُ أن يراني أحدٌ على هذه الحال، فعمليّةُ التّمثيل لم تكنْ أبداً من مواهبي، طيلة حياتي لم أكنْ قادراً على إخفاء مشاعري. صادفْتُ «أمَّ إحسان» بسرعة ضحيّة أخرى، ولعلع صوتُها الجنائزيُّ عالياً، وكان «نادر» في هذه الأثناء قد غادر غرفة المدير، وعلامات الغيظ باديةٌ على وجهه. قبل أنْ ينتبه لوجودي في الممرِّ أحسسْتُ بأطرافي ترتعش وتخيّلت فظاعة ما أنا مُقدمٌ عليه، اللّعنة لم أعدْ أثق بأحدٍ! ربّما كنت في طريقي لفقدان هذا الصّديق. اللّعنة على هكذا يوم

نحسٍ! بضع ثـوانٍ لا أكثر حتّى استدرت خارجاً من البـاب التي ولجتُها قبـل لحظات..فَشِـلتْ مهمّتي كاملـةً! لم أقوَ عـلى المجازفة بفقـدان ما تبقّى مـن علاقاتي..

الوداع

عـدتُ إلى المـاء مكسـوراً. زيـف العـالم يبتلعنـي ويتقيّـأني عفنـاً، لا فائـدة منـه. عـليّ مقابلـةُ «المزعنـف» وتقديـم تقريـري المخيّـبَ للآمال عـن فاعليّـة «العدسـات الذكيـة».

ـ ما الذي جئتنا به؟ هل جرّبتَ العدسات؟

سألَ « المزعنف»، فهززْتُ رأسي بيأس:

ـ لا فائـدة عزيـزي «أونيس»! لا عـلاج، ولا تكنولوجيـا تصلـح للاسـتخدام مـع نفوسـنا الوعـرة. نحن نكـره، ونشـكُّ ببعضنـا، حياتُنا مبنيّـةٌ عـلى قاعـدة لاحـدّ لهـا مـن الكـذب، والرّيـاء. مـن المسـتحيل أن تثـقَ بما تـراه، وتسـمعُه، فهنـاك ظاهر، وباطـن، مُعلـنٌ ومُضمـرٌ، علنيٌّ وسريٌّ، إنّنـا نسـبحُ ببحـرٍ مـن الظّاهـر المزّيف..

ـ أها، لربّما أخطأتُ الاختيارَ، عدْ ثانيةً، واخترْ آخرين.

عقّبَ «أونيس»، فقلْتُ قاطعاً:

ـ كلّا ياسيدي! لم أُجربها، لن أتحمّل صدمةً قد تكون قاتلةً.

ـ لم تجرّبْها؟ إذن عن أيّة صدمة تتحدّثُ؟

ـ لا بـدَّ لي مـن مصارحتك، لا أثـقُ بأحدٍ! أخشـى إنْ جربتُها أن أفقد الجميع!

قال «أونيس»:

ـ إذن أنت حكمْتَ بنفسك بعد أنْ جربْتَ زيف الحاضر، ونحن وضعنا التأريخ أمّام عينيك وبذلك اطّلعْتَ على زيف الماضي. زيف الماضي، لابدَّ أن يتسرّبَ مع جريان السّنين إلى الحاضر، أمّا المستقبل فهو الضّحيّة الكبرى. الأجيال الآتية هي الضّحيّةُ. وددتُ سؤالَك، ماذا تتوقّعُ لو أنَّ «العدسات الذكيّةَ» قد رُكِبّت على عيون كلِّ البشر؟

ضحكْتُ بمرارة:

ـ كارثة كبرى، معاركُ داميةً، ونزاعاتٌ قبليّةٌ، وعائليّةٌ، ومناطقيّةٌ وطائفيّةٌ، ودينيّةٌ وقومية. لقد فكّرْتُ بالأمر بعدَ خيبتي، تخيّلْتُ شخصين، أحدهما زيد، والآخر زياد، يلتقيان صباحاً أمام فرن الخبز. سيقولُ زياد وكما هو مُعتاد مبتسماً: «صباحُ الخير». لكن زيداً، كان قد قرأ الحقيقة من دماغ زياد مباشرة، زياد قال في الحقيقة: «اف..شلون صباح أسود هذا، أتى الحقير!» تخيَّلْ بماذا سيردُّ زيد؟ إما أنّه سيتظاهرُ بأنَّه لم يقرأ الحقيقةَ، ويردُّ «صباحُ النّور»، ولكنَّ زياداً في هذه الحالة سيعرفُ أنَّ زيداً يكذبُ لأنّه قرأ أيضاً مافي رأسه بعد أن حيّاه، هو في الحقيقة قال: «يا ابن الضبع..ما الذي فعلتُه لك؟» أو أن زيداً سيقول الحقيقة..آنذاك سيلتحمُ الطرفان بمعركة صباحيّة، لا شكَّ! تخيّلْ: كيف ستكون حياتُنا عندئذ؟ البرلمانّيون مع بعضهم؟ وزراء الحكومة؟ قياداتُ الجيش؟ العلاقات الزوجيّة؟ العلاقات الحزبيّة؟ العلاقات الدّوليّة؟ لقاءات السّفراء ببعضهم، أو تسليم أوراق الاعتماد؟ المصلّون في مسجد؟ الطّالب، وأستاذه؟ المتَّهم والمحقّق؟ الطّبيب ومريضُه؟ الأب مع أولاده؟ العاملُ مع مُديره؟ العروس وحماتها؟

عدساتُكم الذكيّة هذه تكنولوجيا، تُفيد المجتمعات الصّادقةَ. لا يمكنُ أن تعيشَ في مجتمعاتنا الغارقة بالكذب..لقد حاولْتُ تجربتها وكادت تقتلُني حتّى أنّي هربت كي لا أجد نفسي بمواجهة حقيقةٍ أخشاها. لم يبقَ لي في الدّنيا غيرُ بضعة أصدقاءٍ على الأرض، لا أريدُ المجازفةَ باختبارهم.

ـ معنى ذلك أنَّك عرفْتَ ما أردناك أن تعرفَه. عرفت أنَّ « دجلة» قد اختنقَ من كثرة ما رُمي فيه من جثث، والآن ما الذي يفعله كلُّ هؤلاء في النَّهر؟ هل يريدون تنظيفَه، وتعميقَ مجراه؟

قال المزعنف ذلك مُنتظراً منّي الإجابةَ، فوجدت نفسي حائراً ولخشيتي أنْ يختفي من أمّامي فجأةً، فتنتهي علاقتي به، فلا أستطيع طلب مساعدته بعدَ الآنَ قلْتُ:

ـ سأفشي لكَ عن سرٍّ، ربّما لن يعرفَه غيرُك وأريد منك تفاصيلاً لو سمحت، يبدو إلى جانب جثث القتلى هناك عرباتٌ ذهبيةٌ، وكنوزٌ مدفونةٌ، وذلك مايمنع ماء النَّهر من الجريان!

ضحك المزعنف، فشعرتُ بالحرج منه. هل يعني ذلك أنّه لايعرف شيئاً عن الكنوز؟ واصلت:

ـ المبهج في الأمر وجود مسؤولين يستميتون من أجل ألّايعرف اللصّوص مكان الكنز.

ـ هل تعرف هؤلاء المسؤولين؟

تردَّدْتُ قليلاً ثمَّ أجبته بشيء من الزّهو:

ـ نعم ، كانوا في ضيافتي يومَ لقائي بك.

ـ اللّواء «سعد»، ومُساعده الرّائد «جواد».

يا للهول! يعرفُهم بالأسماء.

ـ كيفَ عرفْتَ ذلك بحقِّ السّماء؟

ضحك « المزعنف» حتّى دمعَتْ عيناه البّراقتان.

ـ لا كنزَ في الماء.

ـ إنَّهم يعرفون مكانَه بالدقه، ومصدرُهم موثوقٌ.

ـ يعرفون أنّه لاوجود لكنز تحتَ الماء. اخترعوا القصّةَ لإبعاد الشّبهات عن هدفهم من أعمال الحفر، ولزجِّ الجيش في عمليّةٍ تمويهيّةٍ تشملُ أعالي النَّهر..

إذن هو يقصد عملّيةَ انتظار الأنوناكي التي تسرّبَتْ لي عن طريق الحقيبة، فصحَّحْتُ بارتباك:

ـ أعرف، نعم قد يكونُ ذلك مجرّد ادعاء، لكنّي أعرفُ أيضاً أنَّ الأمريكان مشغولون باستقبال الأنوناكي..

ضَحِك «المزعنفُ» ثانيةً هازّاً رأسَهُ بطريقة، لم أفهمْها، فأحسسْتُ كأنّي تلميذٌ قد أخطأ أمام معلّمه، فقدْتُ الآن كلَّ ذخيرتي! ورأيتُ الفرصةَ سانحةً كي أُقنعَ «أونيس» بالسّماح لهنري بمرافقتنا إلى قاع النَّهر!

لكنْ أشفق عليّ مُحدثّي أخيراً، وقالَ:

ـ الأمر أخطر ممّا تتصوّر! لو تعرفون ما يعدُّه الميجر لكم!

خارَتْ قواي، وجفَّ حلقي، فلم أنطقْ بحرفٍ! يتحدّثُ «أونيس» هذه المرّة عن الميجر! هذا المزعنف يتحدّثُ عن محتوى تقرير الحقيبة! من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ كما لو أنَّ هذا الكائن قد دخل تلافيف دماغي! بِتُّ أخشى أيّةَ جملة أقولُها. وجودي معه، رغم

دماثتـه، ورفعـة أخلاقـه تُشـعرُني بضآلـة سـاحقة. أردْتُ الثـأرَ لنفـسي، فلجـأتُ لقـول أشـياء في محاولـة لرفـع مسـتوى معلومـاتي بنظـره، لكنَّه كان أسرعَ منـيّ:

ـ هنـاك مـا هـو أكثرُ فظاعـةً، عمـلٌ سرّيٌّ لمـدِّ أنابيـب خرسـانيّةٍ مزدوجـةٍ الجـدران تمـرُّ مـن قـاع النَّهريـن، لسـحب النّفـط مـن الآبـار، وتهريبهـا بهـدوء مـن منابعهـا إلى الخليـج!.

صرخْتُ كالملدوغ:

ـ ماذا؟

ـ هـل تتذكّـرُ كيـف حاجَجَك «هنـري» عندما سـألْتَ عـن بطء نهر دجلة؟

أكاد أُجـنُّ كيـفَ يعـرف «المزعنـف» اسـم مديـر الشّركة؟ أنـا محتلٌّ احتـلالاً كامـلاً! زعقتُ:

ـ وهل تعرفُ «هنري» كذلك؟

ـ لاتنفعـلْ، مادمـتُ أعرفُـك، فأنـا أعـرف كلَّ مَـنْ تعرفُـه! لا داعٍ للحـيرة، افهـم الموضـوع كالتّـالي، أنـا، وأنـت مرتبطـان بشـكل مـاً، كومبيوتـران مرتبطـان ببعضهـا.

ـ ولكنّي لا أعرف عنك شيئاً، بينما تعرفُ عني كلّ شيء!

ـ كومبيوتران ببرامجيّات مختلفة المستوى، ولكنْ لا تتوقعْ منّي أيَّ أذىً!

عادَ لي بعضُ الاطمئنان، فقلت:

ـ نعم، أنا أعرف ذلك، حتّى أنّي لم أخفْ من مرافقتك..

ـ هل تتذكّرْ ماقاله لك «هنري»؟

قال لي: إنَّ بغدادَ واطئةٌ..

ـ قال لك: إنَّ ارتفاع بغداد عن البحر قليلٌ قياساً لبعدها عن الخليج، وهذا بالضّبط ما كان يشغل رأسَه، كيف يهندسُ انحدار الأنابيب بحيث تصل إلى البصرة بأقلِّ صرفٍ لطاقة الضَخّ، تصوّرْ هذه الخطة التي لا يمكن لإبليس التّفكير بها: تحجزُ كلَّ مرة عشرين كيلو متراً من النَّهر لفترة شهر، تُحاط هذه القطعة من النّهر بسياج عالٍ يمنعُ دخول أحدٍ، فهو موقعُ شركة عالميّة تؤدّي عملاً غاية في الأهميّة..يُمنع الاقترابَ منها. قبل هذا كنتُ قد استخدمْتُ مكائنك العملاقة لكري النَّهر، تشهدُ بذلك تلالُ الطّمي المركونة إلى جانبي النَّهر، كلّما كثرَتْ تلال الطّمي، كان ذلك دليلاً على نجاحك في هذه المهمّة الكبرى، وبذات الوقت ضماناً لتوسيع رقعة المساحة التي يُمنع المتطفّلون من دخولها. في هذه الأثناء تكون قد جهزْت أنابيباً تنقلُها بشاحناتٍ مُغطّاةٍ، وكلّ شهر تكون قد انحدرت بأنابيبك مسافةً باتّجاه الجنوب، وبعد سنتين ستحتفلُ البلاد بإنجازك التأريخيّ فأنتَ عمّقْتَ مجرى النَّهر، لكنْ لا أحدَ سيعرفُ أنَّك بذلك فرَّطْتَ بثروة البلاد كلِّها! غير ذلك فأنت خلال سنتين أضفْتَ إلى أسرار النَّهر سرّاً جديداً:

قاع النَّهر يحمل النّفط من الآبار إلى البحر!

ـ ماتقولُه لا يُصدَّقُ! كيف يمكن لأحد التّفكيرُ بذلك؟ ألا تفكّر هذه الشّركة بأنْ يكشف أحدٌ ما أنابيبَها؟ مثلاً بعد انتهاء أعمالها، كأنْ تكسرَ إحدى مكائنِ الكري بعد عشر سنين جدارَ الأنبوب فيتسرب منه النّفط..أو..

ـ أوّلاً الأنابيبُ خرسانيّة سميكة، ومزدوجة الجدران، أي: اسطوانتان متداخلتان إذا كُسرت الخارجيّة فسوف لن يتسرّب شيء، فالسّائل يجري في الدّاخليّة، ثمَّ أنّها موجودةٌ على عمق خمسةِ أمتار،

وحتّـى تقطـعَ الشّركة المجال أمام أيِّ تدّخّل، وقّعَـتْ عقد صيانة حصريّاً ومجّانيّـاً يمتدُّ خمسـينَ عامـاً قادمـةً، وصفَتْـهُ بهدّيتِها للبـلاد. كانَ شرطُها ألّا يُسـمَح لأيِّ طـرفٍ آخـر بالتدّخّل في عمليّة الصيّانـة! افهمها كالتالي:

لا أحد سيعرف السّرَّ إلى أنْ ينضب النّفط!

ـ ولكـنْ، لاوجود لآبار نفطٍ حولَ النَّهرين فكيف سـيُنقَل للأنابيب؟

ـ كانـت تلك المراحـل الأولى، وقد تمّتْ بفتراتٍ متعـدّدة تحت واجهة مشـاريع تطويـر مدني. صلة الآبـار بالنّهر مُنفَّذةٌ منـذُ زمن بعيد!

ـ اعـذرنْي، ولكـنْ ألّا يمكنكُـم تنبيـهُ النَّـاس إلى ذلـك؟ هـذه جريمة لاقـدرةَ لأحـدٍ عـلى الإحاطة بهـا غيرُكم!

ـ لقد أبلغناك، فماذا عساك أن تفعلَ؟

أحسسْـتُ بضيـق مـؤلم في صـدري. نعـم ما بوسـعي أنْ أفعـل؟ امتدَّ الضّيـقُ من صـدري، ليكبـس وجـودي كلَّه. الكـونُ يصغـرُ، ويتضاءَل ويحـاصرني حتّـى لا يـدع أمامي أيّـة ثغـرة للنّفاذ..

عادَ «المزعنف»:

ـ ولكـنْ قبـلَ أن نبـدأَ أُريـدُك أنْ تُشـاهد فيلـماً مـن مقاطـع، تُصَـوّرَ الغرقـى قبـل أنْ يُبعثـوا مـن جديـد للحيـاة. مونتـاج للحظـات وصول الغرقـى كجثـثٍ غارقـة. أعـرفُ أنّـه فيلـمٌ مُرهـقٌ للأعصـاب، وثقيلٌ، لكنّـي واثـقٌ مـن قدرتك عـلى تحمّـل صدمـة المعرفـة. معرفة مـا لم تكنْ تعلمُـه، وتتوقّعُـه هـو صدمة.

بعـد أن انتهيْـتُ مـن مشـاهدة الفيلـم صـارت أمعائي تتقافـز داخل بطنـي. كان منظـراً مهـولاً، كلّ لحظـة تهبـط إلى القعـر عـشرات الجثث.

يـا ربيّ! كـم رأيـت مـن جثـث المخطوفـين! والمخطوفـات الذيـن أُلقوا فيـه أحيـاءً وأمـوات، عسـكريين ومدنيـين، كبـاراً وصغـاراً، رجـالاً ونسـاءً، ريفيّـين وبـدواً، سياسـيّين وتجّـاراً. رأيـتُ عبـد الكريـم قاسـم يبتسـم كاشـفاً عـن سـنِّه الذّهبـيّ ماشـياً بـين ملايـين الكتب التـي أَلقى بهـا التتـار إلى المـاء. رأيـت شـهداء «سـبايكر» اليافعين، بعضهـم مازال يضـع يـده عـلى مـكان الرّصاصـات أسـفل الـرّأس. رأيـتُ مفقـودي حـرب الطّوائف، عـذراوات مُتّهـمات بالزّنا، وضحايا نزاعات عشـائر، رأيـتُ جواريَ ضحّـى بهنّ مالكوهـنّ اتّقـاءَ الفضيحة، أعضـاء قيادات قطريّـة وقوميّـة مختبئين بين هياكل سـيارات مسروقة، فتيـاتٍ مسـيحيّات وأيزيديّـات، رأيـتُ ثـوّاراً مازالـوا يحتضنـون بنادقَهم..رأيـتُ آلافاً غير معروفـين، غُـرزَتْ في خاصراتهـم سـيوفٌ، وخناجرُ. يـا ربَّ الكعبة من تلـك المياه نـشربْ! مـن دماءنـا ونقيـع جثثنا؟

صحت برعب:

هـذا لايُحتمـل! أنـا الآن محسـوبٌ عـلى حضارتكـم، لقـد أضحَـتْ حيـاتي عـلى اليابسـة مسـتحيلةً..ولا أعـرفُ مـا يتوجّـبُ عـليَّ فعلُـه!

كان رأسي يغـلي، صـار المـاء حـارّاً. خاطرٌ سريعٌ جالَ بـرأسي أنَّ هذه هـي لحظـاتي الأخـيرة مـع المزعنـف، لقـد أبلغنـي تعليـماتٍ عـن قـرب إتـلاف بدلـة السّـباحة، وتعطيـل الكـودات التـي اسـتخدمتُها خـلالَ رحلتـي. أردتُ سـؤالَه عـن الـذي وضـعَ الحقيبـةَ البنيّـة في دربي، ومـن هـم هـؤلاء الذيـن تحدّثوا إليَّ عـن الكنـز، لكنّي وجدت نفسي وحدي!

صرختُ ثانيةً:

ـ سـيّد «أونيـس» أجبنـي أرجـوك! أتْمِـمْ فضلَـك عـليَّ، ليـس عدلاً أنْ تُدخلَنـي أروقَـة الجنّـة، ثـمَّ لاتمنحنـي حتّى فرصـة إلقاء تحيَّـة الوداع

عليها..مـن هـؤلاء الذيـن تلاعبوا بي؟

لا أحد! بقيت وحدي في عتمة الماء!

عـدتُ ضارباً بذيـلي قعـر النَّهـر بحركـةٍ، أثـارَتْ هلـعِ الأسـماك الصّغـيرة، ومزّقَتْ نسيج الطّحالـب الرّقيق، وخلقَتْ زوبعـةً من الطّين الـذي خبـط مـاء النَّهـر، وحوّلَـه إلى دوّامـةٍ بنّيـةٍ غامقـةٍ. بأنفـاسٍ لاهثة لـذتُ في عتمـة المـاء المخبـوط، وسـبحْتُ بكلِّ قـوايَ نحـو مـا اعتقدتُهُ الاتّجـاهَ الـذي سـلكتُه أوَّل مـرةٍ مـع «المزعنف»، سـبحْتُ بـكلِّ ضراوة إلى أن لاحَـتْ أمامـي بقايـا شـبكة مهترئة مغروسـة بقعر النَّهـر بوتدين، فعرفـتُ أنّنـي أقترب من مـكانٍ آمـنٍ، هناك اسـتلقيْتُ على قفـاي لاهثاً مـن التّعـب وبكيْـتُ إلى أن أعتـمَ المـاء، فأيقنْتُ أنَّ المسـاء قد حـلَّ، الآن سـأغادرُ النَّهر.

*****

صحف الصباح

❖ عمليّةُ اختطافٍ لأجنبيٍّ مع اختفاء وثائقَ حسّاسةٍ جدّاً.

❖ أسرارُ الليّلة الأخيرة قبل احتلال بغداد..معلوماتٌ خطيرةٌ عن كنوز مخبّأة في قاع دجلة...

❖ تحقيقٌ بواقعة الاختفاء المفاجئ ودونَ ترك أيِّ أثرٍ لمترجم شركة «أجنبيّة» تقومُ بأعمالِ حفرٍ في نهر دجلة، وأنباءٌ عن انتحار المختطفَين!

❖ معلوماتٌ سرّيّةٌ خطيرةٌ عن «كائنات عاقلة» تعيشُ في مياه العراق..

❖ روايةٌ بقلم المترجمِ المخَطوفِ، تكشفُ حقيقةً مروّعةً..بلادُنا مباعةٌ!

❖ مُحَقِّقُ القضيّة يختفي هو الآخرُ بعدَ أن كتبَ:

أكادُ لا أُصدّقُ، أردْتُ الخروجَ من غرفة المترجم لتدخين سيجارة فصُعقتُ لمنظر سمكةٍ هائلة، تقفُ على ذيلها، وتسدُّ فتحةَ الباب عليّ، أردْتُ مناداةَ الحارس، تهالكْتُ على مقعدي بعد أن خارَتْ قواي، لهول المنظرِ، لكنَّ السّمكةَ الشّبَح كانت قد اختفَتْ بسرعة..

❖ الشّرطةُ تُصادرُ روايةً إشكاليّةً لمؤلّفٍ مجهول.

Contents

أونيس............................ 11
المتحف.......................... 21
سر الحق1............................39
كريت ريفيرز...........................51
حي المغدورين والمقهورين..........................115
حي العشّاق واللاشرعيين.........................121
حَيُّ المنتحرين..........................129
حيُّ العلماء، والورّاقين..........................137
حيُّ السياسيين...........................141
حي المتحف.............................145
العودة............................ 155
آخر المحاضرات...........................161